موسوعة علماء فلسطين وأعيانها

الجزء الثالث

إعداد وتأليف

مجموعة من الباحثين

تصدر بإشراف

أ. د يحيى جبر

أستاذ علم اللغة بجامعة النجاح الوطنية

التصميم والمونتاج:عبد الهادي جوابرة

تعريف بدائرة المعارف الفلسطينية

-
- محاور دائرة المعارف الفلسطينية
- موسوعة علماء فلسطين وأعيانها، ويتضمن هذا المحور مادة الموسوعة التربوية الفلسطينية وزيادة
- خزانة فلسطين التاريخية
- خزانة فلسطين الجغرافية
- سلسلة التراث الشعبي الفلسطيني «من الخابية»
- بنك معلومات القدس

المحتوى:

نأمل أن تحتوي هذه الدائرة على كل ما يتصل بفلسطين الأرض والإنسان، مخترقة حدود المكان والزمان. وهي مبوبة في محاور بحسب الموضوعات التي تشتمل عليها، فقسم لعلماء فلسطين وأعيانها عبر القرون، بغض النظر عن ديانتهم ومذاهبهم وتوجهاتهم الفكرية والحزبية، وآخر يتضمن خزانة فلسطين التاريخية، ندرج فيه وقائع الزمن، والحوادث التي تعاقبت على فلسطين، وثالث يخصص لخزانة فلسطين الجغرافية، فلا نترك موقعا ولا بلدا ولا عينا ينتهي إليها علمنا إلا رصدناها فيه، كما تتضمن الدائرة قسما يخص المأثورات والفنون الشعبية الفلسطينية، أسميناه «من الخابية» الوعاء الفلسطيني المشهور في بيوتنا قديما، وسيدرج في هذا الإطار كل ما يتصل بأنماط الحياة الشعبية مما له ارتباط بالقول أو العمل اليدوي أو الحركي. أما القسم الخامس فهو «بنك» للمعلومات المتصلة بالقدس على وجه الخصوص.

ولما كان المشروع على هذا القدر من التشعب والاتساع، فإننا نهيب بكل مطالع أن يبادر إلى تزويدنا بما لديه من معلومات على هيئة مادة إلكترونية، أو أن يرشدنا إلى المصادر التي يمكن أن نجد فيها ما يندرج في هذه الأطر، كما أننا نستاذن الباحثين والناشرين في نشر ما نجده من موادهم الإلكترونية في هذا الموقع. وسنسعى من بعد إلى إصدار المادة مطبوعة في مجلدات نحكِم ترتيبها بطريقة تسهل الرجوع إليها.

الهدف:

تهدف جامعة النجاح الوطنية من وراء هذا المشروع إلى توثيق فلسطين الأرض والإنسان انطلاقا من شعورها بالمسؤولية التاريخية تجاه فلسطين وقضيتها ومستقبلها، فلئن حالت الظروف المتعاقبة دون إنجاز المشروع الحضاري الفلسطيني وفقا لما يقتضيه انتماء فلسطين وأهلها؛ فليس أقل من النهوض بما يوثقها ويحفظها من الضياع، ولا سيما أن كل فلسطين مستهدفة أرضا وإنسانا وثقافة وتراثا.

الآلية:

سنبادر إلى رفع ما لدينا من مواد دائرة المعارف الفلسطينية على الشبكة الإلكترونية، وسنبدأ في الوقت نفسه بجمع المعلومات المختلفة ومعالجتها لرفعها، راجين من كل متصفح أن يبادر إلى الإسهام في هذا العمل الجليل، وسندرج اسم صاحب المشاركة إزاءها من باب حفظ الحقوق. وستصدر الجامعة مواد دائرة المعارف في كتب تنشر تباعا بحيث تتضمن المادة الأصلية وما قد يرد إلينا من تعليقات أو نقد أو مداخلات تتصل بها.

حدود المسؤولية:

لا تتحمل الجامعة أي مسؤولية تجاه ما ينشر، وإنما تقع المسؤولية أول ما تقع على عاتق المؤلف يليه في ذلك من يعترض أو ينتقد، لأننا ننشر ما ننشره ونترك للمتصفحين حق التعليق والتعقيب، وحق الرد والنقض، فنحن نعلم أن أحكامنا على الأشخاص والأشياء من حولنا تختلف، إذ أن كلا منا يحكم بحسب ما يتوفر لديه من معلومات، ونعد بنشر كل ما يرد إلينا من مداخلات أو تعليقات دون تدخل. ونأمل بذلك أن يتمخض الحوار عن الحقيقة التي تتكفل الأيام بحفظها بعد أن نعمل على جلائها.

تصدير

انطلاقا من الدور المنوط بجامعة النجاح الوطنية من حيث هي أكبر المؤسسات الأكاديمية في فلسطين، ومن استعدادها للنهوض بأعباء المشروع الحضاري الفلسطيني، فقد شرعت في إعداد دائرة المعارف الفلسطينية، وبادرت إلى جمع المعلومات التي تتصل بعلماء فلسطين وأعيانها، وبالمواقع الجغرافية، والوقائع التاريخية، إضافة إلى ما وعته الذاكرة وترجمته الحياة الشعبية من مأثورات قولية أو يدوية، إلى جانب ما يتصل بمدينة القدس مما نطمح إلى أن يشكل من بعد بنكا للمعلومات الخاصة بها.

وقد رأت الجامعة أن تكلف الأستاذ الدكتور يحيى جبر بمهمة الإشراف على هذا العمل الضخم، لخبرته في هذا المجال، إذ سبق أن أصدر تراجم لنحو من مائة من أعيان فلسطين وأعلامها، كما أصدر بضعة كتب تتصل بتاريخ فلسطين والمواقع الجغرافية الفلسطينية والأدب الشعبي.

إن جامعة النجاح الوطنية لترجو بهذا العمل أن تحقق مزيدا من التفاعل الحضاري على الساحة الوطنية في جميع مجالات المعرفة، ونحن من هنا نهيب بكل المعنيين أن يبادروا إلى التواصل مع الموقع المخصص لدائرة المعارف الفلسطينية، وأن يزودوه بما لديهم من معلومات، وألا يبخلوا بملاحظاتهم وإبداء آرائهم لما في ذلك من نفع يعود على الجميع، ولا سيما أننا سننشر ما يرد إلينا على مسؤولية مؤلفه؛ تاركين للمتصفحين حق الرد والتعليق والنقض، واعدين بأن ننشر ذلك من بعد في كتب تشكل أجزاء دائرة المعارف.

وتمثل هذه الدائرة، في حال إنجازها على الوجه المأمول، نجاحا وطنيا كبيرا، يسهم في تحقيقه الفلسطينيون هوية وهوى، وإن فلسطين لتستحق منا ذلك وأكثر، ونرجو بهذا العمل أن نوفق إلى توثيق فلسطين وحفظ تراثها والتعريف بأعيانها وعلمائها ونعرف بمواقعها ومأثوراتها، فلا تطالها إيدي المعتدين، ولا يجور عليها الزمن بالعفاء والاندثار.

إن الشعب الفلسطيني، وبالرغم مما تواتر في ساحته من الأحداث، لقادر على النهوض بعزيمة الغير من أبنائه، لتحقيق أهدافه المشروعة، متحديا الاحتلال، ومتمردا على ظروفه العصيبة، ومن هنا كانت مبادرة جامعة النجاح الوطنية إلى الشروع في إصدار أجزاء دائرة المعارف الفلسطينية، لتكون عونا للباحثين، ومصدر افتخار لأبناء فلسطين، وهذا أوان الشد.

أ.د. رامي حمد الله

رئيس الجامعة

مقدمة

إن الشعوب التي تحرص على التواصل بين أجيالها المتعاقبة، وتحافظ على ذاكرتها يقظة حاضرة بشكل مستمر، لهي جديرة بالارتقاء في مراتب المجد، وبلوغ آمالها وتحقيق أهدافها؛ وإن أبطأ بها الزمان لما قد يعترض طريقها من عقبات كالاحتلال وتفرق الأسر ونقص الموارد، ولكنها لا تلبث حتى تحطم أغلالها، وتكسر قيدها، وتنطلق في مسيرتها بعزيمة وثبات.

وتسعى جامعة النجاح الوطنية بهذا العمل إلى تقديم أعلام فلسطين وأعيانها الراحلين لهذا الجيل ولمن بعده من الأجيال؛ ليتخذوا منهم قدى يحوكون على منوالها، ومشاعل على طريق تحقيق الذات للنهوض بالمشروع الحضاري الفلسطيني من حيث هو لبنة في ما تسهم به الأمة من دور في تشييد صرح الحضارة العالمية.

وستصدر هذه السلسلة من الأعلام في كتب متتابعة لتشكل مع سلسلة « من الخابية « للمأثورات الشعبية، وخزانة فلسطين التاريخية، وخزانة فلسطين الجغرافية، وبنك معلومات القدس _ دائرة المعارف الفلسطينية، التي ترجو بها جامعة النجاح أن تخطو بالمجتمع الفلسطيني خطوة جبارة على طريق السؤدد الاجتماعي والمجد.

وسنكرر هذه المقدمة في صدر كل عدد من أعداد السلسلة، كما أننا سنجعل ترقيمها متسلسلا بحيث يبدأ ترقيم الكتاب التالي من حيث ينتهي هذا الكتاب.

وقد حرصنا في تقديم الأعلام بما تيسر لنا من معلومات عنهم، بغض النظر عن الاختلاف بين مناهج المعدين، وتفاوت الموضوعات التي تغطيها التراجم المختلفة، إذ أننا تركنا المجال مفتوحا للمعدين لجمع ما يرونه من المعلومات عن هذا العلم أو ذاك، على نحو ما يجده المطالع في هذه السلسلة من تفاوت.
وفي ترتيب الأعلام في أعداد الموسوعة لم نلتزم منهجا محددا في تتابعهم على صفحاتها، بل جئنا بهم عشوائيا؛ إذ لا سبيل إلى انتهاج آلية بعينها لتحقيق ذلك؛ لأن العمل لم يتوقف، فقد يدرج علم في موضع ما فنحصل على ترجمة لعلم آخر هو أولى منه به، فيختل بذلك نظامها، ولكننا سنقوم بإعداد فهرس شامل لدى اكتمالها، ونكتفي قبل ذلك بإصدار كشاف يلحق بأعدادها المتوالية؛ يتضمن بيان الموقع الذي ورد فيه كل علم ترجمنا له.

وجدير بالذكر أننا لا نحقق في صحة المعلومات الواردة في تراجم الأعلام، فذلك يحتاج إلى جهود لا سبيل إلى توفيرها، ولكننا، ومن أجل أن يظل الباب مفتوحا أمام التصويب والتصحيح، لنرجو من كل القراء أن يبدوا آراءهم في ما يقرؤونه، وأن يعقبوا عليه _ إن شاؤوا _ سلبا او إيجابا، لأننا نعلم أن بعض الأعلام كانوا _ وما زالوا _ يشكلون لغزا يصعب حله، والتحقق من أمره، ومرادنا هو أن نقدم للقراء صورة صادقة عن رموز حركة الوعي والنشاط الاجتماعي في فلسطين ملونة بألوانها التي تحملها مرددين مقولة « هذا نحن » بما لنا وما علينا.

كما نرجو من القراء الكرام أن يبادروا إلى الإسهام في إعداد هذه الموسوعة، وفي غيرها من فروع دائرة المعارف الفلسطينية، وألا يألوا جهدا في سبيل إنجازها على أكمل وجه وأوفاه، لأن فلسطين تستحق منا ذلك وأكثر منه، فقد دقت ساعة العمل، وحان الوقت لنفض غبار الزمن، ورفع راية التحدي الحضاري.

وكنت في العقدين السابقين قد أصدرت نحوا من خمسة وأربعين مطبوعة تضمنت تراجم لكثير من أعيان فلسطين، ولكنني لم أتمكن من مواصلة إصدارها لأسباب مختلفة، حتى كانت مبادرة الأستاذ الدكتور رامي حمد الله حين أبدى رغبة الجامعة في إعادة إصدارها وتقصي سير الأعلام الفلسطينيين على أوسع نطاق ممكن.

وهنا لا بد من كلمة حق أنوّه فيها بجهود الأستاذ الدكتور رامي حمد الله، رئيس الجامعة، وضابط إيقاع أنشطتها المختلفة، وأثني على دوره الفعال في رفع شأن العلم والعلماء، وتشجيع الفعاليات الثقافية والعلمية في الجامعة والمجتمع، إذ لولا ذلك منه لما أتيح لهذا العمل أن يرى النور بصورته العتيدة. والله الموفق للسداد.

أ.د. يحيى جبر

نابلس في ٥/٥/٢٠١٠م

محارب ذيب مصطفى نصار

١٩١٤ – ١٩٩٥

أ. لطفي مرشود

محارب ذيب مصطفى نصار

بيئته

البيئة العامة للشاعر هي قرية جبع المقدسية، القرية الفلسطينية الشامخة شموخ جبل الكرمل، والاسم (جبع) كنعاني، ويعني بالكنعانية تل[1] وترد الكلمة في اللغات السامية المشتقة من، الجذر نفسه، وجميعها تدل على العلو والارتفاع.

وتعد جبع إحدى المدن التي بناها الكنعانيون في فلسطين، في الألف الثالث قبل الميلاد في أواخر العصر الحجري الوسيط، وهي اليوم، «تقع في الشمال الشرقي من القدس على بعْد ستة أميال منها، وهي قرية صغيرة ترتفع (2220) قدم»[2]، وتتبع لواء القدس الذي حظي باهتمام الدولة العثمانية طوال فترات حكمها تبعا لمكانتها الدينية.

لقد حافظت جبع على مكانتها وشهرتها طوال عصور التاريخ، بما حملته من ظلم وقهر على هذه الأرض جراء السيطرة الأجنبية، بدءا من اليهودية فالأشورية فالبابلية فالرومانية فالصليبية فالإنجليزية وآخرها الصهيونية[3].

كما ورد إسم (جبع) في الكتاب المقدس، في الإصحاح الحادي والعشرين، حيث تذكر أسفار العهد القديم أن جبع مدينة قديمة هامة كانت زمن (بنيامين) « ومن سبط بنيامين جبعون ومسرحها، جبع ومسرحها، عناثوت ومسرحها، وعلمون ومسرحها»[4].

وتتربع قرية جبع على تلة تطل على فضاء فسيح، وجبال جرداء أمام فضاء يمتد شرقا حتى مشارف أريحا، وتحيط بقرية جبع، أراضي قرى الرام وبرقة ومخماس وحزما ودير دبوان، فتحدها من الغرب أراضي الرام ومن الشرق تصل أراضي القرية إلى عين الفوار، وهي أراض خالية من العمران حتى حدود أراضي لواء أريحا، ومن الشمال الغربي تحدها أراضي قرية برقة، وأراضي قرية مخماس من الشمال الشرقي، ومن الجنوب والجنوب الشرقي أراضي قرية حزما.

وتبلغ مساحة قرية جبع التي تقام عليها القرية حوالي «أربعة وعشرين دونما، تمتد بمقطع طولي شرقا وغربا، وأما المساحة الإجمالية لأراضي جبع، «فقد بلغت حوالي 13407دونما»[5]. وتضم قرية جبع الكثير من الآثار القديمة والخرب التي تنتشر في محيط القرية وأطرافها، ومن أشهرها خربة الحي وخربة الصعدة وخربة الخضيرية وخربة التينة، وخربة الرومية[6].

كما يوجد فيها بقايا آثار رومانية وهي عبارة عن «برج مراقبة يتكون من ثلاث طبقات متداخله، وتشمل غرف نوم وحمامات، أشبه بالقلعة، إضافة إلى كنيسة قديمة وبركة مياه»[7] وقد تحولت الكنيسة فيما بعد إلى مسجد.

ويعمل أهالي قرية جبع بالزراعة والرعي، كما اشتهروا باقتناء الحيوانات كالماعز والأغنام والأبقار.

1- الدباغ، مصطفى مراد، بلادنا فلسطين، ج2، القسم الثاني، (د.ط)، دار الهدى، كفر قرع، 1991، ص69.

2 - شراب، محمد حسن، معجم بلدان فلسطين، ط2، الأهلية للنشر والتوزيع، 1996، ص247.

3 - انظر: بشارات، راسم، جبع الأرض والإنسان، ط1، مطبعة البيان الحديثة، الرام، القدس، 2004، ص16

4 - الكتاب المقدس، أسفارالعهد القديم، سفر يشوع، أية «18»، (د.ط)، جمعيات الكتاب المقدس المتحدة، 1966، ص271.

5 - الدباغ، مصطفى مراد، بلادنا فلسطين، مرجع سابق، ص69.

6 - انظر: بشارات، راسم شعبان، جبع الأرض والإنسان، مرجع سابق، ص23 ـ 24

7 - المصدر نفسه، 33 ـ 35

ويذكر أن قرية جبع كانت في « العهد العثماني، إحدى قرى القدس، وقد ساهم أهلها في حروب الدولة العثمانية ضد الإمبراطورية القيصرية، كما لعبت القرية دورا مميزا في مواجهة الانتداب البريطاني، وشاركت في ثورات أعوام ما بين 1936_ 1939 .[8]»

أما عدد سكان قرية جبع، فتشير إحصائية مركز الإحصاء الفلسطيني عام 1999بأن «عدد سكان قرية جبع يبلغ (2460) نسمة»[9].

وفي الوقت الحاضر يقدر عدد السكان فيها نهاية عام 2003 بحوالي ثلاثة آلاف نسمة[10]، وتضم قرية جبع حاملتين كبيرتين هما التوام والحمايل، وكل حاملة يتفرع منها ثلاث عائلات وهي نصار وكنعان ويوسف من حاملة التوام وبشارات وسليم وعكوش من حاملة الحمايل[11].

وعرفت قرية جبع التعليم منذ القدم، حيث نشأ فيها تعليم الكتاتيب، ومع تطور التعليم في فلسطين، «أنشىء فيها بعد نكبة عام 1948، مدرستان واحدة للبنين والثانية للبنات»[12] يدرس فيها الطلاب والطالبات حتى نهاية المرحلة الإعدادية، وينتقل أبناء القرية ذكورا وإناثا لإتمام دراستهم الثانوية في مدارس بلدة الرام المجاورة للقرية.

ومن الجدير بالذكر أنه يوجد في فلسطين قرية أخرى تسمى جبع، وهي أحدى قرى محافظة جنين وتبعد حوالي عشرين كيلومترا جنوب مدينة جنين، وأما عن بيئة الشاعر الخاصة في أسرته وعشيرته، فقد ولد عام 1914[13]، نهاية حكم الأتراك في الوطن العربي، حيث نشطت القومية العربية في تلك الأيام، وحمل ذلك العام بوادر أمل للأمة العربية في التحرر والاستقلال.

وفي ظل تلك الظروف السياسية، رزق القاضي العشائري الشاعر ذيب مصطفى نصار بابنه الثامن (محارب)، حيث نشأ هذا الابن في بيت تتفجر في أركانه الحكمة، وتفيض جوانبه بالأدب والفن، فالأسرة ورثت القضاء العشائري أبا عن جد، وكذلك الشعر، والعزف على الربابة، وأدى كل ذلك إلى شهرة الأب (ذيب)، الذي عرف بقضائه العادل، وشعره الجيد ولحنه المميز، فأصبح مقصد أبناء منطقتي القدس ورام الله، ولم يبخل بالمشاركة في الإصلاح بين المتخاصمين، وكذلك فإنه لم يتوان عن إنشاد الشعر والعزف على الربابة في أي مناسبة من مناسبات الفرح في قريته والقرى المجاورة. وقد نما الابن محارب ودرج في ظل دوحة الأسرة، حتى أصبح معروفا في قريته والقرى المجاورة.

وشاءت قدرة الله بأن يفجع الشاعر بستة من أشقائه في حياته وهم: مصطفى ومصيطف ومحمد وحرب وعبد اللطيف ورضوان، في حين ظل محارب وحيدا يمثل آخر حبات العقد.

عاش محارب ذيب طفولته منعما مدللا في ظل والده، فكان مقربا منه نظرا لصغر سنه، ولم تؤثر فيه قسوة الحياة التي مرت بها البلاد أيام الانتداب البريطاني، فالأسرة موسرة وأملاكها كثيرة في القرية.

وقد حفلت حياة الشاعر طيلة القرن الماضي كغيره من الفلسطينيين، بأحداث سياسية وعسكرية كثيرة ومتلاحقة، وبالنظر إلى التسلسل الزمني لتلك الأحداث التي عاشها الشاعر فأولها ثورة 1936في فلسطين وما تبعها من مقاومة عسكرية وسياسية لسياسة الانتداب البريطاني في بلادنا، ومن ثم أحداث عام 1947 حين وضع الاحتلال الصهيوني يده على بلادنا بدعم بريطانيا، بناء على قرار التقسيم، ثم عام 1948 عام

8 - انظر بشارات، راسم شعبان، جبع الأرض والإنسان، مرجع سابق، 37 ـ 38

9 - الإحصاء السنوي(1)، الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، (د.ط)، رام الله، 1999، ص123.

10- راسم، بشارات، 2003/12/26.

11 - رضوان محارب ذيب، 2003/12/26.

12 - الدباغ، مصطفى مراد، بلادنا فلسطين، مرجع سابق، ص69.

13 - انظر: الملحق الثالث.

النكبة التي حلت بفلسطين وشعبها، عندها واصلت العصابات الصهيونية المسلحة التوسع فوق الأراضي العربية الفلسطينية، فتم طرد العرب من أراضيهم في المدن والقرى الفلسطينية مثل: يافا وحيفا وتل الربيع، والناصرة وبيسان، واللد والرملة وعسقلان والنقب واللطرون والقدس وكفر قاسم. في حين أقام الاحتلال الصهيوني مستوطنات صغيرة على الأراضي العربية أصبحت فيما بعد مدنا يهودية كبرى.

وبتزايد الأحوال السياسية سوءا، وما صاحب ذلك من تشديد الخناق على السكان والركود الاقتصادي، عانى الوطن بشكل عام من آثار الهجرة التي بدأت مطلع القرن الماضي تقصد (الولايات المتحدة الأمريكية وأمريكا الوسطى)، وكان خمسة من أشقاء الشاعر محارب ذيب ضمن هؤلاء المهاجرين، مما جعل هذه الهجرة تؤثر فيه سلبا.

ومما يذكر أن أربعة من أشقاء الشاعر، وهم: مصيطف ومحمد وعبد اللطيف ورضوان وافتهم المنية بعيدا عن أرض الوطن، وقد دفنوا في بلاد الغربة في (نيكاراغوا والولايات المتحدة الأمريكية) [14].

وهكذا بات الشاعر يمقت الغربة، وأصبح من أشد المعارضين للاغتراب والداعين لعودة المغتربين إلى ديارهم، فغنى أشعارا وقصائد من أشهر ما قيل في الاغتراب كما هو الحال في قصائده القصصية: (مالك) و (الغريب)، و(ماريا) وقصة (ديما ومحمد) و (سالم وسليمان)، وغيرها من القصائد والقصص التي تحمل ألم الشاعر ومرارته من الاغتراب.

وكثيرا ما كان الشاعر يدعو أبناءه إلى العودة للوطن، وعدم إطالة فترة الغربة، وقد عرض عليه ابنه سليمان أن يعيش هو وزوجته في أمريكا ولكنه رفض ذلك العرض، وأما بخصوص سفر الشاعر إلى أمريكا فقد كان في مناسبا اجتماعية خاصة، اضطر فيها الشاعر للسفر لمدة قصيرة لا تتجاوز الشهر أو الشهرين[15].

كما أثرت وفاة أشقاء الشاعر في نفسه تأثيرا عميقا، حيث أوجدت في نفسه فراغا نفسيا هائلا، مما دفعه للتقرب من أبيه، ليسد الفراغ الذي خلفه رحيل أشقائه.

وقد اكتسب محارب من خلال ملازمته لأبيه العطف والحنان، كما اكتسب منه حب الشعر والعزف على الربابة، حيث مال لقول الشعر منذ نعومة أظفاره، وظهرت بوادر نبوغ قريحته الشعرية في وقت مبكر، إذ إنه نشأ في بيئة شاعرة، فكان والده الشاعر قدوة له، حيث اعتاد الابن (محارب) أن يأخذ ربابة والده دون علمه، ويخرج بها مع رفاقه، يجر عليها مقلدا أباه في مجالسه[16]، وبقي كذلك حتى أتقن العزف على الربابة، أما عن مشواره مع الشعر فقد بدأه بإلقاء قصائد أبيه عن ظهر قلب، ثم أخذت قريحة الشعر تتفتح عنده، حتى أصبح يلقي قصائده في شتى مجالات الشعر، مثل الشعر الوطني والمديح والغزل والحكم والوصايا والفخر والرثاء، والقصص التراثية والاجتماعية التي عالج فيها كثيرا من القضايا الهامة مقدما العبرة والموعظة لمستمعيه.

عرفته الأوساط الشعبية من خلال شعره وربابته حيث كان يتوسط ساحات الاحتفالات في المهرجانات والأعراس، فيطرب الناس ويمتعهم، وقد»حمل الصحراء في عباءته ومضى، وجعل من فلسطين وجنوبها مسرحا له يصول ويجول فيه تاركا وراءه ثروة فنية»[17]

ومع تطور الأحداث الوطنية والسياسية، وتفاعلها على أرض فلسطين المحتلة طوال القرن الماضي، باتت هذه

14 - محمود محارب ذيب، 19/9/2003.

15 - رضوان محارب ذيب، 19/9/2003.

16 - محمود محارب ذيب، 19/9/2003.

17 - عوض، أحمد رفيق، شاعر الربابة محارب ذيب، مجلة الزاوية، ربيع 2003، ص196

الأحداث زادا أساسيا لأشعاره، وجاءت قصائده متجاوبة مع كل حدث[18] فنذر نفسه من أجل قضية شعبه.

كان الشاعر كالشمعة تحترق لتنير الدرب للآخرين، فقدم نموذجا في العطاء، ودرسا في التضحية والنضال، من أجل قضية وطنه وشعبه، فقد وهب حياته لوطنه من خلال شعره الشعبي، فأخذ يترنم به مسجلا تاريخ فلسطين حدثا تلو حدث، بكلمات شاعرية بسيطة، تأخذ لون الفخار والتمجيد والعزة لمن ناضلوا أو جاهدوا، والترفيه والترويح، وإدخال البهجة إلى نفوس الناس الذين يحتفلون بالأعراس والأفراح والمناسبات السعيدة.

وظل الشاعر طوال سني عمره التي بلغت إحدى وثمانين عاما من، 1914 إلى، 1995[19] يفتخر بكونه شاعرا شعبيا فلسطينيا، وطالما ردد مقولته التي اقترنت باسمه حيث كان يقول دائما: « لي الشرف أن أكون شاعرا في هذا الوطن، »[20].

«فالمتتبع لأشعار محارب ذيب يرى فيها تسجيلا ملحميا لسيرة الشعب الفلسطيني منذ أيام العثمانيين وانتقالا للانتداب البريطاني مرورا بالعهد الأردني ومن ثم الاحتلال الإسرائيلي»[21] وطاف مختلف بقاع الوطن في الضفة والداخل وقطاع غزة وفلسطين المحتلة من النقب حتى الجليل، حيث أقام المهرجانات الشعبية وحفلات الأعراس، فلاقى الترحيب والحفاوة في كل مكان ينزل فيه.

وبمرور الأيام أصبح محارب ذيب ذلك الشاعر والفنان الذي ذاع صيته في طول البلاد وعرضها، من خلال شعره وربابته، فطاف مختلف بقاع الوطن، كما تنقل في معظم الدول العربية المجاورة يحيي الاحتفالات ويسامر عشاق الربابة بأشعاره وقصصه.

كما شارك الشاعر في مهرجانات التراث المختلفة التي كان يقيمها مركز التراث الشعبي وجمعية الفولكلوريين الفلسطينيين التي كان أحد أعضائها[22]، وقد اعتاد الشاعر أن يجلس بربابته في الخيمة التي كانت تقام في موقع المهرجان التراثي في حديقة متنـزه البيرة، خلال السنوات (1975، 1978، 1979) على التوالي، وحيث أن الشاعر شخصية وطنية ملتزمة، فقد حرصت المؤسسات الوطنية في أرجاء الوطن على دعوته لإحياء الاحتفالات والمهرجانات الشعبية والوطنية، فدعته مجالس الطلبة في الجامعات الفلسطينية في بيرزيت والنجاح وبيت لحم، في الأعوام من 1980-1987[23]، وكان يشارك في المهرجانات التي كانت تقام في ذكرى انطلاقة حركة فتح من كل عام، وكان يلبي دعوات مجالس الطلبة في جامعات الضفة مثل بير زيت والنجاح والخليل، وخاصة إذا كانت تابعة لحركة الشبيبة الطلابية، ومن الجدير بالذكر أنه شارك عام 1984 في احتفال مجلس الطلبة في جامعة النجاح بذكرى انطلاقة فتح مما أدى إلى قيام الحاكم العسكري الصهيوني في منطقة رام الله باستدعائه ومصادرة ربابته[24].

وكذلك أحيا الشاعر العديد من المهرجانات الشعبية والتراثية داخل فلسطين المحتلة في حيفا والناصرة والطيبة والنقب، بالاشتراك مع زملائه من الشعراء الشعبيين أمثال: راجح السلفيتي، وموسى حافظ، وأبو جاسر الحفيري، وأبو هشام الجلماوي.

وعند دخول السلطة الوطنية مدينة أريحا عام 1994، أقام الشاعر احتفالا جماهيريا وسط مدينة

18 - راسم بشارات، 11/8/2003م

19 - انظر الملحق الثالث.

20 - راسم بشارات 11/8/ 2003.

21 - بشارات، راسم مطلق، مع الشاعر محارب ذيب في الذكرى العاشرة لوفاته. جريدة القدس، القدس، فلسطين 28/5/2004، ص23.

22 - عبد العزيز أبو هدبا، 19/9/2003.

23 - راسم بشارات، 26/12/2003.

24 - رضوان محارب ذيب، 19/9/2003.

أريحا، في دوار المدينة فرحا بقدوم العائدين وعودتهم إلى الوطن، حيث رحب بالعائدين من طلائع قوات الأمن الوطني الفلسطيني، وقادة الجيش والقادة السياسيين وقد قدر عدد الجمهور بأربعين ألف مواطن[25].

شارك في احتفالات محافظة الرام وشمال القدس، بمناسبة دخول السلطة الوطنية لواء رام الله، وكذلك احتفالات قريته جبع بقدوم السلطة الوطنية عام 1994م، ومن ضمنهم أحد أبناء القرية وهو مقدم طيار (عماد توفيق)، حيث أقامت البلدة احتفالا كبيرا في مدرسة القرية[26].

كما تنقل في بعض الدول العربية المجاورة يحيي الاحتفالات، ويسامر عشاق الربابة بأشعاره وقصصه.

وهكذا كانت البيئة العامة والخاصة التي عاشها الشاعر تربة خصبة، أثرت في حياته، كما هو حال كل فلسطيني في هذا الوطن الأشم، فجعلته يعاني ويتحدى، ويفرح ويحزن، وينشد لوطنه القصائد المعبرة عن آماله وتطلعاته الوطنية والقومية، حتى أوجدت منه شاعرا وطنيا مميزا، وعلما من أعلام الوطن ورجاله الأوفياء.

نسبه:

الاسم:محارب ذيب مصطفى نصار. [27]

الكنية: أبو سليمان.

اللقب:، أطلقت عليه عدة ألقاب وأشهرها:محارب ذيب اللبيب، شاعر الربابة، وشاعر الأرض المحتلة.

الحامولة:(اتوام) من سكان قرية جبع المقدسية الأصليين، وهي من أقدم العائلات في القرية، وتتفرع منها ثلاث عائلات هي نصار وكنعان ويوسف[28].

أسرته [29]: الأب: ذيب مصطفى نصار (أبو مصطفى) وهو قاضي عشائر ودم.

الأم: وضحه (أم مصطفى).

الزوجة: له زوجتان الأولى عزيزة درويش من (بيتين) قضاء رام الله، لم تنجب، والثانية، زهديه عبد الفتاح اتوام (أم سليمان) من جبع، أنجبت جميع، أبناء الشاعر [30].

الأخوة[31] ستة وهم:مصطفى و مصيطف ومحمد وحرب، وعبد اللطيف، ورضوان.

الأخوات: واحدة وهي صفية.

الأبناء[32]: الذكور: سليمان و محمود ومحمد ورضوان ومصطفى.

الإناث: وضحه وسعدية ومها ومهدية ومنيرة.

الأصدقاء[33]: أقام الشاعر علاقات اجتماعية مع معظم شرائح المجتمع، فصادق من أهل قريته محمد

25 - راسم بشارات، 26/12/2003.

26 - المصدر نفسه.

27 - كان الاسم « محارب « شائعا آنذاك.

28 - أنظر:بشارات، راسم شعبان. مصدر سابق، ص64-63.

29 - محمود محارب ذيب، 22/7/2003.

30 - رضوان محارب ذيب 26/12/2003.

31 - المصدر نفسه.

32 - محمود محارب ذيب 22/7/2003

33 - محمود محارب ذيب 19/9/2003.

جمال مطلق، ومن القرى المجاورة صالح بدران من حزما، ومن رام الله صادقه الدكتور عبد اللطيف البرغوثي، والباحث في الأدب الشعبي عبد العزيز أبو هدبا، ومن دورا في الخليل صادقه الحاج عمر الحروب، وكذلك الحاج أبو ياسر الفقير. كما كانت له علاقة صداقة مع معظم الشعراء الشعبيين الذين عاصروه أمثال راجح السلفيتي، وموسى الحافظ، وأبو هشام الجلماوي، وأبو جاسر الحفيري، وحموده الفرخاوي، وسعود الأسدي من داخل الوطن المحتل.

نشأته:

ولد محارب ذيب في بلدة جبع المقدسية عام 1914 [34]، ونشأ في أسرة ريفية، تتفجر في أركانها الحكمة، وتفيض جوانبها بالأدب والفن، وكان في بيت أسرة الشاعر مجلس عشائري يجتمع فيه كبار رجال القرية للتباحث في شؤون القرية من خصومات وإصلاح ذات البين، حيث كان والده قاضيا عشائريا، وكان بيت الأسرة كذلك [35]مكانا للشعر وأنغام الربابة، فكان والده في أوقات فراغه يمسك ربابته، ويعزف عليها بحضور أصدقائه من أبناء قريته، وبمرور الأيام أصبح محارب ذيب شاعرا وعازفا على الربابة، وفي ذلك يقول عن بداية مشواره مع الغناء واصفا أثر والده في فنه « فمنذ صغري استمعت إلى شعره وعزفه على الربابة، وقد ورثني هذا العمل الذي اعتز به ومارسته منذ أكثر من خمسين سنة من يوم ما بقى عمري 12سنة»[36] ويضيف الشاعر عن بدايات إبداعه في الشعرمتذكرا ذلك بتشوق فيقول: «كنا نأخذ الربابة، نحن الصغار، ونهرب من مجلس الكبار إلى الكروم، نرتجل الشعر وحدنا ونغني، وهكذا من الديوان إلى الأفق المفتوح، تعلمت الشعر والغناء»[37] وكان في بداية مشواره يردد أشعار والده وقصائده التي كانت تمجد البطولات[38]، وتدعو إلى الأخلاق الفاضلة، وتمدح العادات والتقاليد الحميدة، إضافة إلى تناولها مسألة نضال الشعب الفلسطيني ضد المحتل البريطاني، وكان كذلك يقص قصصا تاريخيا مثل تغريبه بني هلال، والزير سالم، وغيرها من القصص والحكايات التي كانت تحدث في المنطقة، فيصيغها الشاعر شعرا، ويلقيها إلى مستمعيه على أنغام ربابته.

كان محارب ذيب وفيا لمجتمعه، وقد أحب الناس وأحبوه، فكان يفرح لأفراحهم، ويحزن لأحزانهم، ولم يعاد أحدا ، ولم يعاده أحد في قريته والقرى المجاورة، وكان الشاعر أحد وجهاء بلدته ومن رجال الإصلاح، أعجب بحركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح وتغنى بها [39]، كان متوسط الحال ماديا، اعتمد على نفسه في حياته، ومما يذكر عنه[40]، أن والده ترك له مساحة من الأراضي تقدر حوالي مائة دونم في حدود بلدية، الضاحية والرام، وقد باعها للمواطنين العرب بثمن زهيد بعد علمه عن نية الاحتلال إقامة مستوطنة عليها، فحال بيع الأراضي دون إقامة مستوطنة صهيونية على أرض قريته.

عمل الشاعر مزارعا في قريته، كما عمل في التجارة، فكان صاحب محل للأثاث القديم مقابل ملعب

---

34 - انظر الملحق الثالث.

35 - راسم بشارات 22/7/2003

36 - أبو هدبا، عبد العزيز. ثلاثون ليلة وليلة في المضافة الفلسطينية. (د.ط). مركز التراث الشعبي. جمعية إنعاش الأسرة. البيرة، 1995، ص 65.

37 - الشاعر الشعبي محارب ذيب. كل الغناء من أجل فلسطين. مجلة الفجر الأدبي. القدس. عدد45. السنة الرابعة. حزيران. 1984، ص104.

38 - راسم بشارات. 11/8/2003.

39 - صالح بدران. 19/9/2003.

40 - محمود محارب ذيب 22/7/2003

(الفرندز) في البيرة، حيث كان يشتري الأثاث القديم من قلقيلية ويافا[41].

وقد استغنى الشاعر عن العمل نهائيا بعد أن تحسن وضعه المادي نسبيا، وخاصة بعد سفر أولاده إلى (أمريكا) وكذلك بسبب إنشغاله الدائم في إحياء الحفلات والمهرجانات الشعبية.

توفي في 24/، 5/ 1995 إثر مرض مفاجئ وسريع (جلطة على القلب) [42] أدخل على أثره إلى مستشفى رام الله، حيث ارتفعت روحه إلى خالقها، فحزنت عليه فلسطين، وبكاه كل من عرفه، ونال تقدير الناس ساعة تشييعه، ويذكر أن جنازته كانت مميزة من ناحية عدد المشاركين ومستوياتهم المتنوعة، فقد شارك فيها أهل فلسطين من الجليل حتى الخليل والنقب، ومعظم سكان القرى المجاورة، إضافة إلى هيئات وشخصيات وطنية وأكاديمية من المدن والمخيمات القريبة، كما رثته جمعية إنعاش الأسرة، ومركز التراث الشعبي الفلسطيني في البيرة، وحضر إلى بيت العزاء في قريته المئات من المواطنين الذين عرفوه و من لم يعرفوه لتقديم واجب العزاء، وقد « دفن في مسقط رأسه جبع حيث ولد وحيث رضع الشعر من تلال القرية وسفوح جبالها الشم»[43] يوم 1995/5/25م[44]. كما أقيم له بيت عزاء في الأردن، في بيت شقيقه، وأقيم له بيت عزاء في المهجر في (أمريكا) في بيت أحد أبنائه[45].

ومن غريب الأمور أنه[46] عثر عند وفاته على وصية كتبها الشاعر لأبنائه بخط يده، أعد فيها لائحة معارفه من الأصدقاء في أرجاء الوطن، يطلب من أبنائه تأخير الدفن لحين حضور الأشخاص المذكورين في الوصية من معارفه، وقد شملت الوصية أسماء لشخصيات ومؤسسات من المدن والقرى المجاورة والبعيدة، كان الشاعر قد أقام معهم علاقات مميزة طيلة حياته.

ثقافته:

أتم الشاعر الدراسة كغيره من أبناء جيله في الكتاب في مسجد القرية فأتمها. وهي تعادل المرحلة الابتدائية، وأتقن فيها تعلم القراءة والكتابة والحساب وقراءة القران، وألم بالتاريخ العربي والإسلامي وجغرافية فلسطين[47]، ومن خلال أشعاره نجده يتمتع بثقافة عالية، مقارنة مع البيئة والعصر اللذين عاش فيهما، فهو ذو معرفة بالشعراء الجاهليين، ولديه ذخيرة غزيرة من الحكم والأمثال العربية، والعادات والتقاليد والأخلاق والمثل العليا، كما اشتملت أشعاره على ذكر الأحداث الوطنية والقومية والدينية.

والشاعر على معرفة واسعة بشخصيات العربية والإسلامية والوطنية، كما تتضح ثقافته الواسعة في سرده للقصص التراثية نثرا وشعرا، حيث طرح فيها قضايا الأمة السياسية والاجتماعية والأخلاقية والوطنية.

ولعل تعدد الموضوعات التي تناولها محارب ذيب وإبداعه فيها، ومواكبة شعره لجميع الأحداث التي مرت بها الأمة العربية بعامة والشعب الفلسطيني بخاصة يشكل دليلا واضحا على سعة ثقافته وغزارتها.

41 - رضوان محارب ذيب. 26/12/2003.

42 - انظر الملحق الثالث.

43 - عوض، أحمد رفيق. شاعر الربابة محارب ذيب. مرجع سابق. ص196.

44 - محمود محارب ذيب 30/9/2003.

45 - المصدر نفسه.

46 - انظر الملحق الثالث.

47 - راسم بشارات. 25/8/2003

ومن الجدير بالذكر أن الشاعر تولدت لديه ثقافة ذاتية، من خلال مخالطته لشريحة مثقفة من المجتمع، وكذلك تجوله في أرجاء الوطن طولا وعرضا، إضافة إلى أسفاره الخارجية التي أثرت في ثقافته إيجابيا.

ملامح شخصيته:

تتمثل شخصية محارب ذيب في ذلك الرجل الفلسطيني الذي كان يرتدي القمباز الأبيض أو الأصفر، إضافة إلى العباءة العربية ذات اللون الأسود أو الأبيض أو البني، ويضع على رأسه الكوفية العربية والعقال، وهو متوسط في صحته وقامته، وكان «يحمل ربابته تحت ابطه، وينشر الغناء الجميل من أجل فلسطين»[48]، ويمتاز بذكراة قوية وجيدة للشعر وللأشخاص والأحداث التي كان يمر بها[49] وكان زاهدا في الدنيا وذاما لها فقال: [50]

يا طالب الدنيا أ هاويها غلطان لا توضلع أمل فيها
دنيا غرورة أ مرسح الأوهام، أنفسك عن الأوهام عليها

يجمع أصدقاء الشاعر والمقربون منه من الأهل والأصدقاء وأبناء قريته على أن الشاعر كان حليما في تعامله مع الآخرين، فلم يكن عصبي المزاج، بل كان يتقبل الأمور بأعصاب هادئة، ركب في أحد الأيام مع ابنه محمود في السيارة، وكانت سياقة الابن سريعة، لكن الأب لم يبد معارضة أو ضيقا بسياقة الابن، بل عبر عن ذلك بأسلوب مغاير، إذ قال على مسمع ابنه محمود الذي كان يسوق: إن أخاك سليمان لم يسرع في سياقته أبدا، طالما كنت راكبا معه[51].

كما عرف الشاعر بتسامحه مع الآخرين من الناس سواء المقربون منه أو غيرهم، ويقول ابنه رضوان إن والده_رحمه الله_لم يحرضهم يوما على أحد أو يسيء إلى أي فرد من أبناء قريته[52].

وقد كان يعامل زوجته[53] وأبناءه معاملة لطيفة، ولم تصدر عنه عبارات الذم أو التضجر نحوهم أبدا، وكان ـ رحمه الله ـ كريما قولا وعملا يكرم الضيف وخاصة إن كان غريبا عن القرية.

وكان صبورا، ومن نماذج الصبر عنده أنه ألقى في يوم وفاة أخيه مصطفى كلمة مؤثرة، فقال للناس المشيعين: إنني الآن أدفن أخي مصطفى، وفي نفس اللحظة قد أتاني خبر أخي محمد، وقيل عنه: أنه امتاز برباطة الجأش وبقي صابرا على ما ألم به من حزن[54].

ولم يكن الشاعر ذاتيا ذا نزعة فردية، بل كان على الدوام مبادرا إلى العمل الجماعي، فكان يشارك[55] أبناء قريته مناسباتهم الاجتماعية المختلفة كالأفراح والعزاء؛ سواء المناسبات الخاصة بحاملته أم غيرها، وكان سباقا لأي عمل جماعي، ليكون قدوة لغيره من أبناء قريته، فكان يشارك في وفود القرية المهنئة والمعزية إلى القرى والمدن المجاورة.

واعتاد أن يرتجل كلمة أمام حشد من الجمهور حسب المناسبة، حيث كان خطيبا وناطقا باسم وفد قريته في مختلف المناسبات الاجتماعية، كما أنه كان أحد أعضاء لجنة القرية في مشروع توصيل المياه عام 1978[56]،

48 - الشاعر الشعبي محارب ذيب، كل الغناء من أجل فلسطين، مرجع سابق، ص104.
49 - عبد العزيز أبو هدبا، 19/9/2003.
50 - الديوان، ص246.
51 - محمود محارب ذيب، 26/12/2003.
52 - رضوان محارب ذيب، 26/12/2003.
53 - المصدر نفسه، 26/12/2003.
54 - راسم بشارات، 25/8/2003.
55 - محمود محارب ذيب، 22/7/2003.
56 - راسم بشارات، 25/8/2003.

كان في تدينه[57] عاديا، يؤدي الصلوات الخمس على الدوام، ولم يكتب له أداء فريضة الحج أو العمرة.

وتتسم أشعاره بمسحة دينية، فهو مؤمن بالله ورسوله، وقد اعتاد أن يفتتح قصائده بمناجاة الذات الإلهية، ومدح الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، إضافة إلى ورود بعض الكلمات القرآنية وأسماء الأنبياء في أشعاره ويتضح ذلك في قوله: [58]

أنا أول قول أنا استغفر الله إلاه العرش رب العالمينا
أثاني قول أنا امدح محمد رسول الله يتشفع إلينا

وبالنسبة لعاداته[59] في الطعام والشراب، فقد كان متواضعا، يتناول جميع أنواع الطعام دون تحديد، ولم يكن يرفض أي طعام يقدم إليه، وكان شغوفا بالأكلات الشعبية مثل المفتول والمنسف، وأما التدخين[60]، فقد كان يدخن بكثرة، دون أن يلتزم بنوع معين من السجائر.

مكانته بين الشعراء الشعبيين:

اجتمع لدى الشاعر إبداعان «جعلا منه علما من أعلام التراث الشعبي المعاصر، حيث كان شاعرا وعازف ربابة»[61] وقد التزم محارب ذيب، بالقضايا الوطنية وتفاعل معها، « وهذا واضح في كتابات الباحث نمر سرحان الذي يؤكد التزام الشاعر محارب ذيب بالمسألة الوطنية حيث «ألزم هذا الشاعر الوطني نفسه بأن يكون صوت الجماهير المتعاطفة مع المقاومة، وأن يكون رافع لواء التعريف بالثوار، وناقل أخبار بطولاتهم» [62].

فمدح في قصديته الأولى شهيد معركة القسطل عبد القادر الحسيني[63] قائلا: [64]

ألفت هذي القصيدة بطيب الأشعار لأهل الذكر الذي تفهم قوافينا
أتت فلسطين بلاد العرب هالأحرار كل الصحابه بقوة جاهدوا فينا

وقد قال الشعر مستنكرا مذبحة المسجد الأقصى عام1990، كما استنكر مذبحة الحرم الإبراهيمي عام1994، بقلب حزين وعين دامعة، فقال: [65]

أيْ صارت مجزرة إبْ وسْط الخليل دم الشهدا ع الأرظ ايْسيلي
يحيا أهل المثلث وهُل الجليلي إتظامنوا معنا في فلسطينا

وقد نال الشاعر محارب ذيب شهرته من حيث الإبداع في المجال الوطني، وكذلك التجوال في ربوع الوطن كافة، وإذا كان الشاعر راجح السلفيني يحتل المرتبة الأولى بين شعراء فلسطين منذ أواسط الخمسينات بشعره الشعبي ذي الزخم الفكري والبلاغي، الذي امتاز بصدق مشاعره وحرارتها، وقدرته

57 - محمود محارب، 11/8/2003.
58 - الديوان، 212.
59 - محمود محارب ذيب، 19/9/2003.
60 - رضوان محارب ذيب، 26/12/2003.
61 - أبو هدبا، عبد العزيز. في مضافة العدد، مجلة التراث والمجتمع، جمعية إنعاش الأسرة، البيرة، ع24، تموز، 1994، ص204.
62 - سرحان، نمر، موسوعة الفولكلور الفلسطيني، مرجع سابق، ص500.
63 - الشاعر الشعبي محارب ذيب، كل الغناء من أجل فلسطين، مرجع سابق، ص 104.
64 - الديوان، ص260.
65 - الديوان، ص201.

على جلب استماع الجمهور إلى أقواله، فإن محارب ذيب يأتي في المرتبة الثانية؛ لأنه جمع بين أمرين: هما قول الزجل والعزف على الربابة، فهو يرسم جغرافية فلسطين بالكلمة، ويمتلك صوتا ايحائيا مميزا لا يجاريه فيه أحد، وذلك بفضل ربابته التي كانت على الدوام رفيقة عمره في حله وترحاله، مما جعله يشكل ظاهرة شعرية جديرة بالانفراد والتميز والبحث، وقد أكثر من الإبداع في مجال القصيد الذي يروي فيه الأحداث والقصص الشعبي، كما أبدع في شعر المربع[66]، أما الشاعر الفلسطيني سعود الأسدي من داخل فلسطين المحتلة، فقد أبدع في الشعر الشعبي على المستوى الفصيح.

أحيا محارب ذيب الكثير من الأعراس والمهرجانات بمشاركة الشعراء الشعبيين الذين اعتادوا أن يشاركوه الاحتفالات المختلفة، وكان أكبرهم سنا، بل الأب الروحي لهم، [67] وبادلهم الاحترام والتقدير، وهو كذلك شاعر الربابة الأول في فلسطين، حيث تميز بها عن باقي الشعراء الشعبيين، ولم تكن تفارقه أبدا، كما تميز محارب ذيب عن غيره بأن أبدع في موضوعات الزجل وفاق الآخرين، وخاصة في موضوع محاربة الغربة عن الوطن، التي كانت همه الأول والأخير، فقد دعا المغتربين إلى العودة إلى وطنهم وأن لا يكون جمع الدولار هدفهم الوحيد، وكان يذكرهم بالأهل والأسرة والزوجات والأبناء، والوطن والأرض والعرض، لعلهم يكتفون بالمدة التي قضوها بعيدا عن وطنهم، وكان يتفاخر بذلك حيث يقول: «وللسفر والبعد في شعري وحياتي دور كبير، حتى أنني أهديت للأخوة المغتربين شريطا خاصا، أدعوهم فيه للعودة لأرض الوطن»[68]. ويذكر أن احتفالات الأعراس والمهرجانات التي كان يشارك فيها كانت شبه يومية[69] وكانت حفلات السمر التي يقيمها تستمر حتى أواخر الليل دون ملل أو تعب.

وقد أعجب الباحث عبد العزيز أبو هدبا الذي كان صديقا للشاعر بأقواله، حيث لمس تأثيرها الفعال في المجتمع الفلسطيني فقال فيه مادحا[70]:

يا محارب وأشعارك قول أكثر فعْل إمن الرشاش
في الغربة وفي هالأوطان لحْنك للنفوس إنعاش

66 - عبد العزيز أبو هدبا، 29/9/2003.
67 - صالح بدران، 19/9/2003.
68 - أبو هدبا، عبد العزيز، في مضافة العدد، مرجع سابق، ص 204.
69 - المصدر نفسه.
70 - المصدر نفسه.

عبد اللطيف عقل

يتضمن مواد مقتبسة إضافة إلى مقالتي في ذكراه

أ.د. يحيى جبر

٣٦٥

الدكتور عبد اللطيف عطا سليمان عقل (فلسطين)، ولد عام 1943 في دير استيا التي كانت تتبع مدينة نابلس في فترة من الفترات، وحصل على ليسانس الآداب 1966، وماجستير ودكتوراه علم النفس الاجتماعي من الولايات المتحدة الأمريكية 1977.

عمل مدرسا في ثانويات فلسطين وجامعة بيت لحم وجامعة النجاح في نابلس ونائبا لرئيس تلك الجامعة وأستاذا مشاركا بها 1992، رأس مركز السراج للثقافة والفنون والمسرح ولجنة العضوية والقراءة في اتحاد الكتاب الفلسطينيين، وحصل على عدد من الجوائز في علم النفس الاجتماعي والمسرحية.

أعماله الشعرية :

شواطئ القمر (مكتبة الحياة، بيروت، 1964م)، أغاني القمة والقاع (مطبعة الحكيم، الناصرة، 1972م)، هي أو الموت (مكتب الصحافة الفلسطيني، نابلس، 1973م)، قصائد عن حب لا يعرف الرحمة (منشورات صلاح الدين، القدس، 1975م)، الأطفال يطاردون الجراد (منشورات صلاح الدين، القدس، 1976م)، حوارية الحزن الواحد (منشورات مجلة العودة، القدس، 1985م)، الحسن بن زريق ما زال يرحل (منشورات السراج، القدس، 1986م)، قلب للبحر الميت (قبرص، 1990م)، بيان العار والرجوع (القدس، 1992م).

وأعماله المسرحية كثيرة جدا وهي المفتاح (مجلة البيادر الأدبي، القدس، 1976م)، العرس (منشورات دار العامل، رام الله، 1980م)، تشريقة بني مازن (منشورات مجلة العودة، عمان، 1985م)، البلاد طلبت أهلها (دار الكرمل، عمان، 1989م)، محاكمة فنس بن شعفاط (عمان، 1991م).

كما ان له عدة دراسات وهي الإهدار التربوي (هيوستن، 1983م)، علم النفس الاجتماعي (مكتبة النصر التجارية، الطبعة الأولى، نابلس، 1985م)، سر العصفور الأزرق (منشورات الصوت، الناصرة، 1985م). وله عدة مخطوطات وهي الوصية، المخيم، الحرب النفسية: دراسة في سيكولوجية العدوان الإسرائيلي، الاغتراب والتحدي: دراسة في تطور الذات الوطنية الفلسطينية.

وضمن فعاليات أسبوع عبد اللطيف عقل للثقافة الفلسطينية الذي نظمه بيت الشعر الفلسطيني في بيرزيت، نظمت كلية الآداب في جامعة النجاح الوطنية، بالتعاون مع بيت الشعر الفلسطيني، حفلا لمناسبة تكريم الشاعر عبد اللطيف عقل في الذكرى الثالثة عشرة لرحيله.

وشارك في الحفل الذي أقيم في قاعة المؤتمرات في مكتبة جامعة النجاح، الدكتور خليل عودة، عميد كلية الآداب، والدكتور يحيى جبر، رئيس قسم اللغة العربية، والشاعر والكاتب محمد حلمي الريشة، من بيت الشعر الفلسطيني، والدكتور عادل الأسطة، المحاضر في قسم اللغة العربية بالجامعة، والشاعر والكاتب لطفي زغلول، وصادق عنبتاوي، من مكتبة الجامعة، ومعاذ اشتية، أحد معدي الدراسات عن

عقل، والدكتور عبد الخالق عيسى الذي أدار الحفل، وذلك بحضور حشد من الطلبة والمهتمين.

وأشار عودة، إلى حرص الجامعة ورئيسها الدكتور رامي الحمدلله، على تكريم المبدعين الفلسطينيين خاصة الشاعر الفلسطيني عبد اللطيف عقل الذي عمل في الجامعة. وأكد أنه رغم رحيل الشاعر جسديا إلا أن فكره وقصائده ما زالت حية في القلوب والعقول.

بدوره استعرض عنبتاوي، صداقته بعقل، وتطورها لتصبح صداقة عائلية، مشيرا إلى اهتمام الشاعر الراحل بالكيمياء. وأكد أن عقل كان يعرض عليه أعماله الجديدة خلال الزيارات واللقاءات التي كانت تتم بينهما، موضحا أنها كانت تشتمل على بحث ومناقشة كل الأفكار والقضايا التي من شأنها خدمة وتطوير المجتمع فكريا وثقافيا.

وقال: تدارسنا فكرة إنشاء صحيفة يومية تعنى بنقل الأخبار بطريقة غير تقليدية، وأضاف حاولنا المضي قدما في ذلك لكننا منعنا من مواصلة المشوار من قبل الاحتلال . ونوه إلى الجهود التي بذلها عقل في تجهيز وكتابة مسرحية «البلاد طلبت أهلها» حينما كان يتواجد في العاصمة الأردنية عمان، مشيرا إلى معارضته لعرضها خشية عليه من الأنظمة العربية، لافتا إلى إصراره على عرضها، حيت تم ذلك على خشبة أحد المسارح الأردنية.

وأشار إلى أنهما تباحثا حول فكرة إنشاء مؤسسة تلفزيونية لتخليد التاريخ الفلسطيني، وناقشا خلالها آلية النهج والكيفية التي ستسير عليها، وكان ذلك ليلة وفاته، مؤكدا أن خبر وفاته كان كالصاعقة بالنسبة له.

من جهته، أكد الشاعر محمد الريشة في كلمته (بيت الشعر) معرفته بالشاعر الراحل منذ كان مدرسا في مدرسة الصلاحية بالمدينة، منوها إلى مشكلة نسيان المبدعين والمثقفين من قبل المؤسسات التي عملوا بها، مشيرا إلى ضرورة تكريمهم والاهتمام بهم وبإبداعاتهم.

وأشار إلى تقصير المؤسسات الثقافية والجهات التعليمة في إحياء ذكرى عبد اللطيف عقل الذي قدم الكثير، مبينا أن الشاعر الراحل والعاشق والمفكر يستحق مزيدا من الاهتمام، ودعا إلى ضرورة إعادة طباعة أعماله، وتسمية إحدى قاعات النجاح باسمه، مشددا على أهمية إدراج بعض إبداعاته ضمن المناهج الدراسية والتعليمة في الجامعات والمعاهد والمدارس وطالب بإحياء ذكرى وفاته بشكل سنوي، داعيا المفكرين والمختصين إلى دراسة أعماله الإبداعية.

من ناحيته، أكد يحيى جبر، أن الشاعر عبد اللطيف عقل كان فلاحا مثقفا حرا، موضحا أنه مات وقد دق آخر مسمار في نعش القضية الفلسطينية. وأشار إلى الظروف التي تزامنت مع وفاته، موضحا أن موته نزل في الفترة التي ماتت فيها الأمة العربية التي عول عليها كثيرا، مؤكدا أنه كان يلعن المتنازلين والمتخاذلين. وقال كنت أعتقد أن الغموض يكتنفه وعندما تعرفت إليه بدا غير ذلك، موضحا اشتراكهما سوية في إعداد بحث عن الأطفال نشر في مجلة صامد. وأكد نجاح مسرحياته التي عرضت في عمان، حيث أحدثت

ضجة كبيرة أدت إلى قيام الأجهزة الأمنية بمحاصرة المناطق التي كانت تعرض فيها خشية من تداعياتها.

وأشار زغلول، إلى أن الموت اختطف الشاعر عقل فجأة، موضحا حنينه المستمر لدواوينه التي أهداه إياها عبد اللطيف عقل بنفسه. وأكد أنه نظم قصيدة (كانا هنا) لعبد اللطيف وهما والده وعبد اللطيف نفسه وقال جمعتنا الصداقة بعقل بينما كنا نمارس مهنة التدريس في مدارس نابلس، مؤكدا أنه كان فيلسوفا، وناقدا، ومفكرا، وواعيا، وفلسطينيا قبل أي شي آخر. وأشار إلى اشتراكهما سوية في عدد من الأمسيات الشعرية، منوها إلى قصائده الناقدة والثورية واللاذعة، مشيرا إلى أنه كان ناقما على الذين خانوا القضية.

وأشار الأسطة، إلى الشاعر الراحل وتجربته مع المدينة، كونه موضوعا لافتا للنظر حيث قدم فيه العديد من الدراسات من قبل الباحثين والمختصين. وأوضح أن عددا من الشعراء كتبوا قصائد رثاء في المدن الأندلسية التي سقطت من أيدي المسلمين، موضحا أن بعض الشعراء كشاكر السياب وأحمد حجازي تناولوا في قصائدهم علاقتهم ببغداد والقاهرة. ولفت إلى أن التوجه للكتابة عن المدينة كان موضوعا جديدا في الشعر العربي ومختلفا عن رثاء المدن، مشيرا إلى بعض المدن التي تأثر بها عقل كالقدس، ونابلس، وعمان، ودمشق، وبغداد. وبين أنه كان فيلسوفا، وتأثر سلبيا بالمدينة خاصة في ظل وجوده بنابلس، كونها كانت تهتم بالتجارة أكثر من العلم والثقافة، ما حدا به إلى هجائها.

وأكد أنه كتب عن أهلها رغم ذلك، مبينا أنه قدم استقالته من الجامعة وأتجه إلى مدينة رام الله التي كانت تعتني بالثقافة بشكل أكبر من نابلس، وقام بفتح مسرح للثقافة، تعرض للحرق، ماساهم في توتر علاقته مع المدينة. (لعل ما دفعه إلى ذلك هو هذا الزخم التجاري في المدينة قياسا بما كانت عليه الحال في القرن الماضي، واحتدام الحراك الثقافي الحر آنذاك قياسا بما هو عليه اليوم، بالرغم من وجود جامعة النجاح الوطنية وغيرها من المؤسسات الأكاديمية باعتبارها مؤسسات رسمية. المحرر)

من جهته، أكد عيسى، أن الصورة التي رسمها عقل في قصائده كانت قريبة من الكاريكاتورية، حيث كانت تتخذ طابع السخرية. وأوضح أن أبياته تضم انقلابا في واقع الأشياء، إضافة إلى احتوائها على تناقضات عدة، منوها بأن يعكس صورة عجز الواقع العربي. وأشار إلى أنه وازي في قصائده بين أسلوبين هما الأسلوب المباشر، والأسلوب المغلف.

وأكد اشتية، أنه في رسالته الماجستير عن عقل، تتبع سيرته الأدبية، وأشار إلى أن شخصية عقل عاشت بالوطن ومعه وتجرعت الحرمان كما أنه عاش الواقع بنفسه. وقال إنه رسم صورة صادقة لطفولته المشردة والطفولة الفلسطينية بشكل عامل وعانى الغربة وانتظر الخلاص منها طويلا.

وفي المساء في رام الله وبالتعاون مع مركز بيت المقدس تم إنجاح ندوة الأصوات الجديدة : أجندة بديلة .. وقد تحدث في الندوة الطالبة رشا أبو شريف من جامعة بيرزيت والطالبة أماني صيام من جامعة القدس والشاعر الطالب أحمد دغلس .. الذين تحدثوا عن هواجسهم عن المشهد الثقافي الفلسطيني وضرورة الالتفات إلى إبداع الشباب والاهتمام بنتاجهم وإيلائهم الأهمية الكافية لتقديم منجزهم

الإبداعي .. وتحدثوا عن ضرورة إيجاد المنابر للأصوات الجديدة لسد الفراغ الذي يحاول ابتلاع المشهد الثقافي في فلسطين نظرا لحالة الغياب لعدد من الرموز الثقافية ..

وقد أدار الندوة الشاعر والكاتب عبد السلام العطاري .. وتحدث في الندوة الشاعر يوسف المحمود عن تجربته مع عبد اللطيف عقل ودور عبد اللطيف عقل في الإنجاز المعرفي كما تحدث المسرحي يعقوب إسماعيل عن تجربة عبد اللطيف المسرحية.

www.sydlah.com/vb/showthread.php?7333

وهذا هو عنوان مقال صحفي أشرف على كتابته الشاعر في صحيفة القدس الفلسطينية انه شاعر وكاتب واستاذ كبير حمل هموم أطفال بلاده الذين يطاردون الجراد كتب قصائد حب لا تعرف الرحمة , روى لنا كيف يغني الأطفال للمذبحة انه المربي الفاضل والشاعروالمسرحي والكاتب ((عبد اللطيف عقل).

خرج أجيالا من جامعة النجاح الوطنية في نابلس، و شغل فيها مناصب عدة ، إذ كان رئيس فسم الدراسات العليا في كلية التربية، و من ثم عميدا للدراسات العليا و البحث العلمي، و بعد عودته من الولايات المتحدة الأمريكية رقي إلى استاذ مشارك.

ولد في بداية الأربعينيات، ويمتاز شعره بلغة ثورية معمقة، اكتسبها من ثقافات متنوعة، خرج من دائرة الذات، وسبح بفكره وألفاظه ومعجمه اللغوي إلى دائرة الحياة بكل ثقلها وهمومها، وفلسف الكثير من الفرضيات من أجل البحث عن الحقيقة التي وجدها ضائعة في وجود « الأنا».

ساهم بشكل مميز في الحركة الثقافية بفلسطين، وحمل لواء الأدب والتربية من خلال عطائه المتجدد، فأصدر العديد من الدواوين الشعرية، والكتب التربوية، ومقالاته الفكرية التي تعكس جميعها الهم الفلسطيني في الداخل والخارج. يمثل جيل الأربعينيات عمرا، لكنه بفكره يمثل جيل هذا القرن، لما تحمله قصائده من دلائل متعددة.

ومن أعماله الأكاديمية: علم النفس الاجتماعي – الإهدار التربوي، وله مقالة بالاشتراك مع الدكتور يحيى جبر عنوانها(الطفل الفلسطيني في ظل الانتفاضة) نشرت في مجلة صامد عام 1989م.

يقول في قصيدة (خطاب الانتفاضة):

«وشوش الطفل مقلاعه، مثلما وشوش الماء حب البدار
وشوش أمه امرأة حلوة في الجوار
على جملة رسمتها يد في طلاء الجدار
حذار الحذار
في البحر في لون أمواجه
البحر في غضب البحر ،
كما قمة السطح في مدبالانحدار
صغير على شفة لثغها لغة البدء
آه يا أمة تغسل عار الكبار
بلحم الصغار
صغير له رنة حانية

له رنة او صدى
رنين يؤلب قلبي على طيره إن شدى
أمة حملت وزرها للعصافير
حارث بها بعد حد المدى
وابتدا المبتدا

ومن الشخصيات الفلسطينية التي رافقت شاعرنا الكبير الدكتور فاروق مواسي حيث يقول في مذكراته (فاجعا كان موت عبد اللطيف عقل الشاعر والمفكر) كان لقائي الأخير به يوم 1992/5/24م في مهرجان التضامن مع الشاعر شفيق حبيب في دار الثقافة العربية في الناصرة. يومها قدم لكل منا النائب عبد الوهاب دراوشة صينية نحاسية مكتوب عليها :

« تكريما للشاعر..... وتقديرا لعطائه في مجال الشعر الوطني».

والتقطت الكاميرا هذه الصورة التي ينعم فيها عبد اللطيف النظر بالهدية الرمزية ويعلق:

« لا تعجبوا إن كانت هذه هي المرة الأولى التي يقدم لي أحد فيها شيئا أو يكرمني أحد بشيء» ، وأتبعها بالقول: «أليست هذه مفارقة؟!».

قرأ عبد اللطيف يومها قصيدته «بيان العار والرجوع» ، وكانت صيحته أو لازمته «هلا» تطن في القاعة ساخرة من هذا الزمن الرديء الذي قلبت فيه الموازين.

أصر صاحبنا في القصيدة على فلسطينيته ، وعلى حياة التقشف فيها مع كرامة متأصلة في وجدانه. وهذه القصيدة على الصعيد العملي الفعلي استمرار لقصيدة سابقة كان يرد فيها على دعوة مشبوهة بالتخلي عن الوطن، إذ يقول في ديوانه «حوارية الحزن الواحد»:

أنا نبض التراب دمي ، فكيف أخون نبض دمي وارتحل

وأعود إلى كتب الشاعر وإلى طريقة إهدائه الكتب لي، فأجد اللمحات الفنية حتى في العبارة النثرية.

- كتب لي في إهداء « قصائد عن حب لا يعرف الرحمة»:

وفي إهداء كتاب «هي أو الموت»:

«أيها المتشرد من أجل أن تظل الكلمة مصلوبة على شفتي الجرح» .

كيف بدأت الكتابة عن عبد اللطيف، وماذا كتب عني؟

كان ذلك أولا مراجعة لكتابه الأول «أغاني القمة والقاع»، فكتبت في «عرض ونقد في الشعر المحلي» (ص61).

«عبد اللطيف عقل شاعر مسؤول أمام الكلمة والقيمة. أطلق ذاته المغتربة من وهج المأساة، وأوفدها للقارئ الواعي أمانــة في عنقه – أمانة عرضت على السموات والأرض فأبين أن يحملنها، وحملتها إلهة الحزن التي تتقن رقص الأوبرا في القمم والقيعان .....لأنه كما يقول الشاعر « لا بعد بين قمة الوجد وقاعه».

وقلت في المقال نفسه: « شيء مغر في ديوان عبد اللطيف – وهو انتقاؤه للعنوان. فعنوان القصيدة أجمل في نظري من مضمونها. العنوان فستان ينتقيه لحبيبته ويحسن انتقاءه بذوق، لا تكاد تخطر حتى تشرئب الأعناق. والقصيدة عنده ملخص تركيزي لقصائد سابقة، فيها تكرار للذات بشكل أعمق، وكل قصيدة تهمس لي : أنا أجسد تجربة عقل».

أما بداية المعرفة الشخصية فكانت أولها متابعة عبد اللطيف عقل لقصائد مجلة «الشرق» المنشورة قبل شهر تقريبا من (شباط 1972). يومها تناول قصيدتي «ليلة ابن المعتز»، وأشار إلى أنني قصرت في المعاناة، ولو تركت القصيدة بتجربة غير مفتعلة لقدمت القصيدة بشكل أفضل. ويومها أثار عقل

غضبي.

وفي العدد التالي كتبت «ردا على نقد» فقلت:

« ما أحسبني بحاجة إلى التوكيد أن هذا التضمين واستخدام الموروث كان طبيعيا وتمثلا، بل تصعيدا لهذا الموروث على ضوء المعطيات الحياتية المعاصرة، فدراسة القصيدة لغويا ، ورجوعا إلى خلفية ثقافية هو السبيل الأصولي قبل أن نخوض لجتها فنحكم اجتراء». (الشرق عدد آذار 1972، ص42).

ثم عاد عبد اللطيف عقل إلي ليعالج قصيدتي الأخرى «صورة جديدة لامرئ القيس» ولكن بلهجة مغايرة، فبدأ بالقول:

« لماذا أحببت هذه التجربة لفاروق. إنها تجربة حقا، وكما أرى استطاع فاروق هنا أن يسبق نفسه، وهو بين قصيدة وأخرى يقطع المسافات الطويلة في زمن قليل. إن هذه الصورة الجديدة تقفز من الرمز (الملك الضليل) إلى الواقع – الرمز المحدد الضيق إلى الواقع الفسيح المرير الذي عاناه فاروق بحدة الواعي المتمرد» (الشرق- عدد نيسان 1972، ص47).

أذكر أنني زرت عبد اللطيف في منزله في نابلس. عندها ترك في انطباعا أنه ما من شخص أحضر منه بديهة، أو أقدر منه على الكلمة أو النكتة أو السخرية أو التعبير عن المرارة وحتى على الشتيمة، فشتائمه عجيبة من قاموس خاص لا يحسن صياغتها إلا الأقلاء من الأذكياء. قال لي منكرا علينا لقب (عرب 48) :

ألا تكفيكم مصيبة واحدة حتى ربطوا اسمكم بسنة زفت؟؟!

قال لي منكرا قلة القراء للشعر : أتكتب شعرا لتقرأ نفسك؟

أخذ عبد اللطيف يحدثني بتشاؤم ومرارة تارة، وبإيمان ومثابرة تارة أخرى... ويا الله ما أكثر نقده وما أحد غضبه!

زرته في جامعة النجاح حيث كان عميدا لأحد الأقسام في الجامعة. يومها عرفت أن للرجل مكانة ومهابة خاصة....ولكنها تتلاشى أمامي إلى طيبة وأصالة فلاحيـة حين أزوره في بيته الذي تنقل في أماكن مختلفة في نابلس.

ولكني إن أنس لا أنس تألق عبد اللطيف في مؤتمر الشعر الفلسطيني الأول الذي عقد في فندق غراندنيو – الناصرة 1986/11/27م – يومها كان يتحدث بلغة غريبة طريفة مثيرة، يكثر من ألفاظ باهرة على غرار «الزمكان» – قبل أن تتردد على الألسنة ... وأحس شاعرنا أنه عريس اللقاء. وحتى أسوق لكم بعضا من لغته المثيرة الخاصة اقرءوا معي ما قاله في الذكرى الأربعين لرحيل د.سامي مرعي:

« أنا لا أحاور الموت، فهو إمكانية الشخص الأخيرة، ولكني أحاور سامي متصورا ماذا كان يمكن أن يقول قصدا، لو أسعفته تلك الأصابع السوداء الناعمة بعض الوقت... كان سيقول : إذا تعلم الأطفال جدول الضرب بأسلوب تربوي إنساني فإن الغش في سوق الخضار سيباشر الاختفاء..».

ويخطر عبد اللطيف في ذاكرتي في مشهد آخر رواه لنا صديقنا سعود الأسدي يوم أن سافر وإياه إلى طبرية، حيث كانا يتشاطران هموم الكرب بعد الحرب. يومها قرأ له سعود قصيدة تقليدية ....وكان عقل يقود سيارته (الفولكس فاجن) دون أن ينبس ببنت شفة، ويحدثنا سعود عن خواطره إزاء هذا الصمت المريب، حتى إذا قرأ سعود قصيدة بالعامية التي ختمها بالقول :

«بخاف بكرا إن متت عيني

تجمد وهيكي يطبقوا جفوني

وما عود أحظى بشوفة بلادي »

يقول سعود : وعندما قفلت القصيدة بالبيت الأخير، وجدت رأسي فجأة يضرب بزجاج السيارة الأمامي. قلت له: ما هذا يا أستاذ رحت تقتلني بضربة هالبريك !

قال لي : بل أنت الذي قتلتني... وراح أبو الطيب يتناول مسجل صوت صغير من خزانة السيارة أمامه، وقال بإصرار : «أعد القصيدة من أولها ...» (انظر الجديد : العدد الثاني سنة 1991،ص 59). مثل هذا التصرف الذي رواه سعود يعكس لنا أننا أمام ذواقة مرهف الذوق.

وما زلت أذكر كيف أنه كان يسأل عن أدبائنا المحليين... وأحيانا مع تعليقات ساخنة طريفة هنا وهناك. كان يعجب بقولة طه محمد علي : «ذبحوني على العتبة مثل خروف العيد».

فكتب له تقديما قبل قصيدة « عن حب لا يعرف الرحمة» إهداء :» إلى طه محمد علي وبيننا حزن كبير..»

وما دمت أتحدث عن علاقته بأدبائنا وكتابنا فلا أنسى لقطة سمعت عنها جديرة بالتسجيل. أجرى محمد وتد معه مقابلة، وكان أن استفزه محمد بشكل ما، فما كان منه إلا أن أصر على إلغاء المقابلة أو يتحقق مبتغاه. سمعت عن هذه الحكاية من عبد اللطيف نفسه، ولكن ذاكرتي لا تسعفني الآن للتفاصيل، لان الموضوع أصلا لم يكن يشغلني لسبب أو لآخر... أذكرها لأؤكد أنه لم يكن يهادن ولم يكن يرائي.

قبل بضع سنوات استضفنا في الورشة الأدبية في باقة الغربية شاعرنا عبد اللطيف عقل. يومها قرأ الأدباء الواعدون من نتاجهم. كنت أتوقع أن يقسو عليهم، لكنه فاجأني بحنوه البالغ واستعداده للمساعدة، وإذا بمقاييسه الصارمة تنقلب إلى حريرية رئيفة، سألته عن سر ذلك:

قال: « ألا يكفي أنهم يقرأون... أنهم يكتبون في هذا العصر الذي يتلظى فيه الشرق بالعار، وشعر القدس محلول على ظهر الجسور المشرعة».

أظن أنني قدمت لقطات حضرتني، أرجو ألا يفهم منها أنني أتحدث عن نفسي أولا، فليس هذا بغيتي، وإنما أرجو أن أعرفكم بعمق معرفة حميمية بشخص عز علينا جميعا، ليكون ذلك تخطيطا لملامح رجل عظيم. عظيم في شعره وفي فكره وفي إنسانيته، وكم تعلمت منه!

ولكن ، هل حقا رحل إلى غير عودة ؟؟!!!) عن الموقع الالكتروني www.multka.net

من منا أبناء فلسطين عامة وأبناء محافظة سلفيت وبلدة ديراستيا لا يعرف المغفور له بإذن الله الشاعر الدكتور عبداللطيف عقل باعتباره رحمه الله كان صرحا ثقافيا كبيرا متميزا بالعطاء والتضحية خلال حياته، وقدم الكثير من الأعمال الأدبية التي ما تزال تسكن الذاكرة حتى الآن وعلى رأسها مسرحيته المبدعة «البلاد طلبت أهلها».

لقد كان رحمه الله دائم الحركة والعطاء وجعل من تلاميذه وطلابه ايجابيين في تعاملهم حيث كان يكره الاتكال والخرافة، وكان لموته وهو في عز عطائه وتوهجه الإنساني أثره البالغ على صعيد الحركتين الثقافية والأكاديمية حيث عز نعيه على الجميع.

******

وظهر نجم الراحل الأدبي والفني وهو في جامعة دمشق عام 1964 حيث بدأ في نشر بواكير شعره وصدرت مجموعته الشعرية الأولى «شواطئ القمر» ثم عاد إلى الوطن وعمل في التدريس مما اتاح له إقامة شبكة علاقات مع تلاميذه حيث كان يغرس فيهم حب التضحية ونزع الخوف ونبذ الاتكالية

والعجز وأصبح الاستيعاب يقود الى نتيجة حتمية عند طلاب عبد اللطيف عقل سواء على مقاعد الدراسة في المدارس الثانوية أو الجامعات وهو استيعاب التحدي وبناء الشخصية الوطنية وبناء الذات.

كان المرحوم شاعرا عصاميا قريبا إلى الناس يتحسس آلامهم وآمالهم وكان كثير الزيارات لمن يخطر على باله فتراه دائم التنقل من المدينة إلى القرية والمخيم لكي يستفسر عن تلميذ درسه أو أن يلتقي بأحد المثقفين أو الكتاب أو الأدباء أو لكي ينجز عملا أدبيا وكانت ذاكرته قوية جدا وأعطته شخصيته المتميزة طابعا خاصا.

ومن أقواله رحمه الله عندما عاد من أمريكا عام 1983 حيث قال « رمزا لم اذهب إلى أمريكا ولست عائدا إلى فلسطين ودعني اكرر، أنهم واقصدهم كلهم بدون استثناء قد تآمروا ويتآمرون وأنهم قد نجحوا كما يظنون أنهم قد اخذوا الفلسطيني – أكثر الفلسطينيين – من فلسطين ولكني ارجوهم كل الرجاء أن لا يعتقدوا وحتى حين يمتعهم السكر أنهم يستطيعون اخذ فلسطين من فلسطيني واحد لان فلسطين هي حالتنا العقلية وإذا كان ذلك كذلك وهو كذلك بالفعل فان العودة أمر حتمي ونحن بفعل الرعب وإيجابياته نتأكد ونؤكد كل ساعات الليل والمذابح أنهم لن يأخذوا فلسطين منا بل أنهم يؤكدون أنها فينا بمقدار ما يأخذوننا منها «

ويقول أيضا « أن شعور الفلسطيني بالتعب خيانة للرفقة الحيوية التي بدأت تجرف العفن والتخلف منذ قرن تقريبا إلا أنها لم تبلغ قمة عطائها بعد فهل يجوز لنا أن نتعب وهذا الزمن ليس زمن السقوط وليس زمن الكارثة ولكنه زمن الرمز أن العالم يرشحنا بطولته بالدم ولان الوطن لان فلسطين هي جغرافيا الروح الفلسطينية.

عن الموقع الالكتروني http://webcache.googleusercontent.com/

عبد اللطيف عقل
ذلك الفلاح المثقف الحر
في ذكرى رحيله

مات عبد اللطيف عقل عندما أدرك أنه كان ينفخ في قربة مخزوقة، عندما أدرك أن أهل « البلاد التي طلبت أهلها لم يعودوا يطلبونها « وإن ذرفوا الدموع، وأجهشوا بالبكاء، حتى آثر بعضهم أن يخرج من المسرح.

مات عبد اللطيف عقل عندما تبين له أن الحجر لم يعد قنطارا في مطرحه، واكتشف أن ما كان يظنه حجرا ما هو إلا قطعة إسفنج مموهة.

مات عبد اللطيف عقل عندما دق آخر مسمار في نعش « القضية الفلسطينية التي كنا نظنها لن تموت حتى تتكلل جهود المنادين بحلها وفقا لما كانوا يطرحونه، ولما يهواه الذين ضحوا من أجلها بالدم والمال، وعاشوا أحلامهم على إيقاع أغاني الثورة «.

مات عبد اللطيف عقل عندما رأى طوابير العمال الفلسطينيين يطردون من بعض الدول العربية ليجدوا أنفسهم مضطرين للعمل عند جلاديهم ومحتلي أرضهم... محققين بذلك مقولة موشي ديان « لأخلي الفلسطينيين من الفرشة للورشة ومن الورشة للفرشة « التي زاد عليها بعضهم عبارة « ديك مطروش ما يعرف إشي « - يعودون مساء منهكين وفي أيديهم سقط المتاع يلولحونه... بعد أن كان أشقاؤهم منذ حين يرددون « روحنا عل قواعد روحنا بالدكتريوف والآربي. جي لوحنا... «.

مات عبد اللطيف عقل دون أن ينجح في تحطيم شيء من العلاقات الظالمة التي تسود مجتمعنا مما اكتوى بناره هو وغيره من أترابه؛ أجل مات، مات عبد اللطيف عقل وهو يلعن كل من قبل لنفسه أن يكون ذيلا لغيره، وما أكثر ما كان يردد عبارة « fax it « مخاطبا الأذناب، أو متندرا، يعني « أرسل تقريرك عبر الفاكس .»

عرفت عبد اللطيف عقل قبل أن ألتقيه؛ من حديث قريبه الدكتور إسماعيل عقل – كنا معا في جامعة قاريونس ببنغازي أواخر سبعينيات القرن الماضي – ثم عرفته عن كثب في جامعة النجاح الوطنية. ولكني عرفته أكثر عندما جمعنا العمل في جامعة القدس المفتوحة بعمان أثناء الانتفاضة الأولى، حين اضطرتنا سلطات الاحتلال إلى مغادرة البلاد.. عملنا معا في دائرة تطوير المواد التعليمية والإنتاج.

لم نكن لنتفق في كثير من الأشياء، كان مكتنفا بشيء من الغموض، وكانت لحيته الكثيفة الطويلة تسهم في ذلك. ولكنه تجلى على حقيقته، وتكشفت لي شخصيته النقية عندما اشتركنا معا في إعداد بحث لمجلة « صامد « بعنوان « واقع الطفل الفلسطيني في ظل الانتفاضة « وقدمنا صورة شفوية لذلك الواقع لمندوب جامعة لوفان البلجيكية.

وظهر عبد اللطيف عقل – رحمه الله – أوضح ما يكون في تمثيلياته التي قدمت على مسـرح المركز الثقافي الملكي بعمان، وخصوصا « البلاد طلبت أهلها « والحجر في مطرحه قنطار « وأذكر أن الناس كانوا يقبلون عليها كالجراد، كانوا يبكون، وبعضهم لفرط بكائه كان يضطر فعلا للخروج... لقد أحدثت مسرحياته ضجة كبيرة في عمان 89-1991 وفي اعتقادي أنها لو استمرت لأحدثت حركة شعبية عارمة، ولذلك كانت قوات الأمن تحاصر الموقع تحسبا لما يمكن أن يقع.

مات عبد اللطيف عقل، أجل مات، عندما ماتت « الأمة « التي كان يراهن عليها... ولكنني أقول له في مرقده الأبدي... أبشر عبد اللطيف، فها قد ظهرت أمة جديدة، وها بيارق الظفر تلوح من بعيد، وتلك كتل الليل تنكفىء وتضمحل تدريجيا؛ لكن على عجل.

عبد اللّه الفارس

١٩٣٠ – ٢٠٠٥

أ.وجيه أمين

مدير مكتب التربية بنابلس

مقدمة الطبعة الأُولى

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« يوزن مداد العلماء ودماء الشهداء يوم القيامة، فلا يفضل أحدهما على الآخر. ولغدوة في طلب العلم أحب إلى الله، من مائة غزوة. ولا يخرج أحد في طلب العلم إلا وملك موكل به يبشره بالجنة. ومن مات وميراثه المحابر والأقلام دخل الجنة « صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قليلون هم الذين يسطر التاريخ أسماءهم كأناس أسهموا في اضافة لبنة الى صرح الحياة البشرية المتنامي، سواء كانت تلك الإضافة في مجال العلم أو الأدب أو الصناعة أو غيرها.

وفي الوقت ذاته هناك أناس عاشوا حياتهم ثم يخرجون منها دون أن يأبه لهم أحد. كما أن هناك أناسا ما زالوا يعيشون بين ظهرانينا، وأسهموا في بناء الحضارة، ويتحفون مجتمعهم بالممتع والمفيد من العلم والأدب، لكنهم لم يستطيعوا الوصول الى منصة مسرح الحياة لتسلط الأضواء عليهم.

ومثل هؤلاء يحتاجون الى من يمد إليهم يد المساعدة وينفض الغبار عن أوراقهم ليتعرفهم الناس ويفيدوا من إنتاجهم.
وانطلاقا من هذا المبدأ فقد قامت الموسوعة التربوية الفلسطينية التي يشرف عليها الدكتور يحيى جبر بالترجمة لعدد من شخصياتنا الفلسطينية التي كان لها بصمات واضحة، على أدبنا الفلسطيني وتراثنا الشعبي ومسيرتنا التربوية والثقافية.
وقد رأيت أن أنضم الى قافلة من كتبوا للموسوعة التربوية الفلسطينية، فآثرت أن أترجم لحياة انسان مازال على قيد الحياة (يومذاك، رحمه الله). انسان عرفته منذ فترة قصيرة نسبيا، فقد التقيته في حفلة أدبية أقامتها مدرسة قريته الأساسية، كانت التجاعيد التي علت جبينه تشير الى تجربته العميقة في الحياة، شدني إليه عفويته في الحديث وسعة اطلاعه وثقافته موازنة بأبناء جيله.

وقد زاد في عمق هذا الاحساس في نفسي قصائده التي أطلعني عليها، انه شاعر قرية قبلان عبدالله الفارس « أبو عامر » الذي أحب وطنه الكبير بعامة وأحب قريته قبلان بخاصة. و « قبلان « قرية فلسطينية جميلة تابعة للواء نابلس، تقع هذه القرية إلى الجنوب الشرقي من مدينة نابلس وتبعد عنها حوالي تسعة عشر كيلوا مترا.

وأغلب الروايات تفيد أن هذه القرية حديثة التكوين نسبيا، فعمرها لا يزيد عن أربعمائة عام، يسكنها حاليا حوالي خمسة آلاف نسمة عدا عن أهلها المغتربين في الخارج والذي يقدر عددهم بخمسة آلاف أيضا.

يعتمد سكان القرية على الزراعة والتجارة والعمل في المصانع و المؤسسات، وقد أدى ضيق الأرض

الزراعية التابعة للقرية الى أن يعمل أهلها بجد ونشاط، مما أدى إلى تطورها سريعا سواء على مستوى العمران أو، على مستوى الدخل الفردي.

ففي القرية اليوم ثلاث مدارس، اثنتان للذكور وواحدة للإناث، كذلك يوجد في القرية مجلس قروي تشكل على أساس عشائري، وعيادتان صحيتان وروضتان للأطفال وناد رياضي، وتنعم هذه القرية حاليا بشبكة متطورة للمياه وأخرى للكهرباء، إضافة إلى أن طرقها معبدة.

يحد « قبلان » من الشرق قرية جوريش والأراضي التابعة لها، ومن الغرب الساوية، ومن الجنوب قرية تلفيت وأراضيها، ومن الشمال قريتا بيتا ويتما، أما سكان القرية فيتفرعون الى حمائل ثلاث هي : الأزعر والأقرع والعملة.

في هذه القرية ولد شاعرنا عبدالله الفارس المكنى بـ « أبي عامر « لأبوين فقيرين عم 1930 م، وقد كانت فلسطين آنذاك ترزح تحت نير الانتداب البريطاني، وما أن بلغ عبد الله السادسة من عمره حتى رأى والده يخر صريعا برصاص الجنود البريطانيين وذلك ابان ثورة الشعب الفلسطيني ضد الاحتلال الانجليزي عام 1936م، وبموت والده انطفأ ذلك المصباح الذي كان ينير له الدرب.

وينتسب عبدالله فارس سليمان مصطفى إبراهيم حماد بدران، إلى عائلة « بدران « التي هي إحدى أفخاذ عشيرة العملة، وترجع أصول هذه العشيرة الى منطقة الخليل حيث قدمت من هناك وسكنت في قرية « قبلان » خلال الحكم العثماني لبلادنا، أما موطن هذه العشيرة الأصلي فهو الجزيرة العربية.

وقد عاشت أسرة الشاعر حياة فقر وعوز، فكان والده وجده، من فقراء الفلاحين في القرية، وكانا يصلان نهارهما بليلهما في العمل لتأمين لقمة العيش لأطفالهما، ويروى شاعرنا أن جده « سليمان « كان يقول الشعر وبخاصه « الزجل والعتابا « في الأفراح والمناسبات. وفي اعتقادي أن « عبدالله « قد ورث قول الشعر عن جده « سليمان « أما والده « فارس « فلم يرو عنه قول الشعر.

وبعد استشهاد والده ببضعة أشهر التحق عبدالله بالصف الأول الابتدائي (الاول الأساسي حاليا) في مدرسة قريته، والتي كانت تضم في جنباتها أربعة صفوف فقط، تبدأ من الصف الأول وتنتهي بالصف الرابع، وبعد أن أنهي الصف الرابع اضطرته قسوة الحياة وضيق ذات اليد الى ترك المدرسة والالتحاق بالعمل ليعيل الاسرة التي خلفها له والده بعد استشهاده، فعاش، كما يقول عن نفسه: « اليتم والظلم والشقاء » قبل ان يصل إلى سن البلوغ.

أنجب عبدالله من الذكور خمسة هم: عامر الذي يعمل طبيبا للاسنان في رام الله وهو ينظم الشعر أيضا، وعاصم، وعصام ومؤيد، ومهند.

ولما سألته عن سبب اختياره لأسماء ابنائه قال: اما عامر فاسميته بهذا الاسم تيمنا بأبي عبيدة عامر بن الجراح، وأما عاصم وعصام فآثرت أن يبدأ اسماهما بحرف العين الحاقا باسم ولدي البكر» عامر «، أما مؤيد ومهند فلم يكن هناك سبب وجيه لتسميتهما بهذا الاسم، بل كان الاختيار بلا هدف محدد.

سألت « عبدالله « أي الأوقات تتفتح فيها قريحتك لقول الشعر ؟ فأجاب: « تمر بي الحادثة نهارا فأحفظها في ذاكرتي، وعندما آوي إلى فراشي في المساء أنظم مطلع القصيدة وأكملها في اليوم التالي،

وقصائدي كأبنائي كلها قريبة الى قلبي فلا أفاضل بينها».

ويعزو « عبدالله » الفضل في اكتشاف قريحتة الشعرية واثارة حب الوطن لديه لمعلمه الأستاذ المرحوم « حريص الخطيب » من نابلس، والذي يكن له جزيل التقدير ويحتفظ له بود باق على الأيام.

وقد أصر علي أن أدون هذه الأبيات الشعرية الجميلة التي يهديها الى روح معلمه الطاهرة حيث يقول : -

من خط مثلك سطرا　　من كان مثلك يقرا
كيف اخترقت عظامي　　أنت « الحريص » وأدرى
لولاك تسكن قلبي　　مارحت اكتب شعرا

وقد أخبرني أنه وقع بين يديه وهو صغير كتاب « تاريخ الأدب العربي » لمؤلفه المرحوم محمد حسن الزيات، فقرأ الكتاب الا انه لم يفهم منه آنذاك إلا قليلا، ولكنه ترك فيه أثرا جليلا.

وقد كان لنكبة الشعب الفلسطيني عام 1948 م وتشرد الأهل وترك الديار أثر عميق في نفس المشاعر وفي نفوس معظم الشباب من جيله، فشارك في المظاهرات والندوات التي كانت تنظم آنذاك، فنمت قريحته الشعرية وترعرعت، ووجد في نفسه حاجة للمطالعة والدرس لتنمية بذرة الشعر لديه، لذلك بدأ يقرأ ما تقع عليه يداه من كتب ومجلات ومنشورات لاسيما تلك التي تتعلق بالوطن.

وفي خضم هذه الأحداث ونتيجة لنشاطه السياسي، فقد اعتقل شاعرنا وسجن لأكثر من عشر سنوات في نابلس وعمان وبغداد ودمشق حيث أمضى الجزء الاكبر من فترة الاعتقال في سجن « الجفر الصحراوي» في الأردن.

وبعد الخروج من السجن نتيجة للعفو العام، أقبل على الحياة بهمة ونشاط ليبني مستقبله، فتزوج وهو في الخامسة والثلاثين وأنجب عشرة أبناء _ خمسة من الذكور ومثلهم من الإناث.

وقد اضطرته لقمة العيش للعمل بمهن مختلفة، فعمل في حفر آبار جمع مياه الأمطار في قريته لفترة طويلة، وذكر لي أن مجموع الابار التي حفرها في قريته بلغت أربعين بئرا كانت جميعها في الصخر.

فإن كان الفرزدق ينحت من صخر في كلامه، فإن شاعرنا عبد الله نحت الصخر بيديه ليؤمن لقمة العيش الكريم له ولأسرته. وقد كانت حياته مضنية إلى حد بعيد، ويروي عن نفسه انه لم يضحك في حياته سوى مرتين : الأولى كانت يوم هزيمة الأمريكيين في فيتنام، والثانية يوم كتب صدام حسين الرئيس العراقي على رايته « الله أكبر »

دعيت مرة مع زملائي في مكتب التربية والتعليم للواء نابلس الى حفلة أدبية أقامتها مدرسة قبلان الأساسية للذكور، وذلك يوم الأربعاء بتاريخ 94/12/14م وقبل بداية الحفلة، وبينما كنا في غرفة مدير المدرسة دخل علينا شخص وبدا على محياه أنه ذو تجربة عميقة في الحياة. فبدأ يتحدث في الأدب والشعر، فتخيلت أنه يحمل مؤهلا عاليا في اللغة العربية وآدابها. وخلال الجلسة أخرج من جيبة ورقة كتب عليها بخط اليد قصيدة ثم بدأ يقرأ تلك القصيدة على مسامع الحاضرين فأيقنت أنه ذو حس أدبي. سألته أي صف دراسي أنهى ؟ فأجاب الرابع الابتدائي (الأساسي حاليا). قلت كيف تكتب الشعر وانت لم تنه إلا الصف الرابع ؟

قال : إنها السليقة والإرهاص النفسي اللذان نميتهما بالمطالعة والدرس.

وقد ألقى شاعرنا عبدالله هذه القصيدة في حفلة المدرسة، وهي بعنوان على الدروب وفيها يقول:

كروب على الدروب

يا ارض ماذا لو وقفت نحيلا ... أضني فؤادي في هواك قليلا
فلسطين يكفي أن ثغرك منهلي ... وهواك أنفاسي ولست دخيلا
أماه لولا رقتي وتوجعي ... لزرعت قلبي في ثراك نخيلا
أماه آه لو تطاوعني يدي ... لفرشت « رمشي » في سماك ظليلا
يا أرض أهلوك الكرام تزاحموا ... فيمن يكون على العيون كحولا
الجود فرخ في الشوارع والربى ... والبخل أقعده الوفاء ذليلا
والحق إن طال الزمان ... لأهله يرتد رغم العابثين جزيلا
ان ، كان لحمي والعظام من الثرى ... فإلام أبقى في العطاء بخيلا
هذا ترابي ساجدا قبلته ... حبا له ما اخترت عنه بديلا
يا أيها الناس اتركوا أوهامكم ... بعيونكم صار القبيح جميلا
هذي فلسطين التي أحببتها ... سما سقوها سوقوه عسولا
فالى متى نبقى نئن توجعا ... حام الحمام ولا يروم هديلا
والتين والزيتون من فرط الأسى ... أوراقه جفت وصار عليلا
والورد في الأحواش من وطء العدا ... صارت براعمه تدق طبولا
والفجر يخنقه الظلام مفاخرا ... والفأر لو تدرون يركب فيلا
هذا شعوري والمشاعر تتكى ... فوق الجسور على القبور طويلا
يا ايها الضيف الأعم ثقافة ... يا ابن الرجالات الأشع عقولا
ياكف يمناي التي قد أنهكت ... ياساعدى هما أحن فصيلا
نعطيك حقا أن تكون بحفلنا ... رمزا أمينا للعطاء جليلا
ماذا أقول وقد شبعت حلولا ... يا ابن البطون المنجيات فحولا
غرف الدراسة للسياسة تشتكي ... وقليل ماء لا يغيث سهولا
ليس المعلم وحده يرقى بنا ... جاء المعلم كي ينير سبيلا
ان ، الدراهم آية في عصرنا ... وبدون دعم لا نساوي فتيلا
قل لي بربك كيف نبني صرحنا ... وابن المعارف لا يزال غليلا
هذا احتلال لا يقر بحقنا ... فالطفل في الطرقات يقتل غيلا
هذي الحياة بارضنا مشلولة ... من أين نعطي للجياع أكولا
السلم كبش للفداء كما أرى ... والظلم يسكب في الحلوق كحولا
فاقحم يمينك في مداوة الاذى ... جئناك نرجو أن تظل أصيلا

ويقول في قصيدة أخرى :

أرضنا المعطاء قد أضحت تلوب ... تشرب السم وتقتات الخطوب
ترتدي فوق الجبال الشامخات ... برقا ، ، لا بل وشاحا من شحوب
كيف يغزوها زنيم او رجيم ... أي عيش ضمن بلواها يطيب ؟

كيف تبقى مرتعا للسارقين والعذارى تائهات في الدروب؟
أي زرع أي ضرع والدماء ما توارت في صباح أو غروب
أي نصل غائر بين الضلوع، ، ، كيف تصفو كيف ترتاح القلوب ؟
صدقوني ان، قوم، « العم، سام » يرتأون المجد في ذبح الشعوب ؟

ونلحظ في أبياته السابقة حبه لوطنه وتعلقه بأرضه وتحسره على ما آلت إليه من أحوال. ومن قصيدة أخرى له بعنوان « أشواق مغتربة « يقول :

لا تجزعي ديرتي يا أم أجدادي روحي فداك فأنت الكوكب الهادي
انت الحياة جعلت العيش أغنية وطيفك الغض أنشأ زهرة الوادي
أبقيت ذخرا على الدنيا ومفخرة وظل ثغرك بسام الرضا شادي
لك الأماني من الأعماق أنسجها وأجزل الشوق مقرونا بانشادي
قلبي لقلبك بيراس يضيء له درب الحياة فلا يزعجك إبعادي
هزي يمينك شدى العزم وانتفضي تحلو الحياة وبالآمال فازدادي
يابؤبؤ العين ياقلبي ويا كبدي يا آية الحب في أسفار إرشادي

ومن شعره الحر يقول :

اسمعوا ياناس مني
انني لست المغني
لست زجالا وفاجر
لست تاجر
آه، ما أبلد حسي
قفز الناس كثيرا فوق رأسي
واشتروا مني البضاعة
ببراعة

وهذه أبيات أخرى من الشعر الحر يقول فيها:

الى متى يظل شعبنا يعيش في الخيال
الى متى يظل يستغيث
نهاره عذاب
وليله اكتئاب
يعايش الرياء
ويعشق الفضاء
ويشتهي روائع الحياة

وخلال وجود شاعرنا في الكويت اضطرته ظروف العمل الى أن يبيت في العراء قريبا من مكان عمله، ويصف لنا في هذه القصيدة كيف هاجمته أفعى صفراء في احدى الليالي حيث يقول فيها :

انا كادح أقضي جميع نهاري أبني البيوت ولا أبيت بداري
الشمس تشوى جبهتي بشعاعها والريح تعوي والمكان صحارى
ومعلمي لا ، لا أظن بأنه يدري بسوء مصيبتي ومراري
ومع المساء هناك تكمن بلوتي عند انتصاف الليل والاسحار
أصحو ألاقي في جواري حية صفراء عابثة تود حصارى
تأتي، تروح، وعينها براقة ترنو إلي بلحظها الغدار
لولا عمود الكهرباء بجانبي ملأ المكان بلجة الأنوار
ماكنت أدري أن لي في عشتي جارا لئيما مثل ذاك الجار
ولكان ناب الغدر قد شقت به لحمي ودار السم في أوتاري
فصرخت كي تدري بأن أمامها شبل الأسود وكاشف الأسرار
هذا القضيب من الحديد ترينه وترين أيضا كومة الأحجار
هذا سبيل للتعايش بيننا فإذا رفضت ترقبي أعصاري

وقال من قصيدة أهداها الى أم الشهيد « إياد بدران » من قريته في ذكرى الأربعين، لاستشهاده.

كفكفي الدمع ويا أماه نادي سائلى من يا ترى منكم « إيادي »
سائلي القتل الذي ماعاد يدري كيف يغتال الضحايا باضطراد
سائلينا وابشري لا تجزعي نحن أحرار الدنا بين الايادي
في « اياد « ، أفجع الليل السنا لكن الصبح سيشدو في بلادي
غاب عنا لوعت أكبادنا عاد يشدو في شرايين الفؤاد
يافلسطين الدم القاني له ألف مشوار سدى من عهد عاد
يافلسطين الدم الغالي به نكتب الاشعار من شح المداد
ليتني أغدو شهيدا ربما ترتدي روحي وشاحا من « اياد »
ابنك المعطاء أهدى للثرى فاخلعي يا أمة ثوب الحداد

وقال من قصيدة بعنوان « الشرارة العذراء »

« قبلان » ، لا ، لا ، تهربي أنى حملت فانجبي ،
« قبلان » ، ساعة يلتقي قلبي وقلبك ، فاكتبي
ان المحبة للثرى مثل الصلاة على النبي
ترمين قلبي أسهما ويزيد فيك تحببي
أنساك؟ لا ، لا تحلمي في القلب أنت وصاحبي

وله قصيدة جميلة بعنوان « سراج لا ينطفىء » أقتطفت منها مايلي :

أنا لم أعرف الاحقاد في يومي ولا أمس
أنا قد شع في عينيي حب الباس والشمس
أنا ماكنت معتديا ، ولا أوغلت في الرجس
ولكني فلسطيني بكى ، قلبي على ، قدسي

* * *

كفى ياناس إذلالا فإني رغم أحزاني
ورغم البطش والتشريد عن أرضي وأخواني
ورغم الموت في الطرقات ألقاه ويلقاني
فلن، أبقى أسير الخوف مدفونا بأدراني
* * *

كفاكم ياسراة العرب افسادا وتضليلا
كفى بطشا وارهابا كفى سجنا وتقتيلا
كفى عسرا كفى عهرا وتأويلا وتأجيلا
كفى سلبا كفى نهبا كفى خزيا كفى غيلا
* * *

سنمحو عاركم يوما ولن ننسى مآسينا
ولن ننسى أراضينا وإن كلت مواضينا
ففي بيروت سجلنا زغاريد لأهلينا
ورغم الموت والتدمير لم تخمد أغانينا
***

فكفوا نحن نحمي العرب والأوطان والعرضا
ونحن البلسم الشافي لجرحانا وللمرضى
نعادي من يعادينا ودون الأرض لا نرضى
ونرسو في موانينا ولو شئتم لنا قرضا
ودمعي يوم أفراحي وأوطاني بميلادي
سيغدو نرجسا يزهو برأس التل والوادي
فلا عيب ولا خوف إذا راقصت أحفادي
ولا لوم ولا حيف إذا ماجن أنشادي
***

وقد أدلى شاعرنا بدلوه في الشعر الحديث، فله قصيدة فيه بعنوان « آه يا دنيا الحزانى الأشقياء»، يقول فيها :

ويظل الكادحون
يتهاوى بعضهم جوعا وقر
والذي أدهى وأنكى وأمر
ان بعض الناس خوفا أو غباء
أو نفاقا للسراة الاغنياء
ينسجون الأدعياء :
ان هذا الوضع من شأن القدر

* * *

آه يادنيا الحزانى الاشقياء
هل أتى يوم علينا دون شر
لا ، وربي
ان هذا الوضع لا يرضاه حر
* * *

فاكتبوا آياتكم
وارفعوا راياتكم
يارفاقي
ان هذا العيش مر
* * *

أما قصيدته « الألم بعد الجراح « فيقول فيها :
شامخ حبي ، وقلبي قد تمزق
وضيائي فيك أشرق
يافلسطين الرجولة
يامذاق الشهد يا أرض البطولة
فاز أهلوك على الأرض عطاء
وعلى الشمس ارتقاء ،
ثم ماذا ؟
* * *

أرضنا ليست يتيمة
شعبنا ليس الوليمة
هذه الريح اسألوها
واسألو بعد الحجارة
هل أتى يوم علينا واستكنا

ومن شعره العمودي قصيدته « أناشيد للعيد والشهيد « والتي يخاف فيها أمة العرب فيقول :-

كل المواعظ ماهزت مخادعكم ماجاء يوم على الباغين واعتبروا
ما أروع الشعب لو يأتي يحاسبكم يرمي الرؤوس التي في حشوها قذر
اني أحبك ياشعبي ويا وطني لكن حبي يجافيني وتعتذر
غن مع الطير إن جاز الغناء لنا واهتف جراحك لا يكفي لها وتر

ولشاعرنا قصيدة جميلة بعنوان « قفزات في الظلام « اقتطف منها مايلي : -

الى حضراتكم يشكو يراعي ... ويمتحن الضمير ولا يراعي
الا يا قادة التحرير ردوا ... أسائلكم عن الاقصى المضاع
عن الأرض التي حررتموها ... عن الانسان في الحقل الزراعي
عن الدولار يزهو في يديكم ... ويقبع في الجيوب بلا انقطاع
أسائلكم خلايا أو سرايا ... عن الترويع والقتل الجماعي
فلسطين التي طلقتموها ... وكان طلاقها منكم (سباعي)
تساقط دمعها من مقلتيها ... وراحت تستجير هوى الرعاع
خرقتم كل، تنسيق شريف ... مع الدول التي راحت تراعي
ديموقراطية، ، ارخصتموها ... فقادتكم الى حفر الضياع
اسأتم للبطولة في حماها ... وللثوار في سهل البقاع
صغار في مقارعة الأعادي ... كبار في التزاحم والنزاع
يلازمكم غرام بالكراسي ... إذا اهتزت أصبتم بالصداع
ولاحقني مع التنكيل حقد ... ولم يعرف عظامي من نخاعي
وصرت مع اختراقات المبادي ... أحرك رايتي بحطام باعي
أسائلكم فما أنتم بدوني ... سوى حرفين في الفعل الرباعي
غداة غد تضيء ، مع القوافي ... عيون الوعي من لب الصراع
هو التفريط يهدم مابنيتم ... ويسقط عن قواربكم شراعي
وقاومت الطغاة بكل عزمي ... ولم أبخل بهاتيك المساعي
أتوحيد الصفوف لكم شعار ... أم الالحاق في ركب التداعي

يتبين لنا من هذه القصيدة وغيرها من القصائد أن شاعرنا ركز في شعره على الجوانب السياسية والاقتصادية، ولم يول اهتماما كبيرا بالمرأة، ومرد ذلك إلى سوء الأحوال السياسية والاقتصادية، واهتمامه بالقضايا الوطنية والقومية التي أقضت مضجعه. فقد طغى حب الوطن على كل عواطفه، فان افتخر فبالوطن وان تغزل فبالوطن أيضا.

ورغم رقة شعره وصدق عاطفته الا انه يقع أحيانا في أخطاء نحوية وعروضية تعود لعدم دراسته للنحو العربي والعروض دراسة وافية.

يقول ان مثله الأعلى من الشعراء القدامي عنترة العبسي والمعري ومن المحدثين الشابي ومحمود درويش وتوفيق زياد.

ويأخذ على الشعراء المحدثين « اغراقهم في الرمزية وتوجيه اشعارهم لشريحة معينة من المجتمع « مما يحول دون دخول اشعارهم الى قلوب عامة الناس فتنقطع الوشائج بينهم وبين الجماهير».

وعن اختياره لبحور الشعر يقول « ليس هناك سبب، في اختياري لبحر دون آخر، وأنا لم ادرس العروض، واستعمالي لبحور الشعر يأتي سليقة دون تكلف ».

ونخلص من كل ماتقدم الى أن معظم شعر صاحبنا كان خدمة لقضية وطنه. فنحس فيه تشبثه بالأرض ورغبته الجامحة في المحافظة عليها والدفاع عنها.

فاذا ابتعد عن وطنه براه الشوق اليه وتاقت نفسه إلى معانقة ترابه، كما أنه لا يترك مناسبة وطنية الا وقال فيها شعرا. فقد وصف المظاهرات الاحتجاجية ورثى شهداء الوطن لاسيما شهداء الانتفاضة.

وتغنى بسهول وجبال بلاده وحض الناس على فلاحتها والعناية بها. وقد انتفد شاعرنا، بشدة، ظاهرة التخاذل عند الساعين الى المراكز والكراسي الذين يؤثرون مصالحهم الشخصية على المصالح العامة، وهم بارعون في التنطير والمزايدات الفارغة من المضمون.

ويرجع سوء الاحوال التي وصل اليها شعبنا إلى سياسة هؤلاء. ونلحظ في ثنايا شعره مسحة من الحزن والمرارة ممزوجة بصلابة التصميم وقوة الإرادة، والمرارة التي نشتمها من شعره، مردها الى الحياة الفقيرة التي عاشها وإلى شظف العيش الذي لازمه في رحلة العمر ليؤمن لقمة العيش الشريفة لأهله وأبنائه.

وبعد، فان هذا الشاعر قد نظم كثيرا من القصائد التي آثرت أن أخذ مقتطفات منها فقط. وقد تنوعت تلك القصائد مابين الشعر العمودي والشعر الحر. وإذا وضعنا في اعتبارنا أن المؤهل العلمي لهذا الشاعر لم يتعد الرابع الأساسي وأنه لم يدرس علم العروض ولا النحو، تبينا عظم موهبته الشعرية وصدق عاطفته وسعة اطلاعه.

وهو مع ذلك حلو المعشر، فكه الحديث، طيب القلب، صادق الانتماء لقريته وابناء وطنه يحاول جاهدا أن يعبر بشعره عن كل حادثة اجتماعية حزينة كانت أو سارة

عاطف عبد العزيز نور اللّه

(١٩١١ – ١٩٨٠)

تأليف : معزوز نور اللّه

عاطف عبد العزيز نور الله

(فلسطيني الهوى فلسطيني، ويُحشر المرء مع من أحب)

المحرر

عاطف عبد العزيز نور الله من رجالات سوريا الذين خدموا قضايا العرب العامة في التوعية والتحرر والوحدة وقضية فلسطين بصورة خاصة. كان والده وعمه من أبناء جبلة العاملين في فلسطين في طليعة من استقبل واستضاف ابن بلدهما وصديق عائلتهما المجاهد الشيخ عز الدين القسام عند قدومه إلى حيفا عام 1921 بعد فشل الثورة ضد الفرنسيين في الجبال السورية.

تتلمذ عاطف فتى في مدرسة الجهاد وخرج ثائرا في أكثر من ميدان مستفيدا من روح العصر ونابذا للزعامات التقليدية والانتماءات الضيقة فتعرض لملاحقة السلطات البريطانية التي اعتبرته (كما جاء في تقارير وزارة الخارجية المحفوظة في مكتب الوثائق العامة بلندن) أحد أخطر المناضلين ضد «الانتداب» على الصعيدين الجهادي التعبوي والتوجيهي الثقافي والصحفي.

أثار حماسه إعجاب القسام الذي بارك جهوده اليافعة (والعصرية) في سبيل الاستفادة من الحركة الكشفية وتنظيمات الشباب والطلائع وتسييرها لخدمة القضية الوطنية والتعبئة والتنظيم.

أسس عام 1930 «فرقة كشافة الصحراء العربي» تضامنا مع مؤتمر طلاب العرب الثاني الذي كان قد عقد في عكا. وذكرت جريدة «الجامعة العربية» في عددها 431 بتاريخ 26 أيلول سنة 1930 أن « أولى غايات هذه الفرقة العربية هي مقاومة كشافة بادن باول الاستعمارية التي تزرع في نفوس المنتمين إليها روح الطاعة والاستخذاء للاستعمار».

كما أوردت صحيفة «الحياة» في عددها 135 بتاريخ 22 أيلول 1930 خبر مداهمة دائرة الأمن بحيفا لبيت عاطف يوم 30/9/18 ردا على «حركته المباركة»؛ وفي العام الذي يليه أنشأ بالتعاون مع الشاعر مطلق عبد الخالق مجلة «كشاف الصحراء» باللغتين العربية والإنجليزية والتي أسهم فيها الأمير شكيب أرسلان واستقبلتها صحيفة «النفير» في عددها بتاريخ 31 آذار بالثناء على «همة الأديبين صاحبي المجلة» والحض على «مناصرتهما ومعاونتهما أدبيا وماديا في مجهودهما الشاق الذي يرجى منه النفع الجزيل لشبان الوطن من ناحية غرس الروح العلمية والتضامن والإقدام في نفوسهم ونشر الموضوعات المقوية للروح القومية».

وعلى الرغم من قصر عمر تلك المجلة التي احتفت بها الصحافة العربية ووصفتها جريدة «مرآة الشرق» (عدد 794 بتاريخ 18 نيسان 1931) بأنها «بحجم كبير وورق صقيل محلاة بالصور المختلفة مما لا عهد لفلسطين بمجلات مثلها»، فقد لعبت دورا في استقطاب المواهب الأدبية وإيصال الصوت العربي إلى أقطار أوروبا والأمريكيتين والهند عبر قرائها من كشافي العالم الذي كان نور الله قد التقى بهم في المؤتمر الكشفي العالمي الذي عقد في ضاحية «بركنهد» بليفربول عام 1929 ورفع فيه عاطف بمبادرة شخصية العلم العربي الموحد بألوانه البيضاء والسوداء والخضراء والحمراء وجند جهوده وجهود من تعرف إليهم وراسلهم في نشر البيانات الشارحة للموقف العربي ضد الاستعمارين البريطاني والفرنسي والخطر الصهيوني الداهم.

في بداية كانون الثاني عام 1932 شارك في تنظيم «مؤتمر الشباب العربي» المنعقد في يافا وانتخب عضوا في اللجنة التنفيذية التي أوصت في «ميثاق المؤتمر القومي» على :

- أولا: أن البلاد العربية وحدة تامة الأجزاء وكل ما طرأ عليها من أنواع التجزئة فإن الأمة العربية لا تقره ولا تعترف به.
- ثانيا: توحيد الجهود في كل قطر من الأقطار العربية إلى وجهة واحدة هي استقلالها التام كاملة موحدة ومقاومة لكل فكرة ترمي إلى الاقتصاد على العمل للسياسة المحلية الإقليمية.
- ثالثا: لما كان الاستعمار في جميع أشكاله وضعية تتنافى كل التنافي مع كرامة الأمة العربية وغايتها العظمى فإن الأمة العربية ترفضه وتقاومه بكل قواها.
- رابعا: «أراضي فلسطين برمتها أراض عربية مقدسة وكل من سعى أو سمح أو ساعد ببيع كل أو جزء من هذه الأراضي لليهود يعد مقترفا جناية عظمى».

كما استنكر المؤتمر «أي اتفاق مع الصهيونيين سياسيا واجتماعيا واقتصاديا سواء عن طريق النقابات أو غيرها» ودعا إلى :

أ. تشجيع وترويج المنتوجات والمصنوعات والشركات والمؤسسات العربية.
ب. معاضدة صندوق الأمة والعمل على تعميم تنفيذه.
ج. بث روح التعاون بين الفلاحين والعمل على ترقيتهم اقتصاديا واجتماعيا.
د. تنظيم صفوف العامل العربي والاهتمام بشؤونه.
هـ. السعي في خدمة فلسطين وترقيتها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعلميا وأدبيا طبقا للأماني القومية».

(راجع صحيفتي «الكرمل» 6 كانون الثاني 1932 و «الجامعة العربية» 7 كانون الثاني 1932).

وقد تابع عاطف في أوائل الثلاثينات تأسيس الجمعيات الوطنية بالتنسيق مع القساميين فأنشأ «عصبة المجاهدين» و «عصبة المؤمنين» و «عصبة فتيان الجزيرة» بغرض «تهيئة جماعات طاهرة تسعى لإنهاض الشعب العربي وإنالته الحرية والاستقلال» وتتبع الوسائل التالية :

1. محاربة عوامل الوهن والفساد.
2. تشجيع المنتوجات العربية وإقامة المصانع.
3. معاضدة العمال والفلاحين.
4. الحيلولة دون تسرب الأراضي العربية إلى الأجانب.
5. مكافحة الجهل والأمية.
6. إعداد الفتيات العربيات.
7. مؤازرة المدارس العربية والفرق الرياضية والكشفية والفنية».

وقد أصدرت تلك الجمعيات التي كانت تطبع بياناتها في مطبعة خاصة أقامها نور الله في حيفا منشورات باللون الأحمر وزعت عشرات الآلاف من النسخ في مختلف أنحاء فلسطين تحت عناوين مثل «اسمعوا يا عرب» و «علام يا عرب». وقد استمر ذلك النهج وتصاعد بعد استشهاد القسام وصحبه في جبال قرية يعبد عام 1935 فأنشأ عاطف جمعية «فتيان محمد» التي وزعت خلال أحداث 1935 – 1936 البيانات في طول البلاد وعرضها تدعو إلى الإضرابات وتحث على التنظيم القومي والكفاح على

مدى الساحة العربية وتلاحق «الجواسيس» والخونة والسماسرة وباعة الأراضي والمستعمرين وأذناب المستعمرين» متخذة من دعوة «نصر أو استشهاد» شعارا لها وكاشفة دور هربرت صموئيل «المندوب السامي» في تشجيع الهجرة الصهيونية.

تعرض نور الله للملاحقة والنفي والسجن، ونظم مع رفاقه من القساميين المعتقلين إضرابات عن الطعام كان أشهرها إضراب عام 1937 في معتقل المزرعة بعكا. لكنه تابع التنسيق مع حركات الكفاح المسلح وعمل أمين سره القائد خليل عيسى (أبو إبراهيم الكبير) خليفة القسام وقائد الثورة الفلسطينية العام ورئيس الحكومة الفلسطينية في جبال شمال فلسطين أعوام 37-1939.

من الذين عمل معهم في تلك الفترة وما تبعها الشهيد عبد الله الأصبح والحاج أمين الحسيني وإبراهيم الحاج علي (أبو إسعاف) والحاج حسين حمادة وأبو أحمد القسام (محمود سالم) وسليمان عبد القادر أبو حمام وأبو علي الشيخ سليمان وأبو محمود الصفوري وأحمد سليمان السعدي وصادق محمد ويوسف السرساوي وأحمد التوبة ومحمد صالح وسعيد أبو رقبة وعبد الرحمن أبو ريشة وأكرم زعيتر وفوزي النشاشيبي وإميل الغوري ويعقوب الغصين ونمر المصري وراسم الخالدي وأدمون روك وصفوت الحسيني وسليم عبد الرحمن ومنير الهبل وعبد السلام الخياط وتوفيق إيراني وعبد الرؤوف عبوشي وصادق الجراح وفخري أبو غزالة وشاكر سمارة ونهدي رمضان وفوزي رشيد والشهداء عبد الله الأسعد والشيخ عبد الفتاح (أبو خالد) وعبد الرحيم درويش وطه محمد ورشيد الأسعد وصبري زيدان ونوح إبراهيم وفخري البرد.

كما تابع التنسيق (وهو خريج كلية الصحافة في القاهرة) مع عمداء الصحافة في القطر الفلسطيني وخارجه أمثال نجيب نصار صاحب جريدة «الكرمل» وسهيل إيليا زكا صاحب جريدة «النفير» وهاشم آل صاري ومحمد كافي وعفيف الطيبي صاحب جريدة «اليوم» في بيروت ومصباح قليلات صاحب جريدة «الجامعة العربية» في بيروت وخيري الكعكي صاحب جريدة «الشرق» وكذلك الشعراء وكتاب المسرحيات الاجتماعية الوطنية أمثال مطلق عبد الخالق ومحمد عزة دروزة ونوح إبراهيم وحسن البحيري ومصباح العابودي (بدو الصحراء) ووديع البستاني ويوسف حسون ومحمد كافي ومحمد سليم رشدان ومن المهتمين بالمسرح أمثال شفيق الأنصاري وفتحي الأفيوني وحسين قلعاوي وصبحي جربوع وأنيس عبيد وزكي عكاشة وكذلك الجمعيات النسائية مثل جمعية «تهذيب الفتاة» و «المجمع الأعلى النسائي للوحدة العربية والاتحاد الشرقي العام» الذي كانت ترأسه الأميرة نور حمادة والنوادي الأدبية والرياضية والاجتماعية «كجمعية الرابطة الأدبية» و «نادي النهضة الأدبية» و «النادي الرياضي الإسلامي» و «النادي الرياضي العربي» و «النادي الرياضي الأرثوذكسي» و «نادي الشباب العرب» و «نادي عمال العرب».

ركز على الدعوة إلى الوحدة الوطنية وأقام عروضا ومسيرات ومهرجانات مشتركة مع الجمعيات والفرق الكشفية المسيحية كفرقة «النادي الأرثوذكسي» (بقيادة يوسف عبود والياس ملك وسهيل وسامي حلبي) و «الفرقة الكاثوليكية» (بقيادة ميشيل منسي والياس دانيال وإشراف المطران – فيما بعد البطريرك مكسيموس – حكيم) وكشافة «النهضة العربية» و «نادي تمثيل النهضة العربية» كان أبرزها حفلة التأبين التي أقيمت على مسرح «زهرة الشرق» في حيفا في 9 كانون الأول عام 1933 إحياء لذكرى شهداء فلسطين والاستعراض العام في القدس بمناسبة افتتاح المعرض العربي القومي الثاني الذي شاركت فيه وفود من

أقطار عربية، وكذلك مهرجان الهلال والصليب الذي أقيم على ملعب «النادي الرياضي الإسلامي» في حيفا في تموز 1946.

كان عضوا في اللجنة المؤسسة لمشروع المياه العربية مع كل من الحاج حسين حمادة وحسن مناديلا ومطلق عبد الخالق وصالح أبي حشمة وصالح الحاج حسين، كما انتخب عضوا في الهيئة الإدارية «لجمعية شبان العرب» وشارك في تأسيس عصبة «طلائع الوحدة العربية» عام 1946.

أقام مخيمات تدريبية كتلك التي أقيمت في الرملة عام 1946 وفي وهاد قرية الرينة جوار الناصرة عام 1947، وشارك في الإشراف عليها.

ورد اسمه ضمن عدد من المواطنين المثقفين الذين اعتبرتهم السلطات البريطانية من «الخطرين» على سياستها وعلى ما تسميه الأمن العام في الأيام العصيبة» كما جاء في صحيفة «فلسطين» عدد 1 شباط 1946 ومن بينهم صليبا عريضة، سعيد الخليل، نمر المصري، أكرم زعيتر، عجاج نويهض، عاطف نور الله، صبحي الخضرا، أحمد الشقيري، فريد فخر الدين، يونس نفاع.

دأب على التنسيق مع المجاهدين والكشافين العرب السوريين واللبنانيين أمثال سعيد العاص وشكيب أرسلان ومحمد الأشمر وأسعد الكنج وفوزي القاوقجي وإحسان الجابري وعبد القادر شريتح ومعروف سعد ومصطفى اليافي ومنير بكداش وعبد الرحمن علوان (زعيم حي البسطة في بيروت الذي استضاف نور الله بعد ملاحقته في فلسطين ولجوئه سياسيا إلى لبنان عام 1938) والدكتور مأمون مهايني والدكتور مدحت بيطار ومحمد السباعي وعلى الدندشي وأنور تللو ومسلم العقاد وبكري قدورة ونصوح الدقاق وعطى مكي وبهاء الدين الطباع ورشيد شقير وعلي البزي وعلي خليفة الزائدي وغالب وعبد الكريم عسيران.

وقد استقبل نور الله الوفد الكشفي السوري عند قدومه إلى حيفا في نيسان 1934 (راجع جريدة «الجامعة العربية» عدد 19 نيسان 1934) كما كان مديرا لمعسكر تدريب القادة الذي أقيم في جديدة الوادي قرب دمشق في تموز 1966 وأحد قادة المعسكر الكشفي في العراد جوار الهامة من ضواحي دمشق عام 1968 وشارك في المؤتمر الكشفي العربي التاسع في الزبداني بسوريا عام 1970.

عمل بعد النكبة على مساعدة آلاف النازحين عبر «اللجنة العامة للاجئين الفلسطينيين في لبنان» و «مكتب فلسطين الدائم» وترأس البعثة العربية الفلسطينية إلى المؤتمر الكشفي العربي الرابع في أبي قير قرب الإسكندرية صيف عام 1956 كما أسهم (بالتنسيق مع المجاهد محمد الأشمر زعيم حي الميدان في دمشق) في دعم الثورة الجزائرية خلال الخمسينات وأوائل الستينات وشارك في أعمال اللجنة التحضيرية لمؤتمر رعاية الشباب الذي عقد في القدس عام 1965 وكلف في نفس العام من قبل منظمة التحرير الفلسطينية بإعادة بناء الكشاف العربي الفلسطيني في لبنان وعمل مراقبا للمؤتمر الكشفي العربي العاشر في الموصل عام 1972.

وفي لبنان اشترك عاطف مع زوجته ورفيقة دربه (إسعاف صوفان) المتحدرة كذلك من أسرة سورية في مدينة اللاذقية وإحدى الرائدات في الحقلين التربوي والاجتماعي والمساهمات الطليعيات في قيادة الجانب النسائي في معركة استقلال لبنان في تأليف ثنائي فريد في طبيعته الإنسانية ووعيه الوطني والقومي، بادر على الفور، وعلى امتداد ثلاث ساحات عربية (سورية ولبنان وفلسطين) إلى الانطلاق في مد يد العون إلى طلائع أبناء النكبة وإغاثتهم وذلك بتسخير إمكاناتهما واتصالاتهما الكثيرة، وبتكليف رسمي بعد ذلك من حكومة لبنان، في لم شمل العائلات المنكوبة ودفع عجلة الحياة اليومية والمعاشية في أماكن تجمعاتها مخافة الوقوع في هاوية القنوط والاستسلام القاتلين.

كتب نور الله مئات المقالات والبيانات في الصحف والمجلات الفلسطينية والعربية مثل «الكرمل» و«النفير» و «الجامعة الإسلامية» و«الشرق» و«اليوم» و«الجامعة العربية» و«الرياضة والشباب» وعدد من الصحف الإنكليزية بغرض الدعاية للقضية العربية، كما أعد سلسلة من الدراسات للنشر تتناول تاريخ كفاح الشعب العربي الفلسطيني وارتباطه بالنضال العربي العام وفصولا منسية عن الحركات الثورية والكشفية والفنية والنسائية وجنودها المجهولين مزودة بالوثائق والمستندات والصور النادرة.

يعتبر عاطف نور الله ملمحا من ملامح الإسهام العربي السوري المتقدم في النضال السياسي القومي والكفاحي من أجل القضايا العربية على وجه العموم والقضية العربية الفلسطينية على وجه الخصوص. وقد تمحورت بدايات مجابهته للاستعمارين البريطاني والصهيوني في سعيه المبكر ومحاولاته المتكررة لخلق حركات وحدوية ثورية واعية لأبعاد الهجمة الاستعمارية على فلسطين وطبيعتها المتميزة بشقيها القومي الحضاري والاجتماعي، وطبيعة التصدي لتلك الهجمة بمفهوم مرحلة تلك البدايات وأدواتها، اجتماعيا وسياسيا وأخلاقيا، وغالبا ما نجح في تشكيل تلك الطموحات بعيدا عن تجاذب الزعامات التقليدية لمقاليد الشأن السياسي في تلك الآونة وكانت البيانات التي أصدرها تؤكد جميعها وعلى مدى سنوات عدة على ضرورة أن يتصدى المستهدفون من المخطط الاستعماري أنفسهم إلى تنظيم أنفسهم وفرز قيادتهم المستقلة والمنبثقة من جماهير الشعب متجاوزة الانتماءات الضيقة.

ويعتبر نور الله، كما القسام، في مضماره الخاص معلما متميزا في مسيرة كفاحه القومي ووعيه لوحدة وتلاحم المصير العربي وحتيمة التصدي المشترك لدرء الأخطار التي تهدده.

صالح برانسي

١٩٢٨ – ١٩٩٩

د. رقية زيدان

صالح برانسي

بطاقة تعريف:

ولد صالح برانسي في مدينة الطيبة المثلث سنة 1928م
وتوفي سنة 1999م
التحق بكلية النهضة حيث تلقى علومه على المربي الكبير خليل السكاكيني في القدس
ترك الدراسة، والتحق بجيش الإنقاذ في يافا
في سنة 1951م تمكن من الالتحاق بسلك التعليم حيث تم تعيينه مدرسا للغة العربية في ثانوية الطيبة.
أقام صالح برانسي عام 1984م مركزا لإحياء التراث الفلسطيني

من أهم انجازاته:
* مركز إحياء التراث في الطيبة:
*تنظيم مهرجان التراث العربي في الطيبة. 20 -27 /1984/10م.
*مهرجان جفرا في الطيرة، 1985/10/27-20م
*مهرجان القدس 16-1987/10/20م.
*فرضت على صالح برانسي الإقامة الجبرية من جديد عام 1986م.
صالح برانسي شخصية نضالية راقية، سجن وعذب وأهين وتعذب.
في العام 1991م أصدر مجلته «كنعان».
تزوج من السيدة نهلة برانسي.

صالح برانسي الكنعاني الأسمر
مقتطفات من سيرته الذاتية

ولد صالح برانسي في مدينة الطيبة في المثلث، ومع سقوط المدينة 1948م صودرت أملاكه، حرم من العمل، وسجن وعذب.

تعتبر حياة صالح برانسي حياة سياسية ونضالية، تمتد تجربة صالح برانسي الكفاحية ابتداء من تطوعه في إحدى وحدات الجيش العراقي، الذي شارك في الدفاع عن فلسطين في أواخر الأربعينات، مرورا بحركة الأرض وتأسيس مركز إحياء التراث.

صالح برانسي شخصية نمطية جوهرها التجرد من عرض الدنيا والتوحد في النضال، وحسب ما ذكر في كتاب «النضال الصامت» يقول:

«بعد تسليم قريتنا لليهود، كنت في البيت، وإذ بأحدهم يقرع الباب، وعندما فتحت لأرى من الطارق، وجدت البوليس يقف على الباب ويسألني إن كنت صالح برانسي. فرددت بالإيجاب فطلب مني مرافقته، وهناك في السجن وعندما أفقت من الإغماء حاولت النهوض فلم أستطع، والتفت لأرى نفسي في مكان الدجاج والأرانب تحت المقصبة. ونظرا لانخفاض السقف لم أستطع الوقوف أو الجلوس.

نظرا لتدهور الأوضاع الاقتصادية، في نفس الفترة، وبسبب القيود المفروضة من قبل الحكم العسكري، كمصادرة الأراضي، وفرض المصادر والتضيق على المصادر المعيشية للسكان العرب؛ فقد تقدم صالح البرانسي بطلب إلى إدارة المعارف لتعيينه معلما لكن إدارة التربية رفضته، فاضطر للعمل في الزراعة والمحاجر وإن كان تمكن من الالتحاق بسلك التعليم في فترة قصيرة فقط.

يعد صالح برانسي من مؤسسي «حركة الأرض» إلى جانب حبيب قهوجي، منصور كردوش، صبري جريس.

عبرت هذه الحركة عن مشاعر القومية العربية المكبوتة بسبب القمع الصهيوني الذي مورس ضد العرب الفلسطينين في المناطق المحتلة عام 1948 وما لبث صالح ان اعتقل عام 1959م هو ورفاقه من الحركة وحوكموا بثلاث تهم رئيسية:

1. اصدار جريدة غير مرخصة
2. اصدار نشرة دون تمريرها على حاكم اللواء
3. التحايل على القانون

من أهم اعمال صالح برانسي إقامة مركز إحياء التراث الفلسطيني عام 1984 الا ان الامر لم يكن يسيرا، لما واجهه من عراقيل، كما تم اصدار عدة كتب حول اعلام قومية عربية تخليدا لذاكراها، وأصدر كذلك بعض الإصدارات التي كان لها أثر في مجال القضية الفلسطينية وقضايا أخرى عربية منها :

1. عبد الرحيم محمود ين الوفاء والذكرى، اعداد اديب رفيق محمود وطارق عبد الكريم محمود « 1990 »
2. التراث الفلسطيني بين الطمس والاحياء، اعداد د. منعم حداد (1986)
3. الفلسطينيون المنسيون: عرب النقب، 1906 - 1986، د. غازي صلاح 1989)
4. الأستاذ الدكتور اسحق موسى الحسيني بين الوفاء والذكرى، اعداد حسن السلوادي (1991)
5. خليل السكاليني بين الوفاء والذكرى، اعداد نواف عبد الحسين
6. البروسترويكا: حرب الخليج والعلاقات العربية السوفيتية،، تأليف د. عادل سمارة (1991 م)

في عام 1989م، اقترن صالح برانسي بالسيدة نهلة برانسي وانجب منها ثلاثة اطفال هم : فؤاد، فادي، وزكي الا ان يد القدر خطفت فؤادا» وهو في الثالثة من عمره وتخليدا» لذكراه وبالتعاون مع مدرسة ابن خلدون الابتدائية والبلدية أنشأ مركزا للكمبيوتر أطلق عليه اسمه.

صفات صالح برانسي :

- كان صالح وطنيا عدوا للطائفية.
- كان رجل مبادرة يحترم الافكار الخلاقة والمهام الصعبة.
- كان صالح صريحا وغير مهادن، يعبر عن ارائه بكل وضوح وفي كل المناسبات، يدافع عن مبادئه دون اكتراث بالعواقب التي تنجم عن ذلك.
- رجل يكره التكتيك، والكل مكشوف أبيض أو أسود، وفي أو خائن، جبان أو شجاع، صديق أو عدو.
- كان صالح رجلا شجاعا، مدافعا عن مبادئه وحقوق شعبه ومستعدا للتضحية، ولايخيفه السجن والاعتقال. ولا تثنيه أوامر الاقامة الجبرية.
- كان مستعدا للتضحية بعمله وبصحته وبكل ما يملك من أجل قضيته.
- كان مبتسما، يتندر بالنكات حتى في أيامه الأخيره وهو يصارع الموت.
- كان صالح برانسي متاثرا بأفكار السكاكيني ومبادئه التي سبقت زمانها، وبشخصيته الفذة، وإنسانيته السامية.
- كان متواضعا جرئيا، صادقا في عمله، جميل الخلق رحب الصدر، يحب لغيره مايحب لنفسه.
- رغم قساوة الحياه على صالح، ورغم صلابة شخصيته، ورغم عناده في المواقف التي يؤمن بها. فقد كان إنسانا عطوفا ومحبا للبشر، كان يداعب الصغار ويحبهم ويصر على المشاركة في احتفالات أعياد ميلادهم.

مقتطفات مما قاله الدكتور فوزي الاسمر عن صالح برانسي

صالح برانسي حمل على كتفيه هموم شعبه وآلامه، وحارب من أجل ترسيخ الهوية العربية، والقومية العربية بين أبناء هذا الشعب، عرفته في «مجله الفجر» حيث عملنا معا ومن ثم في حركة «الارض» ثم تقابلنا في السجن، حيث قضى اثنتي عشرة سنة.

واصبح صالح رمزا من رموز النضال العربي في «إسرائيل»، وبعد انتهاء فترة سجنه كنت أعيش في الولايات المتحدة منهيا دراستي الدكتوراه، ورتبنا له دعوه لجولة محاضرات في أمريكا، واستطاع صالح بأسلوبه السلس وتحليله العميق للأمور أن يسيطر على سامعيه، ويدخل قضية شعبه وبلاده الى عقولهم وقلوبهم، ولا أنسى أول محاضرة له في العاصمة الأمريكية واشنطن. كان ذلك في أواخر السبعينات وكان يقوم بزيارة واشنطن في ذلك الحين الشاعر العربي الفلسطيني الكبير عبد الكريم الكرمي «ابو سلمى» وقمت بتقديم صالح له، وتناولنا طعام العشاء معا ورأيت الدموع تترقرق من عيني شاعرنا وهو يستمع الى حديث صالح عن مسيرة العذاب وطريق الالام التي مر بها، وعندما لاحظ صالح ذلك ابتسم وقال لابي سلمى ألست أنت القائل في قصيدتك، «سنعود»:

فلسطين الحبيبة كيف أغفو ... وفي عيني أطياف العذاب
أطهر باسمك الدنيا ولولم ... يبرح بي الهوى لكتمت مابي

مسيرة صالح النضالية طويلة وغنية تحتاج الى دراسة كاملة. لقد كان يعتبر من أفضل الخطباء العرب وأكثرهم دقة في اختيار المفردات، وسمعت غير شخص يقول بعد سماع خطابه: «إنه أفضل خطيب عربي بعد جمال عبد الناصر» وكان صالح يعتز بذلك. لقد كان جمال عبد الناصر أحد أبطاله.

فكر صالح برانسي:

مقتطفات مما قاله الدكتور عادل سمارة في «استقلاليته وطنيا»

يرى صالح برانسي في الناصرية حركة عروبية وحدودية اشتراكية، كان انحيازه لقوة سياسية معينة هو بمقدار تقاطع هذه القوه السياسية مع المسألة الوطنية مندغمة في المسألة القومية، لاشك ان القضية الفلسطينية كانت الهم الاول لصالح برانسي، لكن هذا الاهتمام الوطني، ومختلف أشكال النضال التي مارسها لم تفقده البوصلة الأساسية وهي أن فلسطين جزء من الوطن العربي، وأن تحرير فلسطين هو مشروع عربي وجزء من المشروع النهضوي العربي، ومن هنا تنبع ناصرية صالح وقوميته عامة، ومن هنا جاءت شراسة وقفته ضد الاقليمية والطائفية تحديدا.

مدريد أوسلو والتسوية

إن موقف صالح برانسي بالنسبة لأوسلو يتمثل في رفضه للاتفاقيات. فإضافة إلى قناعاته القومية، فان صالحا كان يعمل كفلسطيني بشكل عام، أي كان يعتبر العمل السياسي الفلسطيني، وأي إطار نضالي فلسطيني بأنه إطار يشمل كل الفلسطينين أينما كانوا، ومن هنا ظل عروبي الانتماء ناصري التفكير.

القومية والماركسية:

كان برانسي من قلة صغيرة جدا، هي التي لاتخشى من عقد انسجام بين القومية والماركسية، وهما الأمران اللذان طالما اعتقد كثيرون، إما عفوا أو سهوا أو بصما، أو عبادة للنصوص او لفقر فكري، أنهما عدوان متناقضان بالمطلق وإلى حد تناحري. كما قام البعض بالمبالغة في تناقض الأمرين بناء على كون هذا البعض هو جزء من مشروع عدواني غربي.

الحياة البرلمانية :

على الصعيد الوطني الفلسطيني انشغل صالح برانسي في السنوات الاخيرة بموضوع ترشيح وتصويت الاقلية القومية العربية الفلسطينية في ما احتل عام 1948.

ينطلق صالح برانسي في رفضه للنضال البرلماني من طبيعة الدولة اليهودية، معتبرا أن أي عدد، مهما كبر، من برلماني الأقليات القومية، لن يتمكن من انتزاع تشريع في القضايا المصيرية، لقد كان صالح برانسي عمليا سياسيا إلى حد كبير. وهذا بعكس ما يمكن أن يدعيه مؤيدو البرلمانية.

يرى البرلمانيون أن مقاطعة انتخابات الكنيست إنما تعني الانعزال عن النضال السياسي والاجتماعي. لكن صالح كان عكس هذا تماما، فهو مناضل من الطراز الأول. يشهد على هذا نضاله في حركة الأرض،

وتأسيسه لمركز إحياء التراث، بما في ذلك مجلة كنعان.

ورحل برانسي وهو متمسك بموقفه من الوحده العربية ومن القوميه العربية، موقف تجاوز الفهم القومي الكلاسيكي ليصبح موقفا يفرق بين القومية العربية للطبقات الشعبية التي انتسب لها برانسي وبين قومية الطبقات الرأسمالية الكمبرادورية التابعة، وهو الموقف نفسه الذي باعد صالح من خلا له مابين نفسه وبين التسوية، وما بين نفسه وبين التصويت والترشيح للكنيست.

قالوا في المناضل الكنعاني

قال الشاعر الكبير (أبو سلمى) في صالح برانسي: التقيت بزيتونة أصيلة، ثمرها طيب، وزيتها يضيء وروحها العروبة، وفكرها ناصري وإيمانها لايتزعزع.

الكاتب رشاد أبو شاور

يا صالح برانسي، لقد جئتك اليوم من مخيمات عمان من مخيمات المنافي، لقد جئتك انا الكاتب الذي كتبت عنك وعن الوطن ونقلت كلماتك لأقول لك: إن الكلمة الفلسطينية ستبقى وفية ومخلصة، ولن تنظر للاستسلام والمساومة، المجد للأرض، المجد للطيبة التي أنجبتك طيبا مباركا، المجد لحركة الأرض، لأبنائها لأجيالها الطالعة، المجد للمؤمنين في عروبة فلسطين.

الدكتور فوزي الأسمر

صالح برانسي واحد من أقوى وأعند المناضلين الفلسطينين الذين بقوا تحت الحكم الاسرائيلي منذ عام 1948م، هذا الإنسان الذي حمل على كتفه هموم شعبه وآلامه وحارب من أجل ترسيخ الهوية العربية، والقومية في أبناء هذا الشعب.

وقال الاب د.فوزي الخوري في برانسي: عظيمة هذه الأمة التي أنجبت أمثالك، عزيزة هذه الأرض التي أنبت سنديانة مثلك عنيدة قوية.

قال الدكتور سهيل ميعاري في برانسي

لقد عمل صالح بكد وجهد على تحقيق التطلعات الثنائية لشعبنا، وهي الخطوة التي اكتسبت أهمية خاصة جدا في غياب مؤسسة تمثيلية كبرى راعية لعملية التنمية الثقافية، فقد ساهم صالح في إنشاء وإقامة العديد من المؤسسات الثقافية الأهلية المنتشرة الآن في أنحاء الوطن، وقد عرف مبكرا أنه لايمكن إنجاز ذلك دون التواصل والتشابك مع مؤسسات الثقافة الأم. فأقام المؤتمرات الثقافية في القدس،

والطيبة وعكا، وغير ها من المواقع الجغرافية الفلسطينية مركزا على أهمية، الثقافة في الجمع بين أبناء الشعب الواحد.

قال عبد اللطيف غيث في صالح برانسي

لم يكن صالح اقليميا ولا فئويا، بل فهم النضال والمناضلين على قاعدة كلنا أبناء شعب فلسطين، ولم يكن وطنيا فلسطينيا فحسب، بل كان أساسا عربيا قوميا، الوطنية بالنسبة له لا تتحقق إلا بعمقها وجوهرها العربيين، يرى فلسطين جزءا من الوطن العربي الكبير، يرى النضال الفلسطيني مقدمة النضال العربي في الساحة الفلسطينية، كان وحدويا، اشتراكيا، وتقدميا، لم يتراجع أو يساوم مما أكسبه صفة المناضل الملتزم الصلب.

صالح برانسي في حركة الأرض

في ظل المشروع القومي الناصري، ترعرت حركة الأرض التي تشكلت بعد سبع سنوات من قيام ثورة يوليو في مصر بقيادة عبد الناصر، في نيسان 1959م بعد أن أصبح التيار القومي الناصري لا يستطيع ممارسة نشاطه ضمن الجبهة الشعبية الديموقراطية. وفي هذا الجو المفعم بالروح الوطنية العارمة اجتمع نفر من المؤسسين الأوائل في بيت زكي البحري في حيفا، وتم اجتماع آخر في أوائل تموز، ثم اتخذ القراربإقامة حركة سياسية عربية مستقلة تحكم حركة الأرض، وتقرر في الاجتماع التأسيسي إصدار صحيفة واسمها صحيفة الأرض. ووزعت بيانات في إقامة الحركة الواعدة «حركة الأرض» وكانت أهداف حركة الأرض مايلي:

1. أن تلغى الأحكام العسكرية
2. أن ترد الأرض المسلوبة إلى أصحابها وأن تتوقف عملية السلب وتهويد الجليل.
3. أن يرفع مستوى مدارسنا، بحيث تصبح دورا للعلم لا مغاور للجهل.
4. أن يعامل العامل العربي كما يعامل العامل اليهودي وبنفس الشروط.
5. أن يساعد الاقتصاد العربي والفلاح العربي لكي يطور وكي لا يموت وينقرض.
6. أن يعاد اللاجئون إلى قراهم.

لقد عملت حركة الأرض ضمن الإمكانات المتاحة لها، ففي عام 1965م ظهرت مرة أخرى من خلال قائمة الاشتراكيين لخوض الانتخابات البرلمانية، وكان رد السلطة حادا وعنيفا، حيث نفت أربعة من القيادين البارزين وهم:، صالح برانسي، ومنصور كردوش، وحبيب قهوجي، وصبري جريس، إلى أماكن بعيدة ونائية داخل المدن اليهودية، وفرضت الإقامة الجبرية على نشطاء الحركة في مختلف المواقع... وأوعزت السلطات

الإسرائيلية إلى لجنة الكنيست برفض تسجيل القائمة، وكانت هذه ضربة أخرى لجماعة الأرض للحد من نشاطها العلني، غير أن السلطة لم تكف عن ملاحقة قياديي حركة الأرض المحظورة، فقد أبعد كل من حبيب قهوجي وصبري جريس إلى لبنان، كما اعتقلت صالح برانسي بتهمة التنظيم السري والتآمر على أمن الدولة وسلامة مواطنيها وكان ذلك عام 1969م حيث حكم بالسجن عشر سنوات.

حارس فلسطين

شعر منيب مخول في صالح برانسي

هل يا ترى جزعت عليك ثمود
وعلت مشارفها لوائح سود ،
دع... حسبنا إن المروءة والندى
جزعا أسى يا صالح، والجود
والصدق والإقدام والمثل التي
كنت اعتنقت وعهدها المعقود
كندا فلسطين السبية حينما
فارقتها ، قسرا ، وأنت شهيد
فارقتها لتعيش في أحشائها
حتى يحقق عتقها الموْعود
فتعود منبعثا ببرعم نبتة
وتفوح فيك أزاهر وورود
وترودها نبعا نميرا جاريا
يروى به روض أغن رغيد
وتروحها طلا على أغصانها
عند الصباح، كأنهن عقود
وتجوبها طيرا على أفنانها
وتجيش فيك جوارح وأسود
وتشوقها حبا عميقا صادقا
يغْنى به شرق أغر، ودود
وتعيشها أرْضا تآخى أهلها
يزهو بها علم عنا ونشيد
يا صالح الأرض التي أحببتها
لك بصمة في صدرها وشهود
ولأنت فارسها وأنت عقيدها
تغدو عى شفر الردى وتعود

ولأنت «حارسها الذي ما
انفك يحمي حلْمها ويذود
وهناك «ناطور» لعمري «صالح»
من قلب ناصرة الجليل رشيد
قد كنت والناطور قطبي رؤية
بل توأمين كلاهما ، صنديد
قطبٌ بناصرة، الجليل معاندٌ
وكذا بطيبة الصمود عنيد
فارقتمانا ، يا أخييا معا
فكأن، وعدكما معا ، محدود
البعد يملؤنا ، أسى . . . ولعله
يسليه وحيٌ منكما ممدود
قلبي على الأم فلسطين التي
لما تزل تعطي دما وتجود
في فترة طالت . . . ولما ينهها
قرنٌ بغيضٌ ظالمٌ منكود
فمن الخليج إلى المحيط غمامة
سوداء ، تملأ بعده وتسود
ماذا إذا الحكام، إلا قلة
منهم، لأمريكا دمى وعبيد
قد كنت ممن خاض ليلا جائرا
يا صالح، والليل جد كئود
نمْ في ثراك، أبا فؤاد ، راضيا
إن التراب لذي السيوف غمود

مقتطفات من خطابات صالح برانسي في مناسبات مختلفة

في مهرجان التراث الفلسطيني ١٩٨٤/٨/٢٧م

أيها الأخوة، نرحب بكم جميعا، القادمين من العقبة الكأداء بوجه الاحتلال، هضبة الجولان الصامدة، من جليلنا الشامخ من ضفتنا المقاتلة، من قطاعنا المقاتل، من النقب الصامد ومن المثلث النابض.

قليلا الآن من كلام العقل إلى العقل، ومن كلام القلب إلى القلب، ربما كان أحد أسباب النكسات في نضالنا، أنه كثيرا ما كان يقوم على أرضية عاطفية، تشتعل وتتفجر كلما حدث حادث ثم تخبو إذا ما تلاشى الحادث، نحن الآن، إذ بنينا وأقمنا مركز إحياء التراث إنما نريد أن نساهم في شق طريق جديد تبني النضال على القناعة، طريق تبني النضال على الانتماء، طريق تجعل النضال جزءا عضويا من الذات الفلسطينية أينما كانت.

في مهرجان جفرا – الطيرة – ١٩٨٥م،

إن كل نشاط يستهدف تحقيق ذلك لا بد أن يقوم على أمور أربعة، هي المادة والأداة والموضوع والنهج. أما مادته، فيجب أن تكون تراثنا الفلسطيني والعربي، بكل مظاهرة الفكرية والمادية والتاريخية، وأما أداته فمؤسساتنا الملتزمة وكذلك كل الجماعات والأفراد المؤهلين والملتزمين من أبناء شعبنا.

وأما موضوعه، فيجب أن يكون أبناء شعبنا في مجال السلوك والمأكل والملبس والمسكن ومختلف أنواع النشاطات الفنية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وأما منهجه فإنه لابد أن يقوم على مسح شامل للمجالات السابقة، يتم على ضوئه تحديد خطة العمل على أساس من المتوفر والمطلوب والممكن، يتضح من ذلك أن عملية إحياء التراث ليست مجرد قضية سياسية ولكنها وبالدرجة الأولى تمس حياة الفرد الفلسطيني الإنسانية والوطنية.

بعد انتهاء عرض فرقة بيرزيت

كانت بيرزيت أيها الأخوة، كانت في زمن الانتداب مدرسة ثانوية أو كلية كما كانت تسمى، لكن لها الآن واليوم اسم ملأ الدنيا بأسرها، اسم حين يسمعه الإنسان أينما كان يتصور الشرف، يتصور الحب، يتصور العمل من أجل الحق، وهل تعرفون من الذي صنع بيرزيت، هذا الاسم!! هذه السواعد الفتية هؤلاء الفتيات الفلسطينيات الجميلات شكلا، الجميلات خلقا، هؤلاء الشباب الفلسطينيون الجميلون خلقة الجميلون خلقا.

كلمة شكر وتقدير لفرقة وادي التفاح بعد عرض برنامجها

هذه الفرقة الرائعة التي رأينا كيف أنطقت التراث، تراث الفلاح البسيط الذي صنع الملحمة هذا التراث الذي صنع العرس، عرس الحياة، يريد أن يهب الحياة لكل من يحب الحياة فإذا بالسوط وإذا بالمدفع وإذا بالذرة ترتفع لتخرس صوت الحياة، هذا العرس الفلسطيني الذي صنعه الفلاح البسيط والذي عبر عنه التراث والذي مازال يبحث عن الفرحة.

أبو وضاح، سيف الدين زيد الكيلاني

١٩١٤_ ١٩٦٨

أ. د. يحيى جبر

عن كتاب خلجات قلب

٤٠٩

أبو وضاح، سيف الدين زيد الكيلاني

ولد المرحوم سيف الدين في مدينة القنفدة، جنوب جدة من البلاد السعودية، في 26 نوفمبر 1914 حيث كان أبوه ضابطا في الفيلق العثماني المرابط في تلك المنطقة. وقد كان والده محمود ابن الشيخ سيف الدين زيد الكيلاني، كعادة أبناء الأسرة الشرفاء، في ذلك الوقت قد أكمل تعليمه في المدرسة الحربية للأركان في استنبول، وتزوج هناك، والتحق بصفوف الجيوش العثمانية متنقلا في الجبهة الغربية في القرم، ثم الجبهة العربية، وعادت الأسرة في نهاية الحرب إلى موطنها نابلس بفلسطين، حيث تلقى سيف الدين تعليمه القرآني ثم الابتدائي بمدرسة الصلاحية في نابلس، وأتم تعليمه الثاني في يافا، والتحق بالكلية العربية في القدس لينال شهادة التربية للمعلمين. وأنجب سيف الدين من الأولاد عبير ووضاحا وسهير وصداحا ولماحا ومناحا. وكان من هواياته المطالعة والموسيقى والسباحة.

الشهادات العلمية:

- متريكوليشن فلسطيني 1932.
- دبلوم التربية من الكلية العربية بالقدس 1933.
- شهادة امتحان المعلمين الأعلى الثانوية من حكومة فلسطين 1937.
- دبلوم بدرجة شرف من جامعة ملبورن في أستراليا 1954.
- بكالوريوس بمرتبة شرف من جامعة ملبورن في أستراليا 1955.
- ماجستير في التربية من جامعة ملبورن في أستراليا 1956.
- دكتور فلسفة في التربية بجامعة عين شمس 1960 بمرتبة الشرف الأولى.

الإنتاج الأدبي والعلمي والشعري والفني :

- دراسة مقارنة لنظم التفتيش في الأردن وأستراليا ونيوزلندا (رسالة ماجستير).
- شرح النصوص المختارة لطلاب المدارس – خمسة أجزاء – بالاشتراك مع آخرين.
- تجربة في الإشراف الفني في مدارس الأردن الثانوية (رسالة دكتوراه فلسفة).
- كتابي (طريقة الجملة في تعليم الأطفال) بالاشتراك مع آخرين.
- المعلم المنفذ – ترجمة بتكليف من اليونسكو بالاشتراك مع زميل آخر.
- خلجات قلب – ديوان شعر.

أوجه النشاط الاجتماعي والسياسي :

مثل الكيلاني الأردن في حلقة ترجمة الروائع العالمية (اليونسكو)، والتقارب الثقافي بين الشرق والغرب (اليونسكو)، ومؤتمر دراسة موازنة الدول العربية في اليونسكو ومؤتمر الأدباء العرب في بلودان، وحلقة

إعداد المعلم العربي (الجامعة العربية)، ومؤتمر أدباء العرب في الكويت، وحلقة التربية الريفية في بيروت، ومؤتمر التربية الإقليمي في طرابلس الغرب (بعثة العمل الأمريكية)، ومهرجان الشعر العربي، وإحياء ذكرى أبو تمام في دمشق

الوظائف :	من	إلى
1. معلم في ثانوية الخليل	1933	1937
2. مدير مدارس طبريا والمجدل وقلقيلة	1937	1945
3. سكرتير عام بنك الأمة العربية ومدير فرعه بنابلس	1945	1948
4. معلم ثانوية كركوك في العراق وثانوية ابن رشد في حماة بسورية	1948	1950
5. مدير لمدرستي إربد والسلط الثانوية	1950	1954
6. مبعوث لدراسة التربية الإدارية على نفقة منظمة اليونسكو إلى أستراليا ونيوزلندا وأمريكا وبريطانيا وفرنسا	1954	1956
7. مفتش مركزي (مشرف فني) في الوزارة بعمان	1956	1959
8. مدير دار المعلمين الريفية في بيت حنينا (القدس)	1959	
9. مدير المطبوعات والنشر- عمان	1961	1962

وقد تقلد المناصب التالية :

- وكيل وزارة الإنشاء والتعمير عام 1962.
- وزير الإنشاء والتعمير 1965/2/13.
- سفير فوق العادة لدى، المملكة المغربية في الرباط 1966.
- أستاذ محاضر في جامعة الملك محمد الخامس في الرباط1967.

الأوسمة والرتب التي يحملها :

- وسام الكوكب الأردني من الدرجة الثالثة.
- وسام الكوكب الأردني من الدرجة الأولى.
- وسام النهضة الأردني من الدرجة الأولى.
- وسام الكفاءة الفكرية من ملك المغرب.

والكيلاني أديب وخطيب ومحاضر، وشاعر معروف في الأوساط الأدبية العربية، وله عدة مقالات ومحاضرات وقصائد منشورة في الصحف والمجلات والإذاعات المحلية والخارجية.

وقد اختاره الله إلى جواره، فانتقل إلى الرفيق الأعلى راضيا مرضيا في الرباط بالمملكة المغربية في 1968/6/3 ونقل جثمانه إلى عمان عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية حيث دفن فيها مأسوفا عليه وعلى أخلاقه وكفاءاته.

وجاء في مقدمة ديوانه «خلجات قلب» من قلم ذوقان الهنداوي أنه في عام 1951 عينت معلما في مدرسة إربد الثانوية التي كان شاعرنا المرحوم الدكتور سيف الدين زيد الكيلاني يعمل مديرا لها...

ومنذ ذلك التاريخ، وإلى أن استرد الله عز وجل وديعته في «أبي الوضاح» فقد كتب لي وأسعدني أن أكون رفيق درب وحياة للمرحوم «أبي الوضاح» : مفتشين في وزارة التربية والتعليم، ومديرين لكليتي معلمين متجاورتين في الضفة الغربية، وزميلين أخوين في حكومة واحدة... وعندما طالعت «خلجات قلب» تصفحت وتمنعت في تلك الجواهر والدرر التي جادت بها منظومات وخلجات ذلك القلب الكبير، شعرت بأنها أعادتني لأعيش ثانية تلك الأيام الخوالي بنبضها وحيويتها ووطنيتها... لم يكن يمر أسبوع إلا وكانت لنا جلسة أو أكثر، نستمع فيها إلى خلجات قلب أبي الوضاح التي كانت تفيض وطنية وروحانية ومثالية مما كان عاملا في إنقاذ نفوسنا من شعور الوهن والإحباط آنذاك، ليحل بدلا منها شعور الأمل والحماس والاندفاع نحو الأفضل... كنا نشعر بأننا كعرب نملك الدنيا وما فيها من عزة وكرامة عندما كان ينشدنا أبو الوضاح رحمه الله :

كدت يا موطني إليك أولي — في صلاتي وجهي لفرط حناني
ولهد المسيح جرس عجيب — في فؤادي موقع الألحان
خالط الروح حبه فهو والصخر — ة عندي ويعرب صنوان

ألم يلخص «أبو الوضاح» كل أماني العرب في الوحدة والحرية والحياة الأفضل عندما أنشد في الوحدة العربية :

ما أنت إلا كعبة وسنبتني — محراب كعبتنا من الأكباد
حتى نرى علم العروبة ناشرا — ظل العروبة وعزة الأجداد
ونرى سيوف العرب فيساحاتنا — مشحوذة سلت من الأغماد
والشرق يبعث نهضة وثابة — يبني طريق المجد فوق تلاد

أما فلسطين، فقد عاش شاعرنا المرحوم محنتها في ليله ونهاره، في سرائه وضرائه، في فرحه وترحه، وكنا نرى كيف تشتد أوتار قلبه ويتهدج صوته وتسيل دموعه عندما ينشد :

إيه أيار كم أثرْت دفينا — من خطوب تفتت الجلمودا
يوم حلت بموطني وبلادي — نكبة خلفت ليالي سودا

إلى أن يقول :

هل أرى للفداء جيشا سيمضي لخلاص الحمى يفل القيودا
إن فجر الخلاص يشرق أما — وحد الخطب أمتي توحيدا

ويقول :

أمة العروبة والإسلام قاطبة — تنبهوا واحذروا مما يكيدونا
إن كان من جولة أخرى سنضرمها — لابد من وحدة كبرى تؤاخينا

وهنا لابد لي أن أتوقف، لأنني أخشى إذا ما استرسلت في إيقاظ الذكريات أن أشعر القارئ بأني أكتب تحليلا

لديوان أبي الوضاح «خلجات قلب»، وأني لست كذلك، ولست بفاعل ذلك، لأن «خلجات قلب» محيط من شعر الوطنيات والروحانيات والوجدانيات والاجتماعيات أوسع من أن تخضع لتحليل عابر، هذا إذا كان لأحدنا القدرة على أن يقوم بذلك! فأنا لست بمفسر أو محلل أو معرف بهذا الديوان الموسوعة، وكل ما أفعله في هذه العجالة هو أنني أستجيب لرغبة الأخت العزيزة «أم الوضاح» في أن أقدم لهذا الديوان من منطلق صداقتي وزمالتي لرفيق العمر «أبي الوضاح». لقد كان الشاعر، رحمه الله، معْلما شامخا يدل عليه كل من يقرأ ديوانه «خلجات قلب».

القسم الرهيب !

نظمت على دفعتين، القسم الأول إثر نكبة عام 1948، والثاني إثر نكبة 1967 لتخليد ذكرى المدن والمواقع التي احتلها الغاصبون في كل نكبة.

فرق الفدا بشرعة الأحرار ... في بأسها قدر على الأقدار
في زند كل فتى لهيب ثائر ... يشتد إعصارا على الإعصار
هو عدة الوطن الجريح، وبسمة الـ ... أمل الفسيح، ومعدن الإيثار
صقلته أيد حرة عربية ... بيد الحمى كالمرهف البتار
وسلاحه علم ينير سبيله ... بيراعه، أو بالقنا الخطار
ما روضته لغير إدراك العلا ... فكأنه والمجد في مضمار !!
هذا الشباب تجمعت فيه مآ ... ثر وثبة مرموقة الآثار
من تربة العرب الأباة أصوله ... وفروعه من «خولة» و «ضرار»
ومن «الكرامة» صاغ روح نضاله ... ثورية الإعصار والتيار
أهدته سفر المجد لم يشهد له ... التاريخ أمثالا من الأسفار
من يوم دحر المعتدين سطور ... خطت بنور المجد في الأنصار !!

* * * * *

يوم "الكرامة" ما أجل فخاره ... بين المعارك من سنى "ذي قار"
يوم أغر به بداية ثأرنا ... من مجرم لا يرعوي غدار
فرق الفداء رعتك أيد برة ... للثأر قومي وغسل العار
لهفي "فلسطين" الجريح لكم بلا ... ها "الغرب" بالشذاذ والأضرار
كم ناضلت تبغي الحياة كريمة ... كم ردت العادي على الأدبار
مهرت دماء الثائرين سخية ... لا ترتضي إلا بأخذ الثار
يا نصف "أيار" وهذا عهدنا ... قسم تفجر من لظى أيار
أقسمت يا شهر المآسي يا "حزي ... ران" الكئيب على الحمى والدار
"بالقدس" بالأبطال، بل "بالرملة الب ... يضاء"، بالأنجاد، بالأغوار
"بالمسجد الأقصى"، و "صخرة أحمد" ... ألا نام على أذى الأشرار
"وبيت لحم"، وبالمسيح رسولها، ... وجوارها، و"خليلنا" المغوار
قسما "بناصرة" البتوك وشبلها، ... قسما "ببئر السبع" والتزآر

قسما "بيافا" بالمروج الخضر ، بالجنات ، بالشطآن ، بالأنهار
قسما "بحيفا" "بالجليل" بكل شبـ ر منه ، بالشهداء ، بالأبرار
قسما بأرض "طاب ريا" مائها ، وربوع «بيسان» وترب نضار
قسما "بعكا" ، "بالخليج" ، بتبره ، والصيد من «صفد» حماة الدار
قسما "بحطين" وتربة كل حر طيب النفحات في الأسحار
قسما "بنابلس" الأباة وبالليو ث الشوس من جبل العلا والنار
قسما "بجنين" ، وبأس جهادها و"بطولكرم" الصفوة الأخيار
قسما "بلد" في صلابة عودها و"المجدل" الغناء بالأطيار
قسما "بغزة هاشم" وحماتها "وبخان يونس" معقل الأحرار
قسما "برام الله" في عليائها و "ببيرة" العزمات والأبرار
قسما "بنهر" قد تقدس ماؤه بدم الجهاد ولمسة الأطهار
بك يا "أريحا" يا عروس الزهر يا نجوى "البحيرة" منتدى السمار
قسما بكل مجاهد متوثب للموت في يوم الكريهة خيار
آليت يا "قلقيليا" وخضابها الوردي يعف من دم الثوار
لا بد من تحطيم "إسرائيل" في غدنا القريب بجحفل جرار ! !
بالصيد من فرق الفداء كأنهم جن تلهب باللظى الموار
صوت القنابل والمدافع عندهم أشهى من المزمار والقيثار
سنركز الرايا تخفق بالمنى زحفا إلى «فردوسنا» المعطار
و"الغرب" مهما حال دون مرامنا سنذله بمشيئة القهار
بشبابنا ، بالناقمين على الطغا ة ، بشعبنا ، بالعزم ، بالإصرار
بالعائدين الزاحفين كأنهم جن تلظى مارجا من نار
من خلفهم جيش العروبة ناصرا إخوانه في سحق الاستعمار
صرح التحرر إن تخضب لونه ما احمر إلا من دم الأحرار ! !

سلامة خليل إبراهيم خليل

١٩٠٩ – ١٩٨٢

إعداد : أ. ساجي سلامة

سلامة خليل إبراهيم خليل

- مكان الولادة: قرية الطيبة (طيبة بني صعب) – المثلث – قرب طولكرم.
- تاريخ الميلاد 1909.
- توفي في مدينة البيرة بتاريخ 1982/2/28.

كانت مهنة التربية والتعليم هي المهنة الوحيدة التي كرس لها سلامة خليل كل حياته. لقد أنهى سلامة خليل دراسته الابتدائية سنة 1923 في مدرسة طولكرم للبنين، حيث كان يذهب يوميا مشيا على الأقدام من قريته الطيبة إلى مدينة طولكرم. وأكمل دراسته الثانوية في المدرسة الصلاحية في مدينة نابلس عام 1926. وانتقل بعد ذلك إلى الكلية العربية في القدس حيث حصل على شهادة المترك الفلسطيني عام 1928. وفي العام 1929 حصل على شهادة دار المعلمين من الكلية نفسها. وفي العام 1946 اجتاز بتفوق امتحان التربية العالي / القسم الثاني.

انخرط سلامة خليل في سلك التعليم منذ بداية حياته المهنية، فقد عين معلما للغة الإنجليزية في المدرسة الصلاحية في مدينة نابلس، وذلك في العام 1929، وظل يعمل في تلك المدرسة حتى العام 1933.

يقول الكاتب والصحفي الأستاذ محمود يعيش عن تلك الفترة «كان سلامة خليل يدرس طلابه بإخلاص، ويعمل على نقل مهارة اللغة الإنكليزية وأسلوب نطقها، ويشرح لهم بكل تفان معاني المصطلحات ودلالاتها. فكنا نراه يحرق أعصابه لينير لطلابه طريقة التعبير عن اللغة وكيفية فهمها. وكان يأتي في الدرس التالي ليطلب منهم القراءة، فإذا أخطأ أحد منهم تراه يثور، ويجول يلقي العظات عن المستقبل وواجباته ومسؤولياتهم تجاه بلدهم وما ينتظر البلد من تحديات ومؤامرات، كأنه يطالع الغيب من بعد سنين طويلة. واستمر على هذه الطريقة حتى اندمج درس اللغة الإنكليزية بدرس الوطنية».

ويضيف الأستاذ محمود يعيش «وفي إحدى السنين حين علم المواطنون بوعد بلفور قام طلاب صفه بالخروج من المدرسة حاملين الأعلام هاتفين بسقوط هذا الوعد وصاحبه، حتى وصلوا إلى كلية النجاح، حيث خرج طلابها واشتركوا بالمظاهرة التي أقفلت بسببها نابلس. ولدى هدوء الحالة، وبعد عدة أيام حضر للمدرسة مدير التربية والتعليم العام من القدس (مستر فرل) يصحبه أربعة من البوليس الإنكليزي، وطلب من مدير المدرسة الأستاذ علاء الدين حلاوة أنه يفسح لهم المجال لتربية هؤلاء الطلاب المشاغبين، فرفض مدير المدرسة وقدم استقالته. ولكن فرل وجماعته اندفعوا إلى الصف الذي اتهموا طلابه بتنظيم المظاهرة، وانقضوا على الطلاب شاهرين أسلحتهم. وقد تصدى لهم سلامة خليل الذي حاول منعهم، ولكنهم تغلبوا عليه وتمكنوا من الدخول إلى الصف، وبدؤوا بضرب الطلاب، مما حدا بالطلاب إلى الرد

والتمرد والخروج من المدرسة في مظاهرة صاخبة، مما اضطر فرل وجماعته إلى الهرب من مدينة نابلس. وقد قدم سلامة خليل استقالته إثر ذلك احتجاجا على ما حصل، غير هياب لما قد يجري له متحملا تبعة ذلك». (صحيفة الشعب العدد 912 بتاريخ 1982/3/1)

وفي الأعوام 1934 وحتى العام 1944 عمل سلامة خليل مديرا لمدرسة قلقيلية ومدرسا للغة الإنكليزية فيها. فكان مثالا للإخلاص والنظام والانضباط. وقد عرفه طلاب المنطقة والأهالي كإنسان متفان؛ لا يعرف الكلل، يتحلى بالاستقامة والحرص على غرس القيم التربوية وقيم المثابرة في التعلم، وفي العمل، واحترام النظام وخدمة المصلحة العامة. وكان له في مدينة قلقيلة كثير من الصلات والعلاقات الحميمة مع الحمائل والعائلات والشباب وشيوخ المدينة، وحظي باحترام ومحبة الجميع في المدينة والمنطقة.

وفي الأعوام 1942 وحتى 1948 عين مديرا لمدرسة ثانوية المجدل ومدرسا للغة الإنكليزية فيها، إلى أن سقطت المدينة في أيدي الاحتلال الصهيوني. فالتحق سلامة خليل بصفوف الجيش العراقي برتبة ضابط متطوع وظل فيه إلى أن سقطت فلسطين وحدثت النكبة. فانتقل إلى قطاع غزة الذي كان خاضعا لسيطرة القوات المصرية.

وفي قطاع غزة عمل سلامة خليل مساعدا لمدير التربية والتعليم في القطاع. واستمر في عمله من العام 1948 وحتى العام 1952. يقول مدير التعليم في قطاع غزة الجنرال أحمد إسماعيل عنه «كان طوال مدة عمله نشيطا مخلصا أمينا حسن التصرف في كل ما يوكل له من الأعمال التربوية والإدارية والفنية».

وبعد ذلك انتقل سلامة خليل وعائلته بحرا إلى مدينة بيروت، ومنها مرورا بسوريا إلى الأردن. واستقر في مدينة طولكرم في الضفة الغربية، حيث اشتغل معلما للغة الإنكليزية في المدرسة الفاضلية مدة عام واحد من 1953/1/1 وحتى 1954/3/31 انتقل بعدها للعمل في وكالة الغوث الدولية UNRWA في منصب نائب مدير التعليم. وبقي في هذا المنصب من 1954/4/1 وحتى 1960/8/19.

تميز سلامة خليل في نطاق عمله في إدارة التعليم بوكالة الغوث بقدرته على رسم السياسة التعليمية والتربوية في مدارس الوكالة. تلك السياسة التي اتسمت بالحرص على إحداث التوازن بين مهمة نشر التعليم الأكاديمي بمستوياته المختلفة، وتطوير المعرفة بالعلوم الأساسية لدى الطلاب، وبين تعميق الثقافة والوعي وتنمية الإحساس بالمسؤولية الوطنية لدى التلاميذ والمعلمين.

وقد ساهم سلامة خليل في وضع نظام ومناهج التعليم، ومتابعة تطويره باستمرار، لمواكبة تقدم المعرفة والعلوم في الدول الأخرى. كما ساهم في إنشاء مدارس الوكالة في قطاع غزة والضفة الغربية، وصياغة النظم الإدارية والتربوية التي تكفل إقامة نظام تعليمي مستقر في كافة مستويات التعليم.

وقد تضمنت اهتمامات سلامة خليل ومتابعاته مجالات كثيرة منها إعداد وتأهيل الطاقات البشرية اللازمة لإدارة العملية التربوية، وتأهيل وتدريب المعلمين والمعلمات غير المؤهلين في المراحل التعليمية

الثلاث، وإنجاز خطط تأهيل كاملة لتحقيق ذلك. وكذلك تدريب معلمي المدارس الثانوية الجامعيين ومعلمي المعاهد غير المؤهلين، وعقد دورات في الإدارة التربوية للمديرين، ووضع الخطط لزيادة إقبال الطلاب على المدارس المهنية، وإنشاء المراكز المهنية لإعداد الطلاب الذين يرسبون في امتحان الشهادة الثانوية والإعدادية، والارتقاء بمستوى الإرشاد المدرسي والاهتمام بتعليم الكبار ومحو الأمية.

كما أعطى اهتماما كبيرا بتطوير التعليم المهني والزراعي والصناعي. وعمل من أجل تحسين قدرات المعلمين وتلبية متطلباتهم.وساهم في تأسيس لجان المعلمين لحماية مصالحهم والدفاع عن حقوقهم. واهتم بتطوير أوضاع المدارس من حيث توسيع بناء المدارس وتجهيزها بالمختبرات والوسائل التعليمية وتوفير الكتب اللازمة لها.

وبعدما قطع شوطا طويلا في تأسيس ورعاية العملية التعليمية في صفوف اللاجئين، خصوصا فيما يتعلق بالمراحل التعليمية الثلاث، انتقل سلامة خليل إلى مجال تأهيل وتدريب المعلمين. حيث انتدب لتأسيس وإدارة مركز تدريب المعلمين التابع لـ UNARWA في رام الله. وبقي مديرا لهذا المركز من 1960/8/19 وحتى 1967/2/9.

وفي حزيران من العام 1967، بعد احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة من قبل القوات الإسرائيلية، عين سلامة خليل مديرا عاما للتعليم في وكالة الغوث الدولية. واستمر في هذا الموقع إلى أن تقاعد في 1973/12/20 بعد 45 عاما من الجهد والعطاء المتواصل في مجال تربية الأجيال وخدمة العملية التربوية والتعليمية.

في رسالته التي وجهها إلى سلامة خليل بمناسبة تقاعده يقول المفوض العام لوكالة الغوث الدولية السيد جي. أس. رينيه Rennie «عندما كنت أحضر جلسة الجمعية العمومية للأمم المتحدة قرأت خبر تقاعدكم، ولم أستطع أن أفوت الفرصة بدون أن أقدم لك شكري وشكر أصدقائك وزملائك العديدين في الـ UNRWA على السنوات التي كرستها للعمل في الوكالة. ويحق لك أن تفخر بالسجل الحافل الذي خلفته في مجال التعليم في كافة المواقع التي عملت بها. وأشير بشكل خاص إلى الدور الصعب الذي قمت به في إدارة العملية التعليمية في ظروف الاحتلال العسكري القاسية. (رسالته بتاريخ 1974/1/22).

ويقول مدير عمليات الوكالة في الضفة الغربية السيد بي. كيه. هاي كوك P، . K. Haycock «بمناسبة قرب انتهاء مدة خدمتكم أود أن أتقدم منك بالشكر على الخدمات الثمينة التي قدمتها خلال فترة عملك في مجال التعليم. لقد قمت بواجبك على أحسن وجه في خدمة الأطفال والشباب من أبناء المجتمع الفلسطيني. واسمح لي أن أكرر شكري على جهودك المخلصة والمتواصلة التي بذلتها على امتداد سنوات عملك الطويلة».(رسالته بتاريخ 1973/12/31)

أما مدير قسم التعليم في اليونسكو السيد أس. آر. سامادي S، . R، Samady فيقول: «اسمح لي بمناسبة اقتراب موعد تقاعدكم أن أسجل لكم، وأعبر لكم شخصيا، وباسم قسم الكلية عن تقديري

لخدماتكم. إن أبرز المواقع التي تميزكم بها في خدماتكم التعليمية هي إدارتكم لمعهد تدريب المعلمين، وكذلك دوركم كمدير للتعليم في الضفة الغربية. لقد اتسم عملكم بالمقدرة العالية وتكريس الذات للعمل والإحساس العالي بالمسؤولية، لذلك، فإنني باسمي وباسم القسم، أود أن أشكركم، وأعبر لكم عن الامتنان على سنوات خدمتكم وجهودكم».

(رسالته بتاريخ 1973/12/26)

وتقول السيدة سبأ عرفات نائبة مدير التعليم في وكالة الغوث خلال حفل الوداع الحاشد الذي أقامه موظفو الوكالة لوداع سلامة خليل: «يسعدني أن أتكلم باسم موظفي التربية والتعليم في الوكالة : لقد اقترن اسم سلامة خليل بالتربية منذ أربعين سنة، فقد تلقى تعليمه العالي في الكلية العربية في القدس، ذلك المعهد الشهير الذي تخرج فيه عدد كبير من رجالات التربية لفلسطين. وانخرط منذ بداية شبابه في العملية التعليمية حيث خدمها بكل تفان، وأغناها بخبرته، وعززها بحسن اطلاعه، وشد أواصرها بوضعه مصلحة التربية فوق كل مصلحة أخرى.

إن السجل الرسمي لسلامة خليل الحافل بالإنجازات لا يفي الرجل حقه، ولا يشير إلى مزاياه الخلقية. فقد اتخذ السيد سلامة خليل من الاستقامة نهجا وكان جريئا في قول الحق، وتمسك بالمبدأ في وجه كل التحديات...».

وفي ذات الحفل ألقى الأستاذ الشاعر كمال الريماوي قصيدة جاء فيها :

جئنا نودع أياما محببة — قضيتها بيننا ، مرت ولم تطل
جئنا نودع إنسانا له صفة — في الاستقامة كالآباء والأول
أبا خليل لقد قمتم بدوركم — حق القيام وكنتم مشعل السبل
سيشكر الجيل أفضالا تحرره — من الخيام وعيش البؤس والخجل
سيذكرون الذي لولا إدارته — وحزمه لقضوا في الجهل كالرسل
هذي مدارسنا فاقت بهمتكم — حتى غدا مستواها مضرب المثل
لقد وضعتهم إلى الأجيال خطتكم — حكيمة نسقت في أحسن الحلل

■ وألقى سلامة خليل كلمة في الحفل جاء فيها :

«باشرت عملي في وكالة الغوث في 1954/4/1. وكنت آمل أنه عندما يحين موعد توقفي عن العمل يكون شعبي عندئذ قد استغنى عن جميع أنواع الإغاثة بأشكالها وألوانها. كنت آمل، أيها الأخوة، أنني عندما أترك عملي يكون أفراد شعبنا المتمزق قد التأم شملهم على أرض وطنهم وفي ديارهم وأحاط الأبناء بالآباء ليمنحوهم الحنان والرعاية ويقدموا لهم كل خدمة ومساعدة، ولكن ذلك لم يحدث..

ولا يسعني في هذه المناسبة إلا أن أؤكد لكم اطمئناني بأن التعليم، بجميع أقسامه وفروعه ومدارسه، هو في أيد أمنية، فمعاهد التدريب والمدارس ابتدائية وإعدادية هي حلقات متماسكة قوية يشد بعضها بعضا، والتعليم فيها مزدهر. وأني لأرجو لكل عناصر العملية التعليمية الطيبة استمرار الرفعة والتوفيق. إنكم، أيتها الأخوات والأخوة، أهلي وعشيرتي، عشت بينكم مدة طويلة ما كان أحلاها على قلبي...».

«إن بشائر الفرح قد بدأت تلوح في الأفق، وأن غدنا سيكون أفضل من أمسنا، وأتمنى أن يحقق الله

لشعبنا كل ما يصبو له من حرية واستقرار، استودعكم الله، والله معكم، والسلام عليكم».

لقد انتشر مئات من الخريجين الذين تتلمذوا على يد سلامة خليل في أنحاء المعمورة، ينشرون العلم، وينقلون الخبرة التي راكموها في مراكز العلم والتأهيل التي أشرف عليها وأدارها سلامة خليل. ولم ينس هؤلاء الخريجون أستاذهم، فكانوا ينتهزون كل فرصة كي يعبروا عن تقديرهم له وإقرارهم بدوره وامتنانهم بجهوده. ففي رسالته إلى سلامة خليل يقول سالم عبد الرحيم عيد (1965/9/14) :

«أكتب لك من حضرموت – القطن – مدرسة القطن الوسطى :

الأب العزيز: لقد أحسست حينما تخرجنا من المركز أننا تزودنا بما يلزمنا في حياتنا العملية، وأنه أصبح عندنا مناعة ضد عوائق الدهر ومصاعبه، وكان المركز، بحق، وبفضل رعايتكم، مصنعا للرجال ومحطا للشدائد، ومختبرا للنفوس. إن كل ما أرجوه منكم أن تواصلوا عملكم الإنساني الجليل...».

ويقول الخريج حسن إسماعيل محمود في رسالة إلى سلامة خليل مؤرخة 95/11/17 «تحية ملؤها الإكبار والتقدير أبعثها لشخصكم الكريم الذي لم يترك فرصة ألا استثمرها في خلق شيء جديد عاملا على رفع مستوانا التعليمي وتهيئتنا لحياة الغد. ولا أغالي أن قلت إن مثلك يا أبا خليل، من إذا وضع يده على أمر، لا يلتفت إلى الوراء. لقد آثرت البقاء في مهنة التربية والتعليم لتكون ممن وهبوا حياتهم لتأدية الواجب المقدس نحونا. هذا وأنني أحمد الله، مرتاح في عملي في مدرسة الشونة الشمالية. وتحياتنا للهيئة الإدارية بكاملها».

ويقول الخريج أحمد نزال أبو غيث في رسالة له من السعودية – جيزان – مدرسة العارضة الابتدائية: «حضرة المربي الكبير، والأستاذ سلامة خليل المحترم، تحية طيبة،

انتهز فرصة حلول عيد الفطر المبارك لأبعث إليكم بهذه الرسالة... أستاذي الكريم إن نسيت فلن أنسى نصحكم وإرشادكم لنا لما أبديتم لي من مساعدة ورعاية أثناء مكوثي في المستشفى، فقد كنت الأب الرحيم لابنه الذي تهمه مصلحة ابنه. الآن صحتي ممتازة، وأقوم بواجبي على أتم وجه من غير إجهاد، وأخيرا أتمنى لكم عيدا سعيدا».

ويقول الخريج عبد الرحمن أحمد المشط في رسالة من السعودية – جيزان – مدرسة العارضة الابتدائية بتاريخ 85/9/16هـ 1966/1/7 :

«سلام وتحية ومحبة من ابن لأبيه.. إنني أشكركم، وأتمنى لكم البقاء ودوام الصحة الجيدة، وذلك لحرصكم الشديد على أبناء معهدكم العالي الذين يعرفون تماما المعرفة كيف يتحملون المسؤولية، ويقومون بأدائها على خير ما يرام، ومرجع هذا جهودكم وسهركم ونصائحكم التي لا أنساها ما دمت تم قيد الحياة».

ويقول الخريج أحمد يوسف منصور في رسالة له من السعودية – مؤرخة 1965/12/10 :

«أكتب لكم هذه الرسالة من منطقة تدعي الباحة، تبعد حوالي 200 كم إلى الجنوب من الطائف. ابدأ رسالتي بالتحية والتقدير. إنني لم أنس أحلى وأبهج أيام حياتي الدراسية في المعهد الذي أدرتموه بكل اقتدار...».

وفي رسالة من مديرة ومعلمات مدرسة نور شمس الإعدادية للبنات مؤرخة بتاريخ 1973/12/24 تقول مديرة المدرسة :

«كم يؤلمنا أن يتخلى عن الأخذ بيدنا رجل صناعته إبقاء الشموع في الطريق المظلم الطويل، وكم يؤلمنا أن لا نصافحك بدأ بيد مهنئين أنفسنا أننا عشنا زمنا في ظل من التضحية والجدية والتفاني في سبيل هذا الشعب البطل. إن اسمك يوقظ فينا الشعور بوجوب مضاعفة الجهد ومحاولة الإبداع كي يكون عملنا متناسبا مع المستقبل الذي نرتجيه، لك منا أطيب الأماني».

ويقول صلاح حنون مدير مدرسة ذكور نور شمس الإعدادية في رسالة له بتاريخ 1973/12/24 :

«اليوم أتيحت لنا هذه اللحظة، لحظة الاعتراف بالجميل والجليل من أعمالك. أحب أن أطمئنك أن البناء الذي كنت من مؤسسيه قد ارتفع بعد أن رسخت أركانه بالجهد والبذل المتواصلين. كما أحب أن أذكرك بأن مدارس الوكالة في عهدك استطاعت أن تثبت جدارتها رغم الصعوبات والآلام والظروف القاسية.وأن الجيل الذي نشطت في بنائه هو جيل نشيط وفعال ومؤثر، وعلى أكتافه سيقوم المستقبل المنتظر. وكفاك بهذين الأمرين فخرا وسعادة».

ويقول محمود غبيش عن سلامة خليل في الاحتفال الذي أقيم لتكريمه بمناسبة تقاعده :

«باسم اللجنة التنفيذية المؤقتة لجمعية موظفي الوكالة في الضفة الغربية أحييكم، لقد عمل «أبو خليل» في ميدان التربية والتعليم. هذا الميدان الإنساني الجليل قبل نكبة فلسطين. كان أحد الرواد المخلصين في هذا الميدان. عرف فضائله الكثيرون من أبناء شعبنا الفلسطيني الذين أصبحوا فيها من بعد قادة هذا الشعب وأعمدة قوية في بنيانه. كان أبو خليل عاملا شريفا، وقائدا رائدا حمل الراية في أشرف الميادين. وكان لخدماته الممتازة أفضل الأثر في نشر الوعي وتأمين مستقبل أفضل للأجيال المضيعة من أبناء شعبنا».

ويقول الدكتور عرفات الهدمي رئيس لجنة موظفي الوكالة :

«إذا كان الله، عز وجل، قد خص الأستاذ سلامة خليل بهذا الدور الإنساني البناء، فإن أبا خليل قد عاش الأمل والألم والنكبة والبناء بكل عقله وقلبه وتطلعاته، وهو ينظر إلى الماضي بعين ملؤها الفخر والاعتزاز لما استطاع أن يقدمه للأجيال الصاعدة في حقل التربية والتعليم، وإلى المستقبل بقلب كبير يرعى كل تلاميذه، وما أكثرهم، وهم يبنون للمستقبل».

وفي رسالة من الكويت مؤرخة 1965/10/15 – مدرسة القادسية المتوسطة، يقول الخريج عفيف عبد الرحمن :

«تحية اعتراف بما لاقيته في العام الدراسي الماضي من رعاية واحترام وتقدير، وما لمسناه من إخلاص وتفان في العمل لمصلحة هذا الجيل. فأرجوا أن تصلكم رسالتي هذه وأنتم والأسرة بصحة جيدة. إنني أدرس الآن في مدرسة القادسية المتوسطة، وهي مدرسة ضخمة جدا من حيث البناء، فيها 4 صفوف متوسطة، وتضم 24 فصلا وبها خمسون مدرسا...».

ومن «أبو ظبي» من المدرسة الفلاحية يكتب الخريج خليل عبد الفتاح عرار إلى سلامة خليل بتاريخ 1965/4/3 :

«أستاذي العزيز، لقد رسمتم لنا طريق النجاح في الحياة، وسلحتمونا بسلاح العلم والأدب، وثبتم في نفوسنا روح العمل والإخلاص فيما نقوم به. وقد أحببتم فينا أن نكون ناطقين عالمين، ومصغين واعين، وداعين فاعلين، وقد سرنا على نهج خبرتكم الطويلة وحملنا نصائحكم في قلوبنا، واسترشدنا بأقوالكم الحكيمة.. في المركز وخارجه، وسنبقى إن شاء الله سائرين على هذا النحو».

وقد ظلت صلة سلامة خليل مع تلاميذه قوية وفعالة ومتواصلة حتى بعد تخرجهم وانخراطهم في مهنة التعليم والتربية. لقد حافظ هؤلاء الخريجون على علاقة ملؤها الوفاء والتقدير لأستاذهم مهما بعدت المسافة بينه وبينهم.

وبتاريخ 1980/5/13 وتقديرا من حكومة المملكة الأردنية الهاشمية للدور التربوي المتميز الذي قام به المربي سلامة خليل، قررت الحكومة الأردنية منحه وسام التربية والتعليم من الدرجة الأولى.

عبد الرحمن بارود

عن فلسطين اليوم التي تصدر عن
مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات (بتصرف)

المحرر

٤٢٧

عبد الرحمن بارود

النشأة[1]

توفي الدكتور الشاعر عبد الرحمن بارود، أحد مؤسسي جماعة الإخوان المسلمين بفلسطين، صباح يوم السبت 2010/4/17 في أحد المستشفيات السعودية.

وكان بارود قد ولد سنة 1937م، في قرية بيت داراس، إحدى قرى اللواء الجنوبي (لواء غزة). وهاجر مع أسرته، وهو في الحادية عشرة من عمره، بعد أن احتلت العصابات الصهيونية قريته، سنة 1948م، إلى قطاع غزة، حيث استقروا في معسكر جباليا للاجئين، شماليَّ القطاع.

تعلم في مدرسة قريته بيت داراس شيئاً من التعليم الابتدائي، ثم أكمل تعليمه الابتدائي في مدارس وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين الابتدائية بالقطاع، ثم أكمل دراسته الثانوية في مدرسة فلسطين الثانوية بغزة، حيث حصل على الشهادة الثانوية العامة (التي كانت تعرف بالتوجيهي)، القسم الأدبي، في أواخر العام الدراسي -1954 1955. وكان طيلة مراحل الدراسة من أوائل الطلاب.

عمل بارود، بعد حصوله على شهادة الثانوية العامة، مدرساً في مدارس اللاجئين بقطاع غزة لعدة أشهر، ثم بُعث على حساب وكالة الأونروا إلى مصر، ليكمل دراسته الجامعية، في كلية الآداب بجامعة القاهرة، حيث حصل منها سنة 1959، على درجة الليسانس الممتازة في اللغة العربية وآدابها، بتقدير «جيد جداً» مع مرتبة الشرف، وكان ترتيبه الأول على الدفعة بلا منازع. وبدأ دراسة الماجستير في ذات التخصص، بمنحة دراسية من جامعة القاهرة، كأفضل طالب من الطلاب الوافدين، فنال درجة الماجستير بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى، في أواخر عام 1962. ثم بدأ دراسة الدكتوراه، في نفس التخصص وبنفس المنحة، حيث حصل على شهادة الدكتوراه في الأدب العربي بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى سنة 1972. ثم تعاقد، في نفس السنة، للعمل في التدريس بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، وبقي فيها إلى أن تقاعد في سنة 2002.

وفي جامعة الملك عبد العزيز بمدينة جدة عمل بارود أستاذاً للثقافة الإسلامية، ووفّقه الله سبحانه لأداء دور كريم في جامعته، حيث غرس في طلابه أعمق معاني الانتماء للإسلام، معززاً كل مكرمات رسالة الإسلام العظيم، داحضاً كل الافتراءات التي يشيعها أعداء هذا الدين، وكان في فكره النيّر وسلوكه المميز خير أسوة لأبنائه وإخوانه الطلاب.

وفي الوقت نفسه عاش شاعرنا مجاهداً لدينه، خادماً للحركة الجهادية في فلسطين.. كيف لا وهو الذي عاش فترة طويلة من عمره مع شيخ الانتفاضة الشيخ أحمد ياسين رحمه الله، فهو مثل الشيخ ياسين من أبناء معسكر شاطئ غزة ومن ساكنيه، وهما كلاهما ممن رضعوا لبان الحركة الإسلامية منذ صباهما.

1- المراجع:

- موقع إخوان أون لاين، 2010/4/17، انظر:
- http://www.ikhwanonline.com/Article.asp?ArtID=63513&SecID=450
- موقع الشاعر الدكتور عبد الرحمن بارود، افتتاحية الموقع، انظر:http://www.dr-barood.net/index.php
- أسامة الأشقر، الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر الدكتور عبد الرحمن بارود، سلسلة الأعمال الكاملة (2) (دمشق: مؤسسة فلسطين للثقافة، 2010)، ص 7-8 و21-22 و40-41.

أما قوله الشعر، فقد بدأ في مرحلة متقدمة من صباه، حسب ما يذكر د. محمد صيام، ولا نبالغ إذا قلنا إنه قد قال الشعر في المرحلة الابتدائية من دراسته. وكانت مدرسة فلسطين الثانوية بغزة، تعج بالنشاط الأدبي، وكان الأستاذ رامز فاخرة (رحمه الله) مدرسنا للغة العربية، فكان يعقد لنا ندوة شعرية دورية، ليشجعنا على قول الشعر، وكان عبد الرحمن بارود، يحوز قصب السبق دائماً.

ولقد تأثر بارود بقضية بلاده فلسطين أيَّما تأثر، وتفاعل معها أيما تفاعل. وآمن بأن الطريق لاستعادة الوطن السليب، لا يكون إلاَّ بالعودة إلى الإسلام، فلا يصلح آخر هذه الأمة إلاَّ بما صلح به أولها، فالتزم الإسلام عقيدة وسلوكاً ومنهجاً للحياة، وقد ظهر ذلك جليًّا في أشعاره، وبرز واضحاً فيما يُستقى من صوره وأفكاره، وقد جرَّ هذا المسلك عليه متاعب جمَّة، ليس هنا مجال الحديث عنها.

ويقول الأستاذ عبد الرحمن عبد الله العَمَصِّي موجه التربية الإسلامية بدولة الإمارات بأنه سيرى من يقرأ شعر بارود من النقاد والمثقفين ومن الطلاب والدارسين أنهم أمام أمير من أمراء الشعر كما كان أساتذته في الجامعة يشهدون بذلك. وسيجدون أن شعره الجهادي الراقي الذي لم يطبع في ديوان حتى اليوم- يجلّي مكانه فارساً من فرسان الشعر الفلسطيني المقاوم بحق.

وعن نفسه يقول بارود

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وأصحابه ومن والاه. وبعد:

فقد ورثت عن والدي (أحمد جبريل بارود) رحمه الله العاطفة الجياشة التي هي ينبوع الشعر وقد غمرني بحبه وكان هو أمياً وصوفياً.

وقريتي (بيت دراس) قريبة من (عسقلان) من لواء (غزة) بجناتها وخيراتها رائعة الجمال ولا تزال منطبعة على قلبي. ولا أزال إلى يومنا هذا أراها في منامي عامرة بأهلها الكرام مع أني منذ عهد بعيد أطلال دارسة.

المرحلة الأولى من حياتي عشتها في تلك الجنة من جنات فلسطين وهي أحد عشر عاماً وكانت في ظل الاستعمار فحولنا مطار عسكري إنجليزي ومستعمرة (بير طوفيا) الصهيونية، ومعسكر (خسة) الإنجليزي. وإلى الغرب معسكر (٦٩) الإنجليزي وبجواره إلى الغرب (معسكر أبو جهم) الإنجليزي، ومستعمرة (نتسانيم) اليهودية وإلى الجنوب الشرقي (معسكر جولس) الإنجليزي. درست في القرية حتى منتصف الصف الخامس الابتدائي وقُبيل هجرتنا تعاون أهل القرية على بناء مدرسة جديدة جميلة حتى الصف السادس الابتدائي وقد نسفها اليهود. وقد رأيتها وهي منسوفة باكية وكتبها مبعثرة بين الأنقاض وقد أخذت أحدها وأظنه لتوفيق الحكيم. ولم أنظم في تلك المرحلة شعراً. أما هجرتنا من الوطن ورحيلنا وتشردنا فقد بدأت في الشهر الثالث أو الرابع من عام ١٩٤٨م بعد معركتين كبيرتين وكان ذلك قبل مجيء الجيش المصري . وقصة هجرتنا ملأى بالأهوال والعذاب.

أما مجمعته الشعرية الكاملة، والتي نشرتها مؤسسة فلسطين للثقافة مطلع العام 2010، فتقع في 383 صفحة، وتشتمل على مقدمة بقلم الشاعر، وتوطئة كتبها المدير العام لمؤسسة فلسطين للثقافة د. أسامة الأشقر، وتقديم بقلم رئيس رابطة علماء فلسطين في اليمن د. محمد الشيخ صيام، إضافة إلى مقدمة أخرى بقلم موجه التربية الإسلامية بدولة الإمارات عبد الرحمن الغمصي، إلى جانب صفحات عن بلدة بيت دراس بقلم د. بارود، و107 قصائد وملحق صور نادرة.

وفي ذلك تحدث د.أسامة الأشقر في افتتاحية الإصدار قائلا: «يحق لنا القول هاهنا أن الشاعر عبد الرحمن بارود ظلم نفسه من حيث أراد إرضاءها بتأخير تقديم فنه وأدبه للنخب الثقافية والجمهور الشاعر». وأشار إلى أن محيطه الشعري كان محدوداً مقصوراً على جملة من أصدقائه وإخوانه في دائرة علاقاته، بل إن كثيراً مما نُشر في شبكة الانترنت وبعض الدواوين المحتوية على بعض قصائده كان الفضل في نشرها لهؤلاء بإصرارهم.

حياته الجهادية والتنظيمية كما يرويها الشيخ محمد شمعة

وعن حياة د. عبد الرحمن بارود الجهادية والتنظيمية يتحدث زميله في المرحلة الابتدائية في مدرسة الفاخورة آنذاك أحد مؤسسي حركة الإخوان المسلمين في غزة الشيخ محمد حسن شمعة بوصفه بالمتميز نشاطاً ومشاركة. وقال شمعة لوكالة «صفا» مستحضراً تلك الأيام: «امتدت العلاقة بيننا عام 1953 بالمدرسة الثانوية، وكان الطلاب يستمعون إلى كلماته المعبرة خلال الفسحة الدراسية، وكان يعد المتحدث الرئيس باسم الطلاب في المدرسة».

وذكر شمعة أن بارود تم اعتقاله على يد السلطات المصرية خلال إعداده رسالة الدكتوراه، وحكم عليه بالسجن لمدة سبع سنوات، بتهمة جمع تبرعات لمساعدة عوائل الإخوان المسلمين، ولنشاطه البارز في صفوف الإخوان. وانتقل بارود بعد ذلك للعمل في جامعة الملك عبد العزيز بجدة بوظيفة أستاذ جامعي وقضى في الجامعة ما يقارب الثلاثين عاماً متنقلاً بين أقسام اللغة العربية والدراسات الإسلامية حيث تخرج على يديه الكثير من الطلاب والطالبات وكان له الكثير من المشاركات الأكاديمية والبحثية في هذه الفترة.

وتفرغ بعد ذلك للعمل العام حيث يقضي أغلب وقته في الكتابة وتأليف الشعر وله دور واضح وبارز ومؤثر في أوساط الجالية الفلسطينية في السعودية عموماً وفي جدة خصوصاً.

والتقى شمعة ببارود في مدينة جدة بعد الانسحاب الإسرائيلي من قطاع غزة عام 2005، حيث كان يناديه باستمرار (ابن صفي) وتبين أنه يعرف كل أخبار غزة بأدق حذافيرها، وكان مهتماً جداً بأحوال الإخوان في فلسطين.

وأكد شمعة أن بارود كان حريصاً جدا على وحدة الصف الفلسطيني، وكانت وصيته دوما لقيادة الإخوان وحركة حماس الرفق بإخوانهم في حركة فتح والتنظيمات الأخرى، داعياً باستمرار لحسن العلاقة والتواصل.

ولفت إلى أنه كان شاعراً مبدعاً، مهتماً بالقضية الفلسطينية، ويغمره حنين كبير وشوق عظيم لقريته التي هاجر منها، ولا يمل الحديث عنها لرفاقه وأقرانه.»

وكالة الصحافة الفلسطينية – صفا، 2010/4/17

نماذج من شعره[2]

لن نستطيع مهما أطلنا أن نجمع إلا نزراً يسيراً جدّاً من فيض عطائه الغزير، فبارود شاعر فحل مكثرٌ، وجلّ قصائده من المطولات، ولكنها ليست كأيّ مطولات، فكلما طالت القصيدة عند بارود تألقت أكثر، وشدّتك إليها أكثر، وأدخلتك في جوّها النفسي أكثر.

ويشير د. محمد صيام في تقديمه لكتاب الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر الدكتور عبد الرحمن بارود، إلى أن بارود مجد الإسلام في أشعاره، ورد على مهاجميه الأقزام. حيث يقول في قصيدة نظمها سنة 1967:

زَمْجري يَا رَايَةَ الله ارجعي ... واخْفقِي فَوْقَ صَحَارَانَا الحَبِيْبَةْ
واجْمَعِي أَشْتَاتَنَا فِي حَيِّنَا ... وافْذفِي المَوْتَ بِنَا وامْضِي مَهِيْبَةْ
وأعيدِيْنَا إِلَى أَيَّامِنَا ... حَيْثُ جِبْرِيْلُ عَلَى رَأْسِ الكَتِيْبَةْ
زَعَمَتْ شِرْذِمَةٌ مَنْبُوذَةٌ ... مِنْ صَعَالِيْكَ وأَبْوَاقٍ كَذُوبَةْ
أَنَّ قُرْآنَ الهُدَى مَاتَتْ عَلَى ... دَفَّتَيْهِ كُلُّ آمَالِ العُرُوبَةْ
فَابْتَرَتْ مَكْنُنَا شَامِخَةً ... تَصْهَلُ الخَيْلُ حَوَالَيْهَا غَضُوبَةْ
وغَدَا اليَرْمُوكُ مَوْجاً مُرْعِباً ... ورُؤىً حُمْراً وأَلْحَانَاً طَرُوبَةْ
نَحْنُ رِبِّيُّونَ ذَا مُصْحَفُنا ... يَعْرِفُ التَّارِيْخُ رَيَّاهُ وطِيْبَهْ

ويضيف د. صيام: «على أن الدكتور عبد الرحمن بارود، قد طَوَّقَ بشعره في مختلف الأنحاء، وحلَّق به في مختلف الأجواء، الأنحاء التي تخدم كلها قضية فلسطين، وقضية الإسلام والمسلمين. والأجواء التي يستنزل منها الرحمة من رب العالمين، على أهل فلسطين، والنصر على المجاهدين. فتحدث عن فلسطين، وعشق الوحدة بين أقطار الأمة، لأنها السبيل الوحيد، لطرد العدوان، واسترداد الأوطان. وقد مجَّد ما كان بين مصر وسوريا، من وحدة بين قطرين شقيقين، مقدمة للوحدة الكبرى، فقال في قصيدة ألقاها في الاحتفال بتلك الوحدة، في رابطة الطلاب الفلسطينيين، ونحن يومئذ طلاب في القاهرة يقول»:

يَا لَسِحْرِ الدُّولاَرِ ، والرُّوْبِلِ العَاتِيْ ، ويَا مَا قَدْ شَرَّدَا أَبْرِيَاءَ
بَرَدَى يَلْتَقِي مَعَ النِّيْلِ هَدَّارَيْنِ ، فَلْتَمْلأِ الدُّنَا أَعْدَاءَ

وذكر صيام أن بارود «كان حَدِباً على الأمة، يفرح لفرحها، ويأسى لتَرَحها، وها هو ذا يخاطبها بعد هزيمتها النكراء في حرب عام 1967م ، بقصيدة طويلة – تحدثنا عنها قبل قليل - يقول فيها»:

اِدْفِنِي قَتْلاَكِ وارْضَي بالمُصِيْبَةْ ... واذْهَبِيْ عاصِفَةَ اللَّيْلِ غَرِيْبَةْ
واقْبَعِيْ حَوْلَ الضَّحَايَا واذْكُرِيْ ... عُمُراً مُرًّا وأَوْطَاناً سَلِيْبَةْ
وادْخُلِي السِّجْنَ الَّذِي شَيَّدْتِهِ ... وتَوَارَيْ في الزَّنَازِيْنِ العَصِيْبَةْ

2- المراجع:

- الشيخ المجاهد المؤسس/ د. عبد الرحمن أحمد بارود «أبو حذيفة» المُلقب بشاعر المقاومة». موقع فلسطين الآن. انظر:
http://www.paltimes.net/arabic/read.php?news_id=111188
- أسامة الأشقر. الأعمال الشعرية الكاملة للشاعر الدكتور عبد الرحمن بارود. سلسلة الأعمال الكاملة (2) (دمشق: مؤسسة فلسطين للثقافة، 2010)، ص 23-29.

زِارْمُقِي المَجْدَ الَّذي حَطَّمْتَه ... وِاعْصُرِي القَلْبَ الَّذي خُنْت وَجِيْبَهْ
أَنْتِ ضَيَّعْتِ الرُّجُولاتِ سُدَى ... أَنْتِ أَطْلَقْتِ يَدَ البَغْيِ الخَصِيْبَهْ

ويشير صيام إلى أن «بارود لم ينس في شعره جرائم المحتلين المجرمين، وما يقومون به من مجازر ليس فقط في البشر، ولكن أيضاً في الحجر والشجر. فتحدث عن شجر الزيتون، ونعى على أولئك الغاشمين، ما يفعلونه بهذا الشجر الثمين، تنفيساً عن حقدهم الدفين، وذلك في قصيدة نظمها في جدة»، في 1408/8/27هـ - 1988/4/14م، وفيها بقول:

وِيَقْتَلِعُ الزَّيْتُونَ شُلَّتْ يَمِيْنُه ... وِيَغْرِسُ في كُلِّ البَسَاتِيْنِ غَرْقَدَا
لَكَ المَوْتُ فانْظُرْ كُلَّ زَيْتُونَةٍ هَوَتْ ... فَقَدْ أَنْبَتَتْ تِسْعِيْنَ سَيْفاً مُهَنَّدَا
فَيَا أَيُّهَا السَّاقِي كُؤُوسَكَ أَحْصِهَا ... سَتُسْقَى كَمَا تَسْقِي إِنِ اليَوْمَ أَوْ غَدَا

وتحدث بارود عن التائهين على الدروب، وعن المجاهدين، وعن الشيخ أحمد ياسين، وعن العابثين الذين يتخذون من (هجوم السلام) طريقاً لحل القضية، فيرد عليهم بقصيدة رائعة، تحمل نفس العنوان (هجوم السلام) وقد نظمها في جدة في 1409/12/2هـ - 1989/7/5م – وفيها يقول:

يَا حَمَامَ السَّلاَمِ عُدْ يَا حَمَامُ ... لاَ يَفُلُّ الحُسَامَ إلاَّ الحُسَامُ
فِي زَمَانِ الصُّقُورِ صِرْتُمْ حَمَاماً ... كَيْفَ يَحْيَى مَعَ الصُّقُورِ الحَمَامُ ؟ !
أَيُّ عُرْسٍ هَذَا تَزُفُّونَ مَاذَا ؟ ! ... وِلِمَاذَا يُطَبَّلُ الإِعْلاَمُ ؟ !
أَيُّهَا البَائِعُونَ حَيْفَا وِيَافَا ... أَهُجُومٌ هَذَا أَم اسْتِسْلاَمُ ؟ !
ثَكِلَتْ أُمُّكُمْ أَلَيْسَ لَدَيْكُمْ ... غَيْرُ (عَاشَ السَّلاَمُ– يَحْيَا السَّلاَمُ)؟ !
أَوَ غَيْرَ السَّاطُورِ يُبْصِرُ شَيْئاً ... تَاجِرُ البُنْدُقِيَّةِ اللَّحَّامُ ؟ !

ولم ينس الدكتور بارود الاستشهاديين، فاختار من بينهم (الشهيد سعيد الحوتري)، وقال على لسانه قصيدة طويلة منها:

أُمَحرِّقِي بِشُوَاظِ نَارِكَ ... خُذ نَصِيْبَكَ مِنْ حُرُوقِي
خُذْ هَذِهِ الأَقْسَاطَ ... واخْصُمْهَا مِنَ الدَّيْنِ العَتِيْقِ
سَجِّلْ لَدَيْكَ اسْمِي ... سَعِيْدٌ ، والأُلُوفُ عَلَى الطَّرِيْقِ

وفيها يقول أيضاً وعلى لسان (سعيد) كذلك (وقد جعل البرلمان الصهيوني - الكنيست) رمزاً لما أقام الصهاينة من أبنية على أرضنا الغالية، يقول:

شُدُّوا عَلَيَّ حِزَامَيَ ... الحَشْوَ بِالمَوْتِ الزُّؤَامِ
زِيْدُوهُ عَشْرَ قَنَابِلٍ ... فَاليَوْمَ يَوْمُ الإِنْتِقَامِ
أَشْوِي بِهِ فِي النَّارِ مَنْ ... بَنَوُا(الكِنِيْسَتَ) مِنْ عِظَامِي

وقد ألقى الشاعر هذه القصيدة في مهرجان (الجنادرية) السنوي السابع عشر، بالرياض، في شهر ربيع الأول 1422هـ - يونيو/ حزيران 2001م.

ويشير صيام إلى أن المقام قد يطول بنا إذا ذهبنا نستعرض المجالات، التي طوَّف د. بارود بشعره فيها. فهناك مجال اجتماعي تحدث فيه عن أمه وعن غير أمه، وهناك مجال تعليمي تحدث فيه عن مدرائه ومعلميه، وغير ذلك. ولهذا فسنكتفي، بالحديث عن ثلاث نقاط موجزة، من رحلته الشعرية المديدة، ونختم بها حديثنا هذا.

أما النقطة الأولى، فذكر صيام أنها النَّفَسَ الشعري عند د. بارود، نَفَسٌ طويل، ولذا فقد جاءت قصائده طويلة، لعل تخصصه في اللغة العربية - وفي الرَّجَز بالذات – كان يساعده على ذلك. وأصدق دليل على ما نقول، قصيدته العصماء، التي نظمها في رثاء د. عبد العزيز الرنتيسي (رحمه الله)، فقد بلغت تلك القصيدة مائةً وبضعةَ أبيات، وقد نظمها في جدَّة، في 1425/3/12هـ 2004/5/1، أي بعد استشهاد الرنتيسي ببضعة أيام، وهذه بعضٌ منها:

اكْتُبْ وشَلاَّلُ الدِّمَاء ... رَعْدٌ يُجَلْجِلُ في الفَضَاء
بِدَمِ الأُسُودِ نَخُطُّ مَلْ ... حَمَةَ البُطُولَةِ والفِدَاء
بِجَمَاجِمِ الشُّهَدَاءِ نَحْنُ ... نَدُقُّ أَبْوَابَ السَّمَاء
فَاللهُ غَايَتُنَا ... وقَائِدُنَا أَمِيْرُ الأَنْبِيَاء
عَبْدَ العَزِيْزِ اصْعَدْ إِلَى ... أُفُقِ السَّعَادَةِ والهَنَاء
رَجُلُ الرِّجَالِ النَّشْمُ بَلْ ... أَسَدُ الأُسُودِ بِلاَ مِرَاء
سَنَعُودُ يَا وَطَنِي إِلَيْك ... غَداً ونَفْرَحُ باللِّقَاء
عَوْدَ الصَّوَارِمِ والقَنَا ... لاَ بِانْبِطَاحٍ وارْتِمَاء
لاَ بالتَّصَهْيُنِ وَالتَّأَمْرُكِ ... والتَّغَرُّبِ والبُكَاء

وأما النقطة الثانية، فهي عشقه الشديد للرمز في أشعاره، وتزيينه أبياته بالأخيلة والصور البلاغية الجميلة وإذا أردتم الدليل على ذلك فاقرءوا قوله من قصيدته (فلسطين) وقد نظمها في شهر رجب 1404هـ - أبريل/ نيسان 1984م:

غَنِّنَا فالدُّجَى شَدِيْدُ السَّوَاد ... وقَطِيْعُ الرَّقِيْقِ مِنْ غَيْرِ حَادِ
مِنْ صَدِيْقِي صَرَخْتُ لاَ مِنْ عَدُوٍّ ... ومِنَ الأَصْدِقَاءِ أَعْدَى الأَعَادِي
أَصْدِقَائِي يُسَمِّمُونَ جُرُوحِي ... مُنْذُ قَرْنٍ ويَحْرِقُونَ حَصَادِي
أَصْدِقَائِي إِنْ زَوَّدُونِي بِشَيْءٍ ... زَوِّدُونِي بِحِفْنَةٍ مِنْ رَمَادِ
قُلْ لِمَنْ يَطْمَعُونَ فِيْنَا أَفِيْقُوا ... دُونَ مَا تَطْلُبُونَ خَرْطُ القَتَادِ
في فِلَسْطِيْنَ خَطَّ ذُو القَلَمِ الـ ... ـأَعْلَى طَرِيْقَ الأَجْدَادِ والأَحْفَادِ

وفي نفس السياق تأتي قصيدته (عشق الفداء) التي يطلب من الأمِّ تنشئة ابنها عليه، وقد بلغت هي الأخرى مائة بيت، وقد نظمها الشاعر في جدة، يوم الثلاثاء 1425/4/13هـ - الأول من شهر يونيو (حزيران) 2004م، وفيها يقول:

ازْرَعِي في البَنِيْنَ عِشْقَ الفِدَاء ... ورُكُوبَ العَوَاصِفِ الهَوْجَاء
أَرْضِعِيْهِمْ مَعَ الحَلِيْبِ رَحِيْقًا ... مِنْ شُمُوخٍ وعِزَّةٍ وإِبَاء
عَوِّذِيْهِمْ بِاللهِ مِنْ كُلِّ مَرْعًى ... فِيْهِ حَمْضٌ مُقَطِّعُ الأَمْعَاء
لِنُسُورِ الإِسْلاَمِ في الجَوِّ مَرْحَى ... لاَ لِتِلْكَ السَّلاَحِفِ الجَرْبَاء

وأما النقطة الثالثة، فهي عشقه لفلسطين، وحبه لوصفها في كل ميدان، يجد الفرصة مناسبة لوصفها فيه، ولذلك لا تكاد قصيدة من قصائده، تخلو من الحديث عنها، ولكني سأكتفي هنا بما تحدث به عنها، في قصيدته المسماة (عام مضى) التي نظمها في جمادى الثانية 1409هـ - يناير/ كانون الثاني 1989م، ففيها يقول:

حَلاَّكِ مَنْ يَتَحَلَّى باسمْه الذَّهَبُ ... وأَطْيَبُ الطِّيْبِ فِيْكِ الرُّسْلُ والكُتُبُ
تَنْأَى بِنَا الدَّارُ لكِنَّ مِنْ مَهَاجِرِنَا ... إِلَيْكِ مِثْلَ رُفُوفِ الطَّيْرِ نَنْجَذِبُ
فِيَا فِلَسْطِيْنُ حَيَّاكِ الحَيَا غَدَقاً ... وَلِي الرَّدَى هَارِباً واخْضَوضَرَ الحَطَبُ
أَقُولُ والقَلْبُ يَشْدُو فِي خَمَائِلِهَا ... هَذَا الجَمَالُ إِلَى الفِرْدَوْسِ يَنْتَسِبُ
يَا لِلْجَمَالِ إِذَا مَا ازَّيَّنَتْ وعَلَى ... سُفُوحِهَا غَرَّدَ الزَّيْتُونُ والعِنَبُ
لاَ لاَ تَسَلْ عَنْ شُمُوخِ البُرْتُقَالِ ضُحًى ... وقَدْ تَلأْلأَ فِي نُوَّارِهِ الحَبَبُ
هَذِي فِلَسْطِيْنُ يَا مَنْ لَيْسَ يَعْرِفُهَا ... كَأَنَّ أَحْجَارَهَا القُدْسِيَّةَ الشُّهُبُ

وهو وإن تحدث عن جمالها الخلاَّب، وعن الزيتون فيها والأعناب، وهما يغردان على السفوح، وعن البرتقال الشامخ، وعن حجارة فلسطين التي تضيء كما تضيء الشهب، فلم ينس بحرنا السَّاحر، فقد غازله بقوله:

وبَحْرُنَا المُنْعِشُ البَرَّاقُ بَهْجَتُهُ ... تَشْفِي العَلِيْلَ فَلاَ هَمٌّ ولاَ نَصَبُ
بَحْرٌ شَوَاطِئُهُ بِشْرٌ وزُرْقَتُهُ ... سِحْرٌ وأَمْوَاجُهُ بالفُلِّ تَغْتَضِبُ

ثم لم يبق من تاريخ فلسطين شيئاً إلاَّ ذكره، منوِّهاً بالأنبياء الكرام، عليهم الصلاة والسلام، متحدثاً عن رحلة الإسراء والمعراج، وأخيراً أنذر المحتلين بقوله:

أَفْعَى الأَفَاعِي سُيُوفُ الله قَدْ بَرَزَتْ ... فَلَنْ يَظَلَّ لَكُمْ رَاسٌ ولاَ ذَنَبُ
عَامٌ مَضَى والتَّحَدِّي فِي بِدَايَتِهِ ... والانْتِفَاضَةُ نَارُ الله تَلْتَهِبُ

مؤسسة فلسطين للثقافة تنعي الشاعر الفلسطيني الكبير الدكتور عبد الرحمن بارود

نعت مؤسسة فلسطين للثقافة – دمشق الراحل الكبير د. عبد الرحمن بارود، وقالت: ببالغ الحزن والأسى تنعى مؤسسة فلسطين للثقافة ومديرها العام وجميع العاملين فيها إلى الأمة العربية والإسلامية وإلى الأدباء والشعراء الشاعر الدكتور عبد الرحمن بارود الذي انتقل إلى رحمة الله وتعالى فجر هذا اليوم السبت الموافق 2010/4/17، بعد حياة حافلة بالعطاء وخدمة الإسلام وفلسطين.

نسأل الله تعالى للفقيد الرحمة ولأهله الصبر والسلوان

وإنا لله وإنا إليه راجعون

ويشار هنا إلى أن مؤسسة فلسطين للثقافة – دمشق قد نشرت المجموعة الكاملة للدكتور بارود.

مؤسسة فلسطين للثقافة، 2010/4/17

الغد، الأردن، 2010/4/18

الشهيدة فاطمة غزال

_ 1936/6/26م

أ.نجوى مجّد

الشهيدة فاطمة غزال

تعتبر الشهيدة فاطمة غزال أول شهيدة فلسطينية، حيث استشهدت في معركة وادي عزون، التي وقعت غرب بلدة عزون في منطقة محطة المحروقات الحالية، والتي دارت بين الثوار والحكومة البريطانية المنتدبة على فلسطين في ذلك الوقت، عام 1936م.

تنتسب فاطمة خليل غزال إلى أسرة فلاحية من هذا البلد، حيث نسبت إلى اسم زوجها، أحمد غزال سويدان الذي أنجبت منه ولداً اسمه محمود، وابنتين هما غزالة وزهيّة تزوجت الأولى في الطيرة/ المثلث، أما الثانية فتزوجت في كفر ثلث/ قلقيلية.

ابنها هو الشهيد محمود غزال الذي نحا منحى والدته، واختار الشهادة فقد شارك في ثورة 1936م ضد الصهاينة والاحتلال البريطاني، وفي عام 1939 بعد استشهاد أمه بثلاث سنوات أعدمته الحكومة البريطانية الغاشمة، لقيامه بقتل عميلٍ عربي لبريطانيا في مدينة القدس ودفن في مقبرة الأسباط هناك.

جاء استشهاد مناضلتنا الفلسطينية خلال مشاركتها في تقديم الإمدادات الغذائية والماء للمقاتلين الذين تولوا مهمة الدفاع عن البلدة وما حولها، وكانوا مجتمعين تحت الزيتون إلى الغرب من عزّون، حيث قنصها الجنود البريطانيون أثناء تأديتها الواجب الوطني، وذلك في السادس والعشرين من حزيران عام 1936م، وكان عمرها قد جاوز الخمسين عاما تكللت بغار الشهادة.

وتم تكريمها في بلدة عزّون والاحتفاء باسمها حيث ثم إطلاقه على المدرسة الأساسية المتوسطة للإناث.

وذكرتها الشاعرة نجوى مجد، ابنة عزّون بهذه الأبيات:-

أفاطم يابنة الأحرار إنّي ... لأحني الرأس إجلالاً وشكرا
نشأتِ بقرية في المجد عاشت ... وأسقت جيش نابليون قهرا
متيّمةَ بحب الأرض حتى ... فدتها بالنفيس وكان عمرا
فما وهنت لشيب قد غزاها ... بل ارتفعت به للنجم قدرا
وكلّلت الحياة بتاج عزّ ... يدوم ويبتني في الخلد قصرا
وأدلت دلوها لتقيم فرضا ... فإما الموت أو تلقاه حرّا
فذي أسماء عادت من قرون ... تخطّ كفاحها نورا وفخرا
تمدّ الثائرين بزاد صبر ... وأن هناك بعد العسر يسرا
ثرى عزّون يشهد اذ تهاوت ... مخبئة طعام الأسْد سرا
وتبصم بالدماء هناك قولا ... بناتك موطني ستظل ذخرا
فما اقتصر الجهاد على رجال ... فشقته وظل المجد يترّى
أفاطم قد خطتّ كتاب فجرٍ ... وكان دم الشهادة فيه حبرا
بعزم صبية وفؤاد وَرد ... إلى شرف الجهاد غذذْت سيرا

الشاعر المناضل

خالد محمد صالح أحمد غانم

الملقب بخالد أبو خالد

١٩٣٧ –

عن أرشيف جهينة، العدد ٦٣ بتاريخ ٢٠١٠/٨/١

الشاعر المناضل
خالد محمد صالح أحمد غانم الملقب بخالد أبو خالد

مولده ونشأته:

في تلة شامخة شموخ النخيل، تتوسط محافظات ثلاث: جنين ونابلس وطولكرم، وتزهو بألوان الربيع لتبدو لناظرها «بسلة زهر» لما يكسوها من أزهار اللوزيات، على نحو ما تجلى ذلك عند مرور الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان منها وهي متجهة صوب جنين لحضور مهرجان ثقافي، فسألت من معها: ما اسم هذه القرية؟ فقالوا: «سيلة الظهر» فقالت لا بل «سلة الزهر»، ولد الشاعر خالد أبو خالد، سنة 1937م، وفيها نشأ في بيت يعبق بعطر الشهادة، حيث استشهد والده القسامي «محمد صالح أحمد» المعروف بـ «أبو خالد»، فكلفهُ في طفولته جَدهُ لأمهِ الشيخ «محمد يوسف عبد القادر» في سيلة الظهر، التي تقع على تلةٍ في منحدر يصل أحد وديانها بالبحرِ الأبيض المتوسط عبر وادي (مصين) الذي ترتفع فوقه منطقة «هيشٍ».(أي المنطقة المهملة التي تغطيها الأعشاب والشجيرات الجافة. «المحرر»

تعرف إلى الطبيعة عبر كل فصول السنة، واستمع إلى صوت الشبابة والأرغول، وأجراس الغنم والبقر، وصوت سقوط المطر على سطح (البراكية) التي كان يسكنها مع أمه وأخته الوحيدة، وأحبَّ المطر الذي يُغرقُ أرض القرية بين حاراتها وأزقتها، على أسطحها وأشجارها، وفي حقولها حيث تعرف إلى الفلاح الذي تمثله في طفولته.

عاش أفراح القرية، وأحزانها، واستمع إلى العتابا، والميجانا والدلعونا، غناها مع الناس في الليالي، وشارك قريته أحزانها في المآتم، رافق الناس إلى المقبرة التي تقع على عدة حُفر غيبت في أعماقها المظلمة رجالاً ونساء، تعرف إلى المغاربة الذين كانوا يحملون في أكياسهم كتاب (شمس المعارف الكبرى) ويأتون إلى القرية بحثاً عن كنوز مزعومة، أو لإخراج الجن من أجساد التعساء بالعصي والشعوذة.

كان محباً لزيارة ضريح (لاوين) حيث مدفن «لاو» أحد أبناء يعقوب عليه السلام، ومدفن للشهداء الذين كان بينهم أبوه الذي استشهد في معركة دير غسانة عام 1938م. وكان مُحبّاً للرسم يرسم على البيادر، على الأرض وقرب العين، وعلى دفاتره وكتبه وحقيبته الخشبية، على الجدران الخشبية (للبراكية) وعلى مسطبتها الإسمنتية الملساء، وعلى إسفلت الشارع العام الذي يربط القرية بمدينتي جنين ونابلس، فهي تقع في منتصف المسافة تماماً بين المدينتين، ظلت القرية عالمه الكبير المتسع للحرب والسلم رافقه فيها جهاز الراديو والجريدة، والمجالس الشتائية الشعبية، وصندوق الدنيا، والحادي، والبيطار والعطار الذين يتوافدون على القرية، وكان هو معهم يرافقهم، يكتسب معرفة بتفاصيل ما يقومون به، وكان هناك أيضاً مدرسة القرية ومدرسوها.

لكن العامل الأول في تكوين الفتى كان الأب الشهيد محمد صالح الحمد، أحد القساميين الخمسة الأوائل الذي تتحدث القرية عن بطولاته وإخلاصه للثورة، إذن كان ثمة بطل يقتدي به، ويحفظ الحكايات التي تُروى عنه، حتى أنه كان يتخيل صورته وكأنه يعرفه ويراه في نفسه. يأتي المهتمون بأبناء الشهداء من الجمعيات، وينقلونه إلى (كلية النجاح الوطنية) في نابلس حيث تابع دراسته الابتدائية في الصف الثاني الابتدائي أوائل الأربعينات، ولأول مرة تعرف إلى المظاهرات.

فقد كان الشاعر الشهيد «عبد الرحيم محمود» واحداً من المدرسين في تلك المدرسة، واعتبر خالد ولداً له، فهو رفيق لأبي خالد في الثورة الفلسطينية، وهكذا مثل «عبد الرحيم محمود» دور الأب الثاني لخالد بعد وفاة جده لأمه. وفي عام 1948 التحق الأستاذ أبو الطيب مع بعض الطلاب من الصفوف العليا بجيش الإنقاذ، لكنه عاد بعد ذلك إلى قريته حيث علم باستشهاد أستاذه الشاعر عبد الرحيم محمود في معركة الشجرة، فعاش في ضمير خالد بطلان، انضم إليهما ثالث، هو الشهيد عبد القادر الحسيني الذي رآه مرة واحدة حينما زار القرية عام 1948. وبعد فقدان من كانوا يرعونه التحق خالد مرة أخرى بمدرسة القرية حتى أنهى الصف الابتدائي السابع.[1]

حياته العملية:

بدأت رحلته الثانية مع الحياة عندما سافر إلى عمان، حيث عمل في عدد من المهن لمدة عام كامل، عاد بعدها إلى القرية دون فائدة تذكر، ثم ما لبث أن غادر إلى سوريا حيث عمل في «الجزيرة» معاوناً لسائق محراث زراعي (تراكتور) لكنه عاد إلى قريته بعد شهور مروراً بسجن درعا بسبب مخالفته للإقامة وشروط العمل، توجه بعدها إلى الكويت حيث عمل ميكانيكياً، ثم عامل (سنترال)، ومن ثم اشترك في مسابقة للمذيعين في إذاعة الكويت ففاز بالمرتبة الأولى، وعمل محرراً في مجلة الإذاعة ومساعد رسام فيها، ثم مالبث أن أصبح مسؤولا للبرامج الثقافية في التلفزيون، بالإضافة إلى قيامه بإعداد عدد من البرامج الثقافية والإذاعية والتلفزيونية وتقديمها.

مشواره السياسي:

«اتصل بالسياسة في منتصف الخمسينيات، غير أنه لم يسهم بأبعد من المظاهرات، إلا بعد عام 1960م، حين شارك بعض أصدقائه بتأسيس (حركة طلائع الثورة العربية) التي تفرع منها (حركة طلائع تحرير فلسطين) اعتقل في الكويت عام 1966 ورُحّل إلى سوريا، فعمل في الإذاعة والتلفزيون بدمشق وتولى مسؤولية عدة أقسام، ثم ما لبث أن استقال بعد عدوان حزيران عام 1967، والتحق بالثورة الفلسطينية (حركة فتح) فدائياً مقاتلاً، ثم ارتقى في مهماته حتى أصبح نائباً لآمر القطاع الأوسط فالشمالي في لبنان، حتى أيلول 1970م، حيث أصبح قائداً عاماً لمليشيا الثورة الفلسطينية في الأوسط فالشمالي في لبنان، حتى أيلول 1972م حين انتخب عضواً في هذه الأمانة العامة لدورتين متتاليتين حتى عام 1980م، حيث انتخب أميناً لسر الاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين (فرع سوريا).

1 - اتحاد الكتاب العرب. ببلوغرافيا. الشاعر خالد أبو خالد- دمشق 2002

ينشط حالياً في المجال الأدبي، ويسهم في الصفحات الثقافية والدوريات العربية والفلسطينية، وهو عضو هيئة تحرير مجلة «الكاتب الفلسطيني» وعضو لجنة العمل النقابية، انتخب أخيراً في مؤتمر لإعادة بناء الاتحاد كعضو في الأمانة العامة من جديد.»[1] والشاعر متزوج من السيدة سهيلة منصور، وله أربع بنات، ريم وفجر وبيسان ووسام.

أثاره الأدبية ومؤلفاته:

لم يكن خالد أبو خالد شاعرا فحسب، بل كتب أيضاً للمسرح مسرحيّةً واحدة هي مسرحية (فتحي)، والتي عُني بها (فتح)، وهي مسرحية شعرية، وضمّها المجلّد الثالث من الأعمال الكاملة. يقول رشاد أبو شاور: «خالد أبو خالد ربّما خلق ليكون ممثّلاً مسرحيّا، يكتب نصوصاً لنفسه، ويعيشها على المسرح، بعد أن يعيشها ويعايشها في الحياة».[2]

لقد فاضت روح الشاعر بالعواطف والألم والحسرة، وحب الوطن البعيد في المسافة، القريب من قلبه، ليكتب العديد من القصائد توجت أخيرا بـ»العوديسا الفلسطينية» وتضم ثلاثة مجلدات صدرت عن بيت الشعر الفلسطيني في رام الله، تجمع بين دفتيها كل قصائد الشاعر الفلسطيني خالد أبو خالد المقيم في سوريا والذي يسميه الكثيرون «الشاعر المحارب».

يقول الشاعر مراد السوداني رئيس بيت الشعر الفلسطيني في حوار صحفي: «لأول مرة يتم جمع أعمال الشاعر الفلسطيني خالد أبو خالد الذي أمضى حياته مرتحلاً من مكان إلى مكان، يحمل معه الهم الفلسطيني ولا زال يعيش في الغربة.»

ووضعت العوديسا على النحو التالي:

- المجلد الأول: ويضم الجزء الأول من المجموعة الشعرية- الواقعة في 364 صفحة من القطع الكبير – أربع مجموعات شعرية وهي:
  - وسام على صدر المليشيا- 1971.
  - نقوش محفورة على مسلة الأشرفية- 1971م
  - تغريبة خالد أبو خالد- 1972م.
  - أغنية حب عربية إلى هانوي- 1973.

- المجلد الثاني: يقع في 438 صفحة من القطع الكبير يحوي خمس مجموعات شعرية وهي:
  - الجدل في منتصف الليل.
  - شاهرا سلاسلي أجيء.
  - بيسان في الرماد.

1 - علي الخليلي. خالد أبو خالد فارس قصيدة المقاومة- الخليجية 2008/2/16.
2 - رشاد أبو شاور. الوقت- دمشق العدد 751-12 مارس 2008.

- أسميك بحرا.. أسمي يدي الرمل.
- دمي نخيل للنخيل.
- وتضم المجموعة الأخيرة قصيدة «العوديسا» التي يقول مطلعها:
- «عائد من مساء الحروب
- ومن نجمة في شمال الغروب
- ومن جمرة في رماد الجنوب
- عائد من رحيلي
- من طريق لا تؤوب».

■ المجلد الثالث: الواقع في 334 صفحة من القطع الكبير على ثلاث قصائد جديدة وهي:
- تفصيل آخر من لوحة الصعود إلى العراق.
- تقاسيم عصرية على مكابدات المعري.
- من قصيدة. نداء الجنوب.

إضافة للمجموعات الشعرية: فرس لكنعان الفتى، ورمح لغرناطة، ومعلقة على جدار مخيم جنين، وفتحي (مسرحية شعرية) وقتلنا الصمت والرحيل باتجاه العودة.

وكتب أبو خالد بخط يده على الغلاف الخلفي للأجزاء الثلاثة من المجموعة الشعرية: «القصيدة مفتوحة.. القصيدة مقفلة.. في الحالتين لتؤكد أنها غير قابلة للتأويل الغريب أو المتغرب، فإما فلسطين وإما فلسطين وإما أن نكون تلك هي المسألة... تأسيساً على الحياة وهي كونية دائما... تأسيسا على جوهر الشعر». ويضيف: «إذ كيف لأحد أن يبرر كونيته... خارج الصراع... انه تواصل الأجيال في الشعراء كما في المقاتلين.»

وعرف الشاعر أبو خالد بمواقفه السياسة الرافضة لاتفاقيات السلام الفلسطينية الإسرائيلية ويقول في كلماته على الغلاف: «وهذه فلسطين شاسعة... وواسعة وهي هي بلادنا التي نعطيها.. فتحملنا إلى الكون... مذكرة أنها الاسم الحركة له وللوطن العربي».

ويضيف: «بالدم نكتب... «اللهم فاشهد»،إني قد بلغت واسلم الراية للجدير.. يصعد.. إنه الآن إلى فلسطين الافرب.»[1]

1 - خالد أبو خالد. العوديسا (صفحة الغلاف).

الجوزيّان : بندلي وابنته انستاسيا

١٨٧١_(١٩٣٨؟)

تأليف : يوسف عبد الأحد

الجوزيّان : بندلي وابنته انستاسيا

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين وبعد؛

فإن الجمعية العلمية الفلسطينية لتسعد بمواصلة نشرها سلسلة الموسوعة التربوية، وتقدم للقراء العلمين بندلي الجوزي وابنته انستاسيا، وهما ممن تغرّب حتى ألجأته ظروف الغربة للتوطن في المهجر (روسية)، وتدرجا في حياتهما حتى بلغا الذروة في التحصيل وبعد الصيت.

وقد زودني بهذه المادة مشكورا الكاتب الفلسطيني المعروف يوسف عبد الاحد عندما التقيته في دمشق خريف 1995 على هامش احتفال مجمع دمشق بعيده الخامس والسبعين، وهأنذا أقدمها اليكم أعزائي القّراء آملا في أن تكون كافية للتعريف بذينك العلمين، على الرغم من وجازتها، وهي كما ترون، مقالات جمعت من ها هنا وها هنا باستثناء المادة الخاصة بأنستاسيا، فهي من وضع الكاتب عبد الأحد. وقد نشرت الدار الوطنية هذا العمل في كتيب لم يوزّع بسبب الظروف التي تعيشها فلسطين.

لقد أبدع الجوزيان في مجالات من المعرفة مختلفة، وتسنما فيها عاليا من الدرجات، اذ يعدان مرجعين أساسيين في تخصصاتهما التي برعا فيها، وعولت عليهما الحكومة الروسية في شؤون كثيرة، واسندت اليهما مهمات جسيمة على نحو ما يتضح في سيرتيهما، مما أغرى بعض الباحثين بأن عد بندلي مستشرقا أجنبيا، بينما هو في الحقيقة مواطن فلسطيني تغرب في وقت مبكر .

أ. د. يحيى جبر

مولده ونشأته :

ولد بندلي الجوزي في مدينة القدس في الثاني من شهر تموز عام 1871 لأبوين من الطبقة الفلسطينية العاملة. وقد توفيت والدته اثناء الوضع، وتوفي والده الذي كان يعمل نجارا هو الآخر بينما كان بندلي في السادسة من عمره .. لذلك فان العائلة المؤلفة من اخواته الثلاث، وصليبا الذي يكبره سنا، قاموا بالعناية به وتنشئته .

ومما هو جدير بالذكر أن العائلات المقدسية، كانت تسكن داخل أسوار المدينة، في بيوت يجاور بعضها بعضا، اضافة الى انها كانت تتعاون فيما بينها في السراء والضراء.

تقول أخته مريم التي عاشت اكثر من مئة عام : «ان طفولة بندلي كانت هادئة على وجه العموم. ولكنه عندما اصبح قادرا على المشي، كان يحب اللعب والركض. وفي العاشرة أو أقل بقليل، كان يعتزل رفاقه، ويخرج الى سطح الدار التي تطل على أسوار القدس القديمة، وينتحي ناحية قصية او يستمتع بقراءة القصص التي كانت رائجة في تلك الايام، كما كان يحب أن يسهر ليلا ليتأمل ويفكر».

«ليس من السهل ، بعد مرور ما يزيد على مائة عام على ولادة المرحوم بندلي الجوزي الالمام بكل شاردة وواردة عن طفولته وشبابه المبكر، لا سيما أن المصادر، أو جلها، بقيت في فلسطين، ولكنني بعد اتصالاتي المتكررة بعماتي الثلاث، وبأخي صليبا - ركن العائلة- والذي يبلغ الثالثة والثمانين من عمره، ومن خلال مراسلاتي المتواصلة مع ابنة بندلي الدكتورة انستاسيا المقيمة في موسكو، والاستاذة في جامعتها، والمتخصصة في علم أحياء البحار. ومما وعته ذاكرتي اثناء زيارتي عمي بندلي للقدس عامي 1928 و 1930 أحاول تقديم ما استطيع تقديمه وأعطي صورة واضحة عن ذلك الرائد الفكري الذي نبّه الفلسطينيين الى الاخطار المحدقة بهم ، والمحاولات التي كانت تقوم بها الحكومة البريطانية من اجل تهويد فلسطين وطرد أهلها.

وقد استعنت ببعض المراجع الهامة، فيما يتعلق بالارساليات الاجنبية، خصوصا اليونانية والروسية منها، نظرا لان بندلي الجوري تلقى علومه الابتدائية والثانوية في معهدين الاول يوناني والثاني روسي .

تلقى بندلي الجوزي علومه الابتدائية وقسما من الدروس الثانوية في دير «الاشارة الصليبي» المعروف «بدير المصلبة» الواقع في القسم الشرقي من القدس، وهو يوناني أرثوذكسي، وتابع دراسته في مدرسه «قفطين» في طرابلس الشام - لبنان. وتمكن من اللغة العربية وهو في السابعة عشرة من عمره .

وكان الطلاب المتفوقون الاذكياء والنوابغ يرسلون الى روسيا لإتمام دراستهم الجامعية، تقديرا لهم على اجتهادهم وطموحهم، وهكذا أرسل بندلي الى روسيا عام 1891 لاستكمال علومه الدينية في الاكاديمية الدينية في موسكو، ولكن يبدو انه عزف عن الموضوع. فكتب الى والده يعلمه بالامر، ويطلب موافقته وموافقة من بيدهم الحل والربط، على الانتقال الى «أكاديمية قازان» عام 1895 والتي حصل منها على الماجستير في اللغة العربية والدراسات الاسلامية عام 1899. وكان موضوع أطروحته «المعتزلة».

عاد بندلي الى مسقط رأسه في فلسطين عام 1900 مصمما على البقاء فيها، وعندما رأى الحالة المتردية. السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وما وصلت اليه من فقر وحهل وضغط على الحريات، أخذ ينبه الناس ويقول لهم : «أفيقوا من هذا السبات الذي تغطون فيه، ودافعوا عن حقوقكم المهضومة وحريتكم « مما حدا بالسطلة التركية الحاكمة، أن تجبره على مغادرة القدس الشريف والعودة الى روسيا.

تزوج بندلي عام 1903 من «ليودميلا لورنيشيتفنا زويفا» الروسية المولد، فأنجبت له سبعة اولد، ثلاثة ذكور وأربع بنات ظلوا يحتفطون بجنسيتهم الروسية، وقد اهتم بتربيتهم وتعليمهم وقد احتلوا مراكز مرموقة في الجامعات السوفياتية، وهم:

1. فلاديمير : ولد عام 1904 حاز على درجة دكتوراه في الفيزياء ، وهو بروفسور في جامعة باكو .
2. أنستاسيا: مولدة عام 1905، حائزة على درحة دكتوراه في علم الجغرافيا، عملت أستاذة في جامعة موسكو، وهي التي حصل نصري من خلالها على المعلومات الوافية الصحيحة عن عمه بندلي، وهي التي نطرحها بين يديك.
3. تامارا: مولودة عام 1909 متخصصة في علم الاحياء، دكتوراه في الكيمياء، وهي استاذة جامعية.
4. جيورجي: مولود عام 1911، متخصص في علم الجيولوجيا، قتل في الحرب العالمية الثانية عام 1942.
5. بوريس: مولود عام 1913 متخصص في علم الجيولوجيا.
6. أولغا : مولودة عام 1915 وكانت متخصصة في علم الكلام .
7. في عام 1909 عاد بندلي الى الشرق الأدنى في بعثة علمية لمدة سنة كاملة، كان يشرف خلالها على رحلة الطلبة الروس الى فلسطين حبا في الاطلاع على معالمها الأثرية ورغبة في معرفة البلاد التي نشأ فيها أستاذهم، ولتعلم اللغة العربية، وعندما وصل الى القدس، اغتنم شقيقه صليبا الفرصة، ورغب ان يكون عراب ابنه نصرى في المعمودية، بعد ان كان قد مضى على ولادته سنة، وقد اخذه والداه وعماته واقاربه يفكرون في الاسم الذي سيطلقونه عليه.

«ماذا نسمي هذا الطفل» واخذ كل واحد منهم يلقي بدلوه، ويقترح اسماء يونانية او روسية كانت سائدة آنذاك. فانبرى بندلي وقال : «الى متى نظل نسير في ركب الاجانب وعندنا اسماء عربية جميلة رنانة». وسماه نصري، وقد حدا بنصري الى ذكر هذه الحادثة، الثورة التي كانت تتأجج في صدر عمه بندلي ضد العادات البالية ورغبته في التحرر من التبعية.

يقول نصري : سألني الكثيرون من الاصدقاء والكتاب والباحثين عن سبب تسمية عمي بـ«بندلي» وما معنى هذا الاسم. وما مصدره؟ وهو الذي حرّر الفكر من أوهامه، وأتاح للناس أن تفكر تفكيرا علميا صادقا ؟

إن بعض الدول الغربية، في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين، قد تسللت الى منطقة الشرق الادنى، حفاظا على الطوائف المسيحية ظاهرا، ومحاولة لاقتسام تركة «الرجل المريض» - اي الامبراطورية العثمانية - باطنا، فأخذت فرنسا تفرض نفسهاحامية للمسيحيين الكاثوليك واللاتتين، بينما نصبت روسيا القيصرية نفسها حامية للمسيحيين الأرثوذكس، وراحت تبسط نفوذها وسيطرتها على لبنان وفلسطين».

وبواسطة المدارس والجمعيات الروسية والفرنسية والانكليزية، والالمانية، والايطالية، بتنا نتعرف على اسماء اجنبية غريبة مثل « بيير، جان كلود، فرنسوا ، جوزفين ..كما نقل الروس الى المنطقة اسماء القديسين والقديسات مثل : قسطنطين، هيلانة، اسبر (اسبيريدون) صليبا نقولا، بندلي مختصر بندلايمون ...الخ وبندلايمون اسم قديس يوناني، بمعنى الرجل «الناصح» من فعل نصح، ينصح، وفي رحلته الى الشرق الادنى هذه تعرف بندلي الى العديد من أدباء فلسطين أذكر منهم اسعاف النشاشيبي، وجميل الخالدي - صاحب المخطوطات، وخليل السكاكيني.

كما تعرف الى المستشرق الروسي كراتشقوفسكي الذي وقف حياته على البحث والتدقيق في آدابنا العربية، وقد عرفه في بيروت سنة 1909 .

وفي السنة التي أقام معظمها في فلسطين، ورأى ما رأى من تأخر وجهل وظلم السلطات التركية والاقطاعيين الذين كانوا يسيرون في فلكهم، أخذ بندلي ينشر أفكارا تحررية. ويهيب بالناس أن يكسروا القيود التي تكبلهم، ويثوروا ضد الظلم والقوى الرجعية الحاكمة.

وكانت رحلته الثانية عام 1928، بعد أن برّح به الحنين الى مسقط رأسه في فلسطين، والى عائلة أخيه واخواته وأصدقائه، فشد الرحال، وجاء الى القدس ليقيم في بيت أخيه، والدي، وقد تم آنذاك طبع كتابه الذي أحدث صدى كبيرا، ولا يزال يعتبر مرجعا صادقا، وقد تم طبع الكتاب ما يزيد عن عشر طبعات، وأخرجه مؤخرا اي عام 1983، اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، الامانة العامة في كل من بيروت ودمشق، والكتاب الذي احدث هذا الدوي في الاوساط التحررية هو «من تاريخ الحركات الاجتماعية»، وهو الجزء الاول من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام».

كان قد وقف على طبع الكتاب عام 1928 صديقه المربي الكبير المرحوم خليل السكاكيني، وقد صدر الكتاب عن مطبعة بيت المقدس - القدس، لصاحبيها الياس واندريا متحور.

وأثناء اقامته في القدس، قام بندلي بنشاط واسع لتوعية الشعب العربي الفلسطيني على ما يحاك له في الخفاء، والمصير الذي ستؤول اليه فلسطين ان لم يفق أبناؤها، ويعملوا على سد الثغرات الواسعة القائمة وقتئذ، ويهبوا من ذلك السبات العميق الذي كانوا يغطون فيه.

وعندما كان يزوره زعماء فلسطين على اختلاف نزعاتهم السياسية، ويدور البحث في السياسة البريطانية - اليهودية، كان يقوم من مقعده ويتمشى في الغرفة جيئة وذهابا، وهو يقول بصوت جهوري : «يا جماعة

انسوا أحقادكم وأحزابكم واتحدوا، فالصراع مرير، والعدو واع ومنظم تدعمه السلطةالحاكمة».

وقد ذكر المرحوم محمد علي الطاهر، في جريدة «الشورى» التي كانت تصدر في القاهرة، في عددها الصادر في 26 كانون الاول عام 1928 ما يلي : «كتب الينا ان العلامة الفلسطيني، الاستاذ بندلي الجوزي قد وصل الى باكو في الروسيا، واخذ يمارس أعماله التدريسية في جامعة باكو، يشتغل الاستاذ الآن بوضع كتابه الثاني (الحركات الفكرية السياسية في الاسلام) ليكون تتمة لكتابه القيم (في تاريخ الحركات الاجتماعية في الاسلام) الذي طبع في الصيف الماضي، وعلقت الصحيفة «انه ليعز على أبناء فلسطين وأبناء العربية جميعا أن تتمكن العصابة الصهيونية في فلسطين من حرمان وطن الاستاذ ومسقط رأسه من الانتفاع بعلمه وفضله. لقد عاد الأستاذ الى دار الغربة حزينا كئيبا ولا شك، وكيف لا يكتئب ولا يحزن وهو يرى وطنه، وقد أصبح نهبا مقسما بين أطماع فئة طرأت تحكم غير بلادها، وتتصرف في غير دارها».

وكان بندلي الجوزي قد قام بنشاط واسع ضد الانتداب البريطاني، مما اضطر السلطات المنتدبة الى الطلب اليه أن يغادر فلسطين .. وواقع الامر أن عوامل عديدة. حالت دون بقائه في القدس لتأدية رسالةالتوعية، منها الانتداب البريطاني ، وجل زعماء العرب الفلسطينيين الذين كانوا يخافون على كراسيهم وسيطرتهم على الجماعات الساذجة التي تأتمر بأمرهم، ويسيرونها حسب أهوائهم وغاياتهم. كذلك لم يسلم من وشايات بعض المتزعمين والجهلة الذين اعتبروا افكاره التحررية الثورية بدعة من البدع، عليهم ان يحاربوها، اما الصهاينة المقيمون في فلسطين وفي خارجها فقد أدركوا الخطر بل الأخطار التي سوف تنجم عن وهج هذه الشعلة المتوقدة، والافكار التحررية، فدسوا عليه مع الداسين لدى السلطات البريطانية صاحبة الحول والطول.

وحينما كان يجتمع بالوفود العربية التي كانت تأتي لزيارته والتسليم عليه كان، رحمه الله، يخوض في تاريخ فلسطين، وشجاعة أبنائها ووقوفهم صفا واحدا ضد اعداء البلاد والوطن، ثم يردف قائلا :

«ليت العرب يعملون ويقللون من الثرثرة والكلام الفارغ، ويوحدون الجهود في سبيل الحفاظ على فلسطين» .

بتصرف من مقالة بعنوان : بندلي الجوزي - بقلم نصري صليبا الجوزي فلسطين الثورة 1984/2/11 وقد أعيد نشره في جريدة الاتحاد 1984/3/2.

تلقى الجوزي تعليمه الابتدائي في دير الاشارة اليوناني الارثوذكسي، ثم تابع دراسته الثانوية في مدرسة كفتين قرب طرابلس، ثم أرسل في بعثة دراسية الى روسيا عام 1891، مثلما ارسل بعده ميخائيل نعيمة وكلثوم عودة، حيث درس في البداية علوم اللاهوت في الاكاديمية الدينية في موسكو لمدة ثلاث سنوات، انتقل بعدها الى اكاديمية قازان عام 1895، ومنها حصل على ماجستير في اللغة العربية والدراسات الاسلامية عام 1899، وكان موضوع رسالته، المعتزلة - البحث الكلامي التاريخي في الاسلام»، فعين استاذا مساعدا في كرسي اللغة العربية والدراسات الاسلامية في جامعة قازان، وبين عامي 1911 و 1917، عين استاذا مساعدا في كلية الحقوق في جامعة قازان، وبعد قيام الثورة البلشفية عام 1917، عين أستاذا للآداب

واللغة العربية في جامعة باكو عام 1920، وفي عام 1921 عين أول عميد للغت الشرقية في الجامعة، ومنح لقب دكتور في الاداب واللغة العربية، حيث قام بجمع كتب ومخطوطات عربية وفارسية نادرة أثناء زيارته لايران، وفي روسيا تزوج بندلي الجوزي عام 1903 من ليود ميلالور نيشيفنا زوينا الروسية، والتي انجبت له سبعة اولاد، ثلاثة ذكور واربع بنات. (لاحظ الاختلاف في اسم الزوجة، والصواب زويفا بمعنى الذئبة . ي. ج)

كتب بندلي الجوزي، في معظم المجلات الثقافية والفكرية العربية مثل «الهلال» «المقتطف» «الآثار» «الكلية» «الرابطة الشرقية»، «النفائس العصرية»، وغيرها، حيث أدار حوارات مع الكتاب والمثقفين العرب طرحوا خلالها الكثير من القضايا الثقافية واللغوية والفكرية، واثناء اعداد الكتاب وجد جلال السيد أول مقالة لبندلي الجوزي باللغة العربية في مجلة «الهلال» في نيسان (ابريل) 1897، ثم بعد ذلك في «الاثار» عام 1913، ثم تركّز نشاط بندلي الجوزي في المجلات العربية بين عامي 1928 و 1933 .

يذكر المؤلف أن بندلي الجوزي كان الى جانب كتاباته باللغتين العربية والروسية يترجم من الروسية والالمانية، اذ كان يجيد لغات عدة الى جانب العربية والروسية منها الالمانية، اليونانية، السريانية، العبرية، الفرنسية والانكليزية.

وضع الجوزي معظم مؤلفاته باللغة الروسية الى جانب كتاب واحد بالعربية وثلاث ترجمات من الروسية للعربية، ففي اللغة العربية ألّف وترجم الكتب التالية :

1. «من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام» - القدس - 1928 .
2. «الأمومة عند العرب» - قيللن - ترجمة عن الألمانية - قازان - 1902.
3. «أمراء غسان من آل جفنة» - ثيودور نولدكة - ترجمة بندلي الجوزي وقسطنطين زريق - بيروت 1933.
4. « بندلي صليبا الجوزي - دراسات في اللغة العربية والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب»، جمع وتقديم جلال السيد وناجي علوش - بيروت - 1977.

أما مؤلفاته باللغة الروسية فهي :

1. «تعليم اللغة الروسية لأولاد العرب» أو «اللغة الروسية للعرب - جزءان - قازان 1903.
2. - المعتزلة - البحث الكلامي التاريخي في الاسلام - قازان 1899.
3. «محمد في مكة، ومحمد في المدينة» - قازان 1903.
4. «تاريخ كنيسة أورشليم» - قازان - 1910.
5. «جبل لبنان - تاريخه وحالته الحاضرة» - قازان - 1914.
6. «المسلمون في روسيا ومستقبلهم» - قازان - 1917 .
7. «أصل سكان سوريا وفلسطين المسيحيين» - 1917.
8. «رسالة في الطاعون - أعراضه والوقاية منه» - بلا تاريخ.

9. «رحلة البطريرك مكاريوس ابن الزعيم الى بلاد الكرج» - بلا تاريخ .
10. «علم الاصول في الاسلام» - بلا تاريخ .
11. «أصل الكتابة عند العرب» - بلا تاريخ .
12. «المطابع الاسلامية في روسيا» - بطرسبرغ (لينينغراد)- 1911.
13. «الشؤون الانكليزية المصرية» - باكو - 1930 .

وترجم من العربية الى الروسية كتابين هما «فتوح البلدان» و «تاريخ اليعقوبي».

إن كثافة الانتاج الفكري لهذا العالم البارز، تدفع الى ضرورة ترجمة أعماله الى اللغة العربية، لتعريف الاجيال الجديدة بمؤلفاته وأفكاره، خصوصا وهو الكاتب الموسوعي الذي تنوعت نشاطاته فامتدت من الادب الى التاريخ فالاقتصاد واللغة وفقه اللغة واهتم بالجوانب الاجتماعية والفلسفية .

مقالة عن كتاب بعنوان بندلي الجوزي - بقلم جلال السيد. منشورات دار المبتدأ - بيروت (الحياة في 1994/5/31) .

عمل استاذا مساعدا لمادة الشريعة الاسلامية في كلية الحقوق بجامعة قازان بين سنتي 1911 و 1917. وانتقل بعد ذلك الى كلية الآداب والتاريخ، وحاضر في تاريخ شعوب الشرق الأدنى حتى سنة 1920. وفي تلك السنة دعي الى تولي كرسي اللغة العربية وآدابها في جامعة باكو الدولية، كما أسند اليه كرسي تاريخ الشرق الاسلامي. وقد أصبح بين سنتي 1930 و 1933 رئيسا للقسم العربي من فرع أكاديمية العلوم في أذربيجان . وزار فلسطين وسورية والعراق ومصر وإيران ثلاث مرات لأغراض علمية.

كان بندلي الجوزي يتقن الكثير من اللغات القديمة والحديثة. وقد ألف باللغتين العربية والروسية، وترجم عنهما واليهما، كما نقل عن الألمانية بالاشتراك مع الدكتور قسطنطين زريق كتاب «أمراء غسان» تأليف المستشرق الألماني نولدكه (طبع سنة 1931). وبالاضافة الى الكثير من المقالات العلمية في المجالات العربية. طبع في القدس سنة 1928 الجزء الأول من كتابه «من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام». وقد بحث فيه الحركات الاجتماعية حسب النظريات العلمية - الماركسية فنال بذلك شهرة واسعة.

وقد جمع ناجي علوش وجلال السيد مقالات بندلي الجوزي المنشورة في الصحف والمجلات وأصدراها ببيروت في كتاب عنوانه «دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب».
(من الموسوعة الفلسطينية بتصرف)

وفي سنة 1930 زار القاهرة أيضا مع صديقيه خليل السكاكيني وعادل جبر فاحتفى بهم أهل الفكر في وادي النيل. وكتب المترجم أبحاثا ومقالات نشرها في المجلات العربية كالمقتطف والهلال والنفائس العصرية وغيرها. وكان يتقن من اللغات الى جانب اللغة العربية والروسية عدة لغات اخرى هي : الفرنسية الانجليزية والألمانية واليونانية القديمة والتركية والفارسية. ويجيد أيضا اللاتينية والعبرانية

والسريانية، ويقرأ بطلاقة الايطالية والاسبانية. وتزوج بندلي عام 1903 في روسيا من «يودميلا لورنيشيتفنا زويفا» فانجبت له سبعة أولاد، ثلاثة ذكور وأربع بنات اهتم بتربيتهم وتعليمهم فاحتلوا المراكز المرموقة في الجامعات السوفيتية .

من كتاب أعلام فلسطين في أواخر العهد العثماني عادل مناع -
جمعيـــة الدراســـات العربيـــة - القدس ســـنة 1986 ص 85 .

بندلي الجوزي وكتابه «من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام»

(بقلـم د. شوقي أبو خليـل)

(صوت العرب العددان 8/ 9 آب/ ايلول 1990 ص 48)

يتكون كتاب (من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام) من مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، والمقدمة عنوانها : (وحدة النواميس الاجتماعية)، والفصل الاول عنوانه: (أسس الاسلام الاقتصادية) ، والفصل الثاني: (الامبراطورية العربية والأمم المغلوبة)، والفصل الثالث : (حركة بابك وتعاليمه الاشتراكية) والفصل الرابع: (الاسماعيلية) والفصل الخامس : (القرامطة). ثم خاتمة دون عنوان .

ولست، في هذه العجالة، في صدد ذكر ما للكتاب وما عليه، ولكنها نقطة واحدة أود عرضها، وقد جاءت في المقدمة، وهي :

المقدمة كلها تفنيد لبعض أقوال مؤرخي الغرب عن الشرق وتاريخه، وما فيها «من الغرابة والطيش»، وخصوصا (أرنست رينان) الفرنسي الذي قال : «إن تطور الأمم السامية الديني كان يقوم دائما على نواميس أخرى»، غير نواميس الأمم الغربية.

ويقول الدكتور بندلي الجوزي : «هذه النظرية أصبحت اليوم في خبر كان .. ان الزمان تولي دحضها بنفسه»، معتبرا مثل هذه الأفكار أفكارا عقيمة فاسدة ... الى آخر هذا الدفاع المجيد، والموضوعي العلمي عن تاريخ أمتنا ، الا أن الاستاذ بندلي بدأ مقدمته بالفقرة التالية : «إذا نحن عرفنا أن أول من وضع مبادىء علم التاريخ وأساليب الانتقاد التاريخي، هم مؤرخو الغرب كينيبور (Niebhur)، ورانكه (Ranke)، وشلوتسر (Schlosser) وغيرهم ...).

ونتساءل : هل حقا ان هؤلاء المؤرخين الغربيين، هم أول من وضع مبادىء علم التاريخ، وأساليب الانتقاد التاريخي ؟؟

اين هؤلاء من عبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة 1406م، وهؤلاء المؤرخون الغربيون، عاشوا في القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين ؟! .

لقد كانت (مقدمة) كتاب ابن خلدون : «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، صورة حية للحياة الاجتماعية في مختلف البيئات التي تقلب فيها ابن خلدون، وللعصر الذي انقضت فيه حياته، لقد وضعها بعد ان شعر بنقص التاريخ كما يفهمه المؤرخون، اذ يقتصرون على سرد الوقائع والأسماء، (فمقدمته) : نقد تاريخي، مع تعليل وتفهم وتفسير.

ثم ان (المقدمة) عللت الظاهرات الاجتماعية، وأوضحت أثر السكن على الحياة الاجتماعية ، ودرست الظاهرات الاقتصادية، فيكون ابن خلدون بذلك قد بحث في علم الاقتصاد والسياسة والاجتماع والعمران، ويمكن القول انه ولج ميدان ما يسمى اليوم (فلسفة التاريخ).

والكتب التي تتعلق بفلسفة التاريخ مباشرة، ظهرت بعد تأليف ابن خلدون لمقدمته ، مثل

- كتاب (الأمير) لميكيافيلي الايطالي .
- و(الحكومة المدنية) لجون لوك الانكليزي.
- و(العالم الجديد) لجا باتيستافيكو الايطالي.
- و(طبائع الامم وفلسفة التاريخ) لفولتير الفرنسي.
- و(آراء فلسفية في تاريخ البشرية لهردر الألماني.. وكلهم اقتبسوا من ابن خلدون في كتبهم .

وسبق ابن خلدون في مقدمته (علماء الاجتماع) بقرون، سبق غبرييلي تارد (الفيلسوف الفرنسي) بالقول بالمحاكاة والتقليد، وكان ابن خلدون أعمق، لأنه أعطى رأيا متميزا، واعتبر التقليد ظاهرة ضعف، والظاهرة الاجتماعية هي تفرض نفسها على الافراد، وأوجه الشبه بينه وبين جان جاك روسو واضحة من حيث الايمان الشديد بحياة التقشف، وبيته وبين نيتشه في نظرية الحق لقوة، وله لمحات لتفسير الظواهر السياسية بالعامل الاقتصادي، ومن الأفكار الهامة التي عرضها ابن خلدون بصريح العبارة :

« وقد يكون من الصنائع في بعضها غيرها، مثل النجارة والحياكة معهما الخشب والغزل، الا ان العمل فيهما - أي في النجارة والحياكة - أكثر، فقيمته أكثره»، وعلى هذا فان العبرة في تقويم سلم الانتاج هي بكمية العمل التي بذلت لتحصيلها، ذلك ان العمل المبذول في صناعة قطع الاثاث اكبر من العمل الذي بذل في قطع الاشجار، والعمل المبذول في النسيج اكبر منه في الغزل، ولهذا يجب ان يجري تقويم كل نوع منهما وفقا لذلك، فيكون الأول أغلى من الثاني .

ويلح ابن خلدون في توكيد معنى استمداد القيمة من العمل عدة مرات في مقدمته : «فلا بد في الرزق من سعي وعمل».

ليس ابن خلدون رائدا في علم الاجتماع السكوني، بل هو رائد في علم الاجتماع الحركي، بدليل انه لم يدرس المدن الفاضلة، بل درس المدن القائمة، ووازن بين ما كان وما صار.

لقد كان ابن خلدون شغوفا بالتاريخ، ومع معاناته للسياسة، جاءت تجربته غنية، وبعد هذا كله، هل يصح قول الاستاذ الدكتور بندلي الجوزي : «ان اول من وضع مبادىء علم التاريخ وأساليب الانتقاد التاريخي هم مؤرخو الغرب كنيبور، ورانكه، وشلوتسر؟».

وهل سبق هؤلاء العلامة ابن خلدون حقا ؟

نظرا لأهمية هذا الكتاب ، الذي ألفه الدكتور بندلي الجوزي في مدينة القدس، وطبع فيها سنة 1928م، أعادت عدة جهات طبعه، وهي :

1. منشورات صلاح الدين - القدس سنة 1977، وصفحاته 137.
2. سلسلة إحياء التراث الثقافي في الفلسطيني، الكتاب الرابع، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين (الأمانة العامة)، الطبعة الثانية سنة 1981، وصفحاته 237 أيضا.
3. دار الجيل، سنة 1982.
4. دار الروائع، بلا تاريخ، وصفحاته 237.
5. ونشره الدكتور فواز صياغ في دمشق ، شباط 1972، (آلة كاتبة) : 91 صفحة .

أنستاسيا الجوزى

ان بداية وتطور البحوث الميكروبية للمستحاثات لقشرة البحر (في روسية) مرتبطان بأنستاسيا جوزي العالمة الكبيرة والاخصائية (في علم الاعشاب المائية) العبقرية .. دكتوره علوم الجغرافيا، والحائزة على الجوائز الحكومية .

أ. ب جوزي ولدت في 31 تموز 1905 في بلدة قازان، وفي عائلة بروفيسور جامعة قازان الاخصائي بالتاريخ وآداب الشرق، العربي المولد، واسمة بنتيليون كريستوفيتش جوزى، الذي حضر الى روسيا في عام 1900. وأمها هي لودميلا لافي نتوفنا جوزى (قبل الزواج زويفا) اهتمت بتربية الاولاد، وقد كان عددهم سبعة، وبشكل عام جميعهم توصلوا الى نجاحات كبيرة في مجالات علوم الطبيعة المختلفة .

في عام 1920 انتقلت الاسرة الى مدينة باكو حيث دعي ب. ك جوزى مع غيره من الاساتذة لتكوين جامعة باكو .

لقد حصلت أ. ب جوزى على الشهادة الجامعية من جامعة باكو (الان تسمى جامعة اذربيجان) ومن قسم العلوم الطبيعية الرياضية والفيزيائية (ما بين 1923 - 1929) وقد اختصت في علم حياة النباتات والحيوانات المائية. وقد اختصت باشراف فلاديمير سيرفيفيتش ليباتيفسكي المختص بعلم الحيوانات. وقد تدربت في مجال الاعشاب المائية لدى ايفان الكسندروفتش كييلوف المسؤول عن مخبر علم حياة النباتات والحيوانات المائية في معهد البحوث العلمية بمدينة بيتقوف التابع لجامعة لينينغراد، وخلال حياتها الطلابية بدأت أ. ب جوزى تعمل في مجال البحوث بشكل فعال . وظهرت قبل أعمالها العلمية المخصصة لبحث حياة الاعشاب المائية والحيوانات عديمة الفقرات في الاحواض الحديثة المياه .

بعد ان انهت أ. ب. جوزى الخامسة والعشرين دعيت في عام 1930 من قبل ف.س. بورتيسكي للعمل في لينينغراد في مخبر النباتات المجهرية التابع للمعهد المركزي للبحوث الجيولوجية الاستكشافية، والذي يسمى معهد الجيولوجيا لعلوم الاتحاد السوفييتي والمنظم بمبادرة ك. ك. مكروف . وفي هذا المعهد وبقيادة ف.س. مورتسكي قامت أ. ب. جوزى بدراسة زمرة الاعشاب المائية المجهرية وحيدة الخلايا (دياتوم) وبفضل عبقريتها اللامعة ومعرفتها الجيدة للغات الاوروبية الرئيسية تمكنت أ. ب. جوزى من دراسة الاتجاهات الجديدة للطريقة التحليلية في دراسة الدياتوم.

وفي ذلك التاريخ قامت المجموعة الصغيرة من الباحثين، والتي كانت تضم أ. ب. جوزى، بدراسات ذات اتجاهات متعددة. ودرست تراكيب ترسبات الاعشاب المائية من الدور الرباعي المتواجد في الاتحاد السوفياتي، وخاصة الجزء الشمالي الغربي من القسم الاوروبي، وقد انطبعت البحوث بدراسة المستحاثات. وقد وضعت الاسس الجديدة التطبيقية لتحديد نوعية دياتوم بطريقة مجهرية والاستخدامات الصناعية لها .

وفي نفس الوقت أجرت أ. ب جوزى بحثا فريدا من نوعه لعالم النباتات في الاحواض المائية الجبلية في متوسط الاورال(سلسلة الجبال التي تفصل بين اسية وأوروبة . ي.ج) واظهرت التغييرات الفيزياكيميائية خلال عصر ما بعد الجليديات، وهذه اول تجارب اجريت في العالم في مجال دراسة المستحاثت من خلال استخدام الطرق التحليلية للدياتوم لتحديد تاريخ الاحواض الحديثة .

وفي عام 1913 نشرت نتائج هذه الاتجاهات، وقد ظهرت مواهب أ. ب. جوزى من خلال عملها كمنظم وعالم في مجال معرفة العلاقات بين الاحياء وما جاورها. وقد ورد في هذه الاعمال المكتوبة من قبل أ. ب. جوزى أنواع جديدة من الاعشاب المائية المجهرية الغير المعروفة .

بدأ من عام 1931 ساهمت أ. ب. جوزى بشكل فعال في الاعمال المخبرية للبعثات التنقيرية عن المستحاثات في الاورال الاوسط وخلف الأورال ومنطقة فلداي ونهر فاغ ونهر بلوميت، ومن عام 1934 عملت كباحثة في مخابر ترسبات الدور الرابع في معهد البحوث الجغرافية الاقتصادية التابع لجامعة لينغراد، وشاركت في بعثات التنقيب في مناطق كستروسكايا وفلوفودسكايا.

وفي عام 1932 تزوجت أ. ب. جوزى من ك. ك. مكروف في جيولوجيا التراكيب والمستحاثات، وقد اصبح اكاديميا.

من عام 1937، وبسبب نقل اكاديمية العلوم، وانتقال الاسرة، فقد تركت أ. ب. جوزى العمل في جامعة لينغراد الحكومية ولعدة سنوات، وبسبب مرض احد افراد الاسرة.

لم تكن أ. ب. جوزى مرتبطة بعمل ثابت، ولكن لم تترك البحث العلمي في اختصاصها، وفي موسكو قامت أ. ب. جوزى بتعميم نتائج التحاليل المتعددة التي جمعتها بنفسها، والتي جمعها الباحثون الاخرون حول دراسة ترسبات الدور الرابع في مختلف مناطق الاتحاد السوفياتي. ونتج عن هذه الاعمال رسالة الكانديت في العلوم الجغرافية، والتي دافعت عنها أ. ب. جوزى بنجاح (دكتوراه دولة في الجغرافية) عام 1939 في جامعة لينغراد الحكومية، ونشرت ابحاثها في نفس السنة على شكل رسالة علمية ((ترسبات الاحواض المائية من خلال التحاليل الدياتومية)).

ان صدور كتاب أ. ب. جوزى كان حدثا علميا كبيرا في حياة علماء الترسبات، لأن في ذلك العمل تم تعميم معطيات واسعة متوفرة في الكتب الوطنية والاجنبية. ويحلل الكتاب المادة الحقيقية الكبيرة وتتوفر فيه المعلومات عن انتشار الانواع الرئيسية للدياتوم وتركيبتها حسب شروط معيشتها في مختلف المناطق الجغرافية السوفياتية ويولي الكتاب أهمية للدياتوم وظهور تركيباتها القديمة .

يمتاز كتاب أ. ب. جوزى بالدراسة الجغرافية القديمة للمواد في هذا المجال العلمي وكذلك الدراسة الحديثة لمناطق تواجد الاعشاب المائية .

في بداية الحرب (العالمية الثانية) هاجرت أ. ب. جوزى الى باكو، وعادت الى موسكو في عام 1942 حيث عملت خلال عامي 1942 و 1943 في معهد الجغرافية التابع لاكاديمية العلوم السوفياتية، وذلك لوضع ووصف خارطة للنباتات في الاتحاد السوفياتي .

وخلال عامي 1944 و 1945 انهت موضوع عالم النباتات المجهرية لمناطق لوليانوفسكي وبنزتسكي من خلال عملها في معهد الاستكشافات الجغرافية المسمى باسم أرجينكيوزي ..

في الاعوام الأولى التي تلت 1946 - 1948 عملت أ. ب. جوزى (باتفاق مع معهد الجيولوجيا لعموم الاتحاد السوفياتي) بدراسة الدياتوم القديمة، ولاول مرة ضمن حدود الاتحاد السوفياتي اكتشفت أ. ب. جوزى بقايا الدياتوم من العصر الكلسي (الطباشيرى) في منطقة الفولجا . تم فرز ودراسة تراكيب الدياتوم من العصر الكلسي القديم، وكذلك التراكيب المستحاثية فوق منحدرات الاورال الشرقية، وقد درست بعمق اكبر تراكيب الدياتوم من خلال نقلها الترسبات لمناطق الفولجا واكرانيا، وهذه الابحاث لم تفقد قيمتها العلمية حتى تاريخه عرضت أ. ب. جوزى توّزع سماكات الطبقات الرملية التي يحتوي عليها الديلتوم. والمواد التي تبحث في مستحاثات العصر الكلي لمناطق النباتات في الاتحاد السوفياتي وكذلك المواد التي تشرح الانواع الجديدة نشرت بشكل جزئي وشكل مقالات علمية، وبشكل اوسع نشرت في المرجع الخاص لعلم الدياتوم للاتحاد السوفياتي (التحاليل الدياتومية)، وفي اعداد هذا المرجع ساهمت أ. ب. جوزى بشكل فعال، وقد منحت مع غيرها جائزة الأكاديمي كلمروف (سنة 1950)، وكذلك الجائزة الحكومية للعلوم البيولوجية من الدرجة الاولى سنة 1951.

بدءا من عام 1951 ترتبط حياة أ.ب. جوزى بمعهد علم المحيطات المعطى له اسم ب . ب. شرشوف التابع لاكاديمية العلوم السوفياتية، حيث عملت أ.ب. جوزى في قسم جيولوجيا المحيط، والذي ترأسه لسنوات طويلة العالم الجيولوجي العضو المراسل في اكاديمية العلوم السوفياتية ل. بيزركوف.

وهنا بدأت أ. ب. جوزى بحثا كبيرا وجديدا ليس في الاتحاد السوفياتي فحسب، ولكن في العالم، لدراسة التوضعّات (الترسبات) المستحاثية في المحيطات المرتكز على علم الدياتوم .

ان هذا المعهد الجديد (معهد علم المحيطات) من أول الابحاث التي أجراها العاملون في قسم جيولوجيا بحار الشرق الاقصى تمكنوا من تجميع مواد حقيقية . وقد اعطيت دراسة الترسبات المستحاثية والنباتات الدياتومية الى أ. ب. جوزى. والاهمية العظيمة لهذه الابحاث تكمن في ان البنية الدقيقة للمستحاثات والتي قامت باعدادها أ. ب. جوزى قد استخدمت بنفس الطريقة التي تصلح للتحليل الدياتومي، والتي اوضحت نسبها في اعمالها المنشورة خلال فترة ما قبل الحرب. استرجعت أ. ب. جوزى جغرافيا بحار اليابان وبيرنج خلال العصر البليوستسيني والجزء الشمالي الغربي من المحيط الهادىء مستخدمة الطريقة الحيوية لعلم طبقات الأرض والتكوين الجغرافي القديم. قبل ذلك درست الرواسب في القاع من خلال دراسة الدياتوم وحددت تسلسل التشكلات الدياتومية .

وفي عام 1959 وبنجاح ، دافعت أ.ب. جوزى عن رسالة الدكتوراه في العلوم والتي نشرت ابحاثها في عام 1962 تحت عنوان ((علم طبقات الارض والجغرافية القديمة للجزء الشمالي الغربي من المحيط الهادىء)).

وفي هذه الابحاث جمعت أ.ب. جوزى نتائج الابحاث الكبيرة التي استمرت عدة سنوات، والتي بها أوضحت تغير تراكيب الدياتومي مع الزمن، وقامت بدراسة تقسيمات الدياتومي من العصر الباني للترسبات القاعية، واوجدت العلاقة بين تغيير الدياتومي مع الظروف المناخية، ومن خلال دراسة مواد الحفريات ومقارنتها مع المعطيات الحديثة اقترحت طريقة للتطور التاريخي لعالم النباتات البحرية الدياتومية، وتوضع الطبقات اعتبارا من العصر الحديث الوسيط. وأن ابحاث أ. ب. جوزى هذه ما تزال حتى الوقت الحاضر من حيث تكاملها ونتائجها النهائية نموذجا جيدا من بحوث الجغرافيا القديمة وعلى المستحاثات الميكروبية.

خلال الستينات شكلت أ. ب. جوزى وترأست مجموعة من الباحثين العاملين في معهد المحيطات التابع لاكاديمية العلوم السوفياتية التي تضم أخصائيين في علم المستحاثات الميكروبية في الدياتوم والترسبات الكلسية في النباتات البحرية، والتي قامت بابحاث واسعة في تحديد تسلسل توزع الرسوبات للنباتات البحرية في الطبقات السطحية لقعر المحيطات . وقد اعتبرت أ. ب. جوزى ان هذه الابحاث ضرورية لدراسة علم وصف الطبقات الارضية ولاعادة تنظيم الجغرافيا القديمة، وملا قحة الاحياء فيما بينها، وذلك لاحواض الدور الرابع. ونتائج هذه الابحاث الفريدة نشرت في كثير من الكتب، وكذلك على شكل رسالة علمية تحت عنوان «المحيط الهادىء : علم النباتات والحيوانات الميكروبية في الترسبات الحديثة للمحيطات» وقد صدرت في عام 1969.

وكانت أ. ب. جوزى تسعى دائما الى ربط بحوثها مع البحوث المعروفة لديها والتي تبحث في منتجات حفريات اخرى، وبحوث الذين يستخدمون طرقا فيزيائية دقيقة في بحوثهم العلمية حتى ان بعض المستحاثات التي استخرجتها ما زالت محفوظة كاملة حتى هذا الوقت.

كانت أ. ب. جوزى اختصاصية فريدة من نوعها في مجال علم النباتات المائية وهي تعرف القديم منها والحديث، فهي موسوعة علوم في مجال عملها، ولكن كانت اهتماماتها الاساسية تنحصر في عالم النباتات . وطبعا «مع تقدم العلوم وامكانية الحصول على طبقات عميقة وامكانية الحفر العميق في البحار، فاعتبارا من الستينات وضعت امام علماء المستحاثات مواد أقدم.

وفي البداية سعت أ. ب. جوزى لدراسة الترسبات التي تحتوى على النباتات القديمة من خلال عينات مخبرية مأخوذة من أماكن مختلفة، وبعد ذلك اتجهت الى الحصول على اكبر عدد ممكن من العينات بشكل منظم . وقد كان لـ أ.ب. جوزى اصدقاء داخل وخارج البلاد قدموا لها عينات كثيرة. وقد تمكنت أ.ب. جوزى من تقديم بحوث من المعطيات المتوفرة داخل وخارج البلاد عن عالم المحيطات من هذه الابحاث (دياتوم وبيو مستحاثات في المستوى العام 1978).

وهنالك ابحاث كثيرة عن النباتات في المحيطات والتي نشرت في مجلة الجيولوجيا التاريخية للمحيطات). ويستعمل في داخل وخارج البلاد الاطلس الخاص بالكائنات الميكروبية في ترسبات قعر عالم المحيطات والتي شاركت فيها أ. ب. جوزى بشكل فعال.

صفاتها ومكانتها :

من أهم صفات أ. ب. جوزى التأثر والانفعال المرتبط بسعة الاطلاع والمعرفة، ومعرفتها التامة للمراجع التي تخصها، تحب العمل. كل هذه الصفات جعلت أ. ب. جوزى تهدف دائما للاستجابة الفورية لكل الحقائق والافكار العلمية الجديدة، وقد امتازت أ.ب. جوزى بقدرات تنظيمية كبيرة من خلال عملها كرئيسة مجموعة او رئاستها للجان مختلفة، ولفترة طويلة ترأست أ. ب. جوزى لجنة النباتات المائية للمجمع العالمي الخاص بمسألة (طرق وتسلسل التطور التاريخي لاعضاء الحياة في الحيوان والنبات) والتابعة الاكاديمية العلوم السوفياتية.

وقد شاركت أ. ب. جوزى في كثير من المؤتمرات العلمية الداخلية والعالمية وكانت من منظمي كثير من المناظرات العلمية. وقد سعت كثيرا لايجاد علاقة الصداقة والتعاون مع المختصين من مختلف البلدان. وتعتبر أ. ب. جوزى من كبار علماء المستحاثات الميكروبية، ولها تقدير علمي واحترام من قبل زملائها الاجانب، وهي حسب رأيهم قد قدمت الكثير في علم الدياتوم، وأعطت سمعة عالمية لهذا الاختصاص في الاتحاد السوفياتي، وللتقدم العلمي للاتحاد السوفياتي. وتمتلك أ. ب. جوزى قدرة على جذب الناس اليها، وتوحيد آرائهم، وخلق جو من الصداقة والتفهم حولها. وقد بذلت جهدا، ولم تبخل بمعرفة أو علم الا نقلته لارشاد وتوجيه الاختصاصيين المبتدئين، وكثير من الاخصائيين في علم المستحاثات الميكروبية يشعرون بفخر واعتزاز لانهم من طلاب أ. ب. جوزى . ولكل من عمل او التقى بها فقد كانت نموذجا للانسان واسعة الاطلاع والمعرفة والاهتمام، ذات مستوى ثقافي عال، متوضعة قادرة، ومثقفة ثقافة حقيقية .

المصادر والمراجع

مراجع في الكتب

1. أعلام فلسطين - محمد عمر حمادة - دار قتيبة 1988 - الجزء الثاني (ص 29 - 31).
2. من أعلام الفكر والأدب في فلسطين - يعقوب العودات - عمان 1976 (ص 90) .
3. مصادر الدراسة الادبية - يوسف اسعد داغر ص 279 .
4. أعلام من أرض السلام - عرفان ابو احمد - حيفا 1979 ص 109 .
5. الموسوعة الفلسطينية الجزء الاول ص 425.
6. الاعلام - خير الدين الزركلي (بيروت 1980).
7. معجم المطبوعات العربية .
8. محاضرات في الاتجاهات الادبية الحديثة في فلسطين - ص (32) الدكتور ناصر الدين الاسد - معهد الدراسات العربية العالمية 1957 .
9. الكتاب العربي الفلسطيني .
10. بلادنا فلسطين .
11. رجال من فلسطين .
12. البيبلوغرافيا الفلسطينية.
13. دراسات في اللغة والتاريخ والاقتصاد عند العرب ، جمع ناجي علوش وجلال السيد - بيروت 1977 .
14. فلسطين الثورة يوم 1984/2/11 العنوان (المؤرخ الفلسطيني بندلي الجوزي) وهو من قلم نصري صليبا الجوزي، وقد أعيد نشره في جريدة الاتحاد يوم 1984/3/2.
15. عادل مناع، أعلام فلسطين في اواخر العهد العثماني 1918، جمعية الدراسات العربية، القدس 1986، ص 84، 85 .
16. بندلي الجوزي وكتابه «من تاريخ الحركات في الاسلام» من قلم الدكتور شوقي ابو خليل.
17. مجلة صوت العرب عدد آب ايلول 1990 العددان 8،9، ص 48.
18. بندلي الجوزي /كاتب من فلسطين ، جلال السيد، دار المبتدأ . بيروت .

عبد القادر الصالح

١٩٠٨ – ١٩٩٢

أسعد عبد الله الحاج محمد

عبد القادر الصالح

ملحق به كتابه (رأي في حلف بغداد والأحلاف الأجنبية)

مقدمة الطبعة الأولى

كنت أتحدث مع الأستاذ د.يحيى جبر رئيس مجمع اللغة العربية الفلسطيني (سابقا) والأستاذ في جامعة النجاح الوطنية، في مكتبه بالجامعة. وكان مهتما بنشر الموسوعة التربوية الفلسطينية، فسألني عن معرفتي بعبد القادر الصالح، فأجبته بأنه ابن قريتي وقريبي، وعندي معلومات عنه، ولكنها ليست بالقدر الكافي لكتابة سيرته، كما أنه رحمه الله متوفى. لكنه أصر على أن أكتب عنه فوعدته خيرا.

مرت الأيام وانشغلت، فقد كنت مهتما بتأليف بحث عن تاريخ فلسطين، إضافة إلى انشغالي في كتابة مسجوعة تاريخية للأطفال، عدا عملي بالتربية والتعليم وتحملي مسؤولية تعليم مساقي التاريخ والجغرافيا لطلبتي في الصف التوجيهي (الأدبي).. ناهيك عن الحياة التي نحياها والتي هي أشبه بمعركة نتصارع فيها لتدبير لقمة العيش، وشيء من الرفاه لأبنائنا. إضافة إلى حياة الفوضى التي نعيش، ولكن شاء الله العلي القدير الذي لا راد لمشيئته، أن تخبو تلك الفوضى وتضعف، بقدوم السلطة الوطنية الفلسطينية، وجاءت انتخابات المجلس التشريعي في العشرين من أيار سنة 1996. وتقدم لها سلام عبد القادر الصالح (أصغر أبناء المرحوم عبد القادر)؛ فتجمع أبناء المرحوم عبد القادر، جاءوا من كل صوب، من الأقطار العربية والأجنبية، ليقفوا إلى جانب شقيقهم أثناء الانتخابات.

وبحكم صلة القربى التي تربطني بهذه الأسرة الكريمة، وثقتي بنزاهتها ونظافة يدها كنت أكثر من زيارتهم في بيتهم في نابلس. وتذكرت وعدي للأستاذ د.يحيى جبر، ووعد الحر دين.

طلبت من الدكتور نضال عبد القادر الصالح أن يسلمني نسخا من أعمال والده عبد القادر وبدلا من أن يجيبني رفع سماعة الهاتف واتصل بعمان، وبعد يومين حصلت على ما أريد، ثم عدت إلى الذاكرة وأخذت أدون على قصاصات من الورق ما أعرفه عن عبد القادر الصالح. فهو ابن قريتي وقريبي وصديق المرحوم والدي، فقد التقيت بـه كثيرا في بيت المرحوم والدي في تلفيت وفي بيته في نابلس أو في دكان «سليمان البخيت» في القرية حيث اعتاد أن يجلس بعد العصر.

ثم أخذت استفسر من أولاد المرحوم عبد القادر عن بعض الأمور الغامضة، كما كنت استفسر عن بعض الأحداث من شيوخ مسنين عاصروا عبد القادر وكانوا على علاقة أو معرفة به، ثم أقابل كل تلك المعلومات، وأدرسها بعناية وصبر، ولكني كنت اختصر كثيرا منها ولا أدخل في التفاصيل، كي لا أطيل على القارئ الكريم في عصر السرعة الذي نعيش، وكما يقول المثل العربي المشهور «اللبيب من الإشارة يفهم».

كتبت ما اعتقدت أنه يعطي القاريء فكرة واضحة عن شخصية هذا الإنسان الذي عاش حياته مناضلا مندفعا ينبه قومه لكوامن الخطر، متمنيا عليهم أن يصحوا من غفلتهم، ثم مضى كما يمضي كل إنسان، وبقيت ذكرياته التي تذكرنا به في كل آن.

وأخيرا لا يفوتني في هذه العجالة إلا أن أقدم شكري لكل من ساعدني في إخراج هذا الكتاب بالشكل الذي أرجو أن يكون مقبولا؛ وأخص بالذكر الزميل ابن العم عبد القادر لبيب؛ صديق وقريب المرحوم عبد القادر الصالح، وكان له جهد مميز في جمع الوثائق والصور المناسبة لهذا الكتاب؛ كذلك أقدم شكري وتقديري للقريب والصديق فراس عمر الذي اطلع على الكتاب وقوّم لغته.

المؤلف
أسعد عبد الله الحاج محمد
1996/8/16

طفولته

ولد عبد القادر في قرية تلفيت في أوائل كانون الثاني سنة 1908م، وتلفيت هي واحدة من قرى قضاء نابلس (كانت نابلس في ذلك الوقت قضاء يتبع لواء عكا ويتبعان جميعا ولاية بيروت) على بعد عشرين كيلوا مترا إلى الجنوب الشرقي منها.

تمتد القرية فوق تلة تنحدر سفوحها تدريجيا فتبدو للناظر إليها قبة جميلة ثم ما تلبث أن تنحدر بشدة من جميع جهاتها باستثناء الشرق، فتشرف على الوديان التي تفيض بالماء في سنوات الخير، وفي الجهة الشرقية من القرية جبل عال يشرف عليها، وفي أعلى الجبل سهول كانت تقوم فيها قرية تسمى «عين عينا»، ولكن لم يبق من تلك القرية سوى الآثار الدالة عليها، وفي ذلك الجبل عين ماء، مدت منها المواسير تجري فيها المياه العذبة إلى حاووز أقيم في مدخل القرية، من الجنوب الشرقي يستقي منها أهلها.

والقرية محاطة من كل أطرافها بالأشجار المثمرة وفي مقدمتها أشجار الزيتون واللوز والتين والعنب، والمطل عليها في فصل الربيع يحسبها في عرس بهيج، إذ يرى أكاليل الزهور التي تطوق البلدة وتدخل حاراتها وأزقتها، بل تكاد تطغى على بناياتها المتواضعة.. حين تكون أزهار اللوز والمشمش والخوخ والتفاح والأجاص وغيره، قد تفتحت، والأعشاب تشكلت كسندس أخضر، يفرش أرضها فتصبح منتجعا حقيقيا يبعث الراحة والهدوء في النفوس السوية، فتطيب الحياة رغم عجرها وبجرها.

اسمه عبد القادر بن صالح بن عبد الفتاح بن بخيت بن ناصر بن منصور.... وتنتهي السلسلة بالحاج محمد، الذي تنتسب إليه أسرة عبد القادر، والحاج محمد جاء إلى الشام من الحجاز وأخوه القضاة، فانتشرت عائلة القضاة في شرق الأردن، وعائلة الحاج محمد في نابلس وبيت دجن وبيت فوريك وجالود وبيتا والمغيّر وجوريش وقريوت، وقسم منهم استقر شرق قرى الروسان شمال إربد؛ بينما تفرع عن آل الحاج محمد: آل الحاج يحيى الذين انتشروا في قرى المثلث «الطيبة والطيرة» وفرع منهم «آل حمدان» في الناصرة..

وجد العائلة ناصر المنصور قاد مسلحي قضاء نابلس لمحاصرة جيوش إبراهيم باشا في القدس أثناء الثورة السورية ضد محمد علي باشا، لإعادة ولاية الشام إلى الدولة العلية العثمانية، وبعد فشل الثورة سجن ناصر في سجن عكا ومات في السجن مسموما، ودفن في مقبرة جامع الجزار بعكا.
وعبد الفتاح جد عبد القادر كان من زعامات نابلس في العهد العثماني، ومن مآثره الحميدة أنه تدخل عندما تراكمت ضرائب الأملاك «الويركو» على أهالي قريوت « بلدة مجاورة لتلفيت»، فباعوا القرية لمقدسي فاشتراها لهم وأعادها إلى أصحابها، وكان عبد الفتاح من المقربين للمتصرف «حاكم نابلس».

وأبوه صالح كان من الوجهاء، وفي أصعب الظروف وأحلكها أثناء السفر بر لك «الحرب العالمية الأولى»، كان صالح يساهم في حماية واستضافة المهجرين من القرى الأمامية، وبينهم عائلة محترمة من عين سينا «قرية شمال رام الله» تتألف من أسرة حسن الحسيني الذي توفيت زوجته ودفنت في تلفيت،

وموسى الحسيني نسيب وقريب الشهيد عبدالقادر الحسيني.
أما أمه فهي وسيلة بنت علي بنت أمين بك أبو غوش.. وله أختان شقيقتان إضافة إلى أخ وأخت، وأخوه أكبر منه سنا ويدعى إبراهيم الذي عاش ومات دون أن ينجب.

عندما قامت الحرب العالمية الأولى كان عبد القادر في السادسة من عمره، ومع ذلك فإنه ظل يتذكر أنه كان في قرية تلفيت مخفر شرطة (جندرمة)، وظل يتذكر بحقد وألم الشرطي أنعام جابر (أبو أحمد) عندما سمعه وهو يجهر بالكفر، إذ قال لسجين فار «أنا ربك!!» وأنعام هذا أصبح ضابط شرطة زمن الإنتداب الإنجليزي على فلسطين.

أثناء الحرب أصيب الناس بفقر شديد، وفوق ذلك هاجم الجراد المنطقة فأكل الأخضر واليابس، وللقضاء على الجراد كانت الحكومة تشتري بيض الجراد لإحراقها وذلك لعدم توفر المبيدات الكيميائية لديها.

كان عبد القادرالصبي يعمل بجد في جمع بيض الجراد، ويذكر السعادة التي شملته عندما قبض من المسؤولين بعض المتاليك (المتليك عملة عثمانية وهو جزء من القرش) نظير عمله وعرق جبينه، ويقول كنت أرى الناس في قريتي يموتون في الشارع من الجوع ومرض التيفوس والكوليرا.

وجاءت عائلة الحسيني «حسن الحسيني وموسى الحسيني»، وسكنت في بيت الشيخ صالح العبد الفتاح «والد عبد القادر». وهو أضخم بيت في المنطقة في ذلك الوقت. ويقول عبد القادر عن تلك الأسرة الكريمة أنه كان لموسى الحسيني ابنتان الكبرى وجيهة وعمرها ثماني سنوات والصغرى فدوى وعمرها ست سنوات.

كان عبد القادر ووجيهة في سن متقاربة وهي الثامنة من العمر، وكان يلعبان في المنزل الكبير وحديقته الصغيرة.. ولكن حدث شيء ربما ليس من السهل فهمه، وهو أن هذا الطفل الصغير ابن الثمان سنوات يفتتن بطفلة صغيرة في مثل سنه عشقا عفا خالصا، لم ينساه طوال حياته، حتى أنه شاخ وتجاوز السبعين من عمره ومع ذلك تركت تلك اللحظات بصماتها على حياته كلها، يقول «عندما كنت أراها أرى هالة من النور السماوي تحف بها، وظللنا نعيش معا وأنا ازداد وجدا مبرحا».

لكن القيادة العسكرية أخذت بيت الشيخ صالح لتتخذ منه مقرا لها، وأسكنت عائلة عبد القادر وعائلة الحسيني في بيتين متجاورين.. لكن أسرة الحسيني ما لبثت أن رحلت إلى نابلس، وما لبثت أسرة عبد القادر أن رحلت إلى بيت دجن، وظل عبد القادر يتحرق شوقا إليها رغم أنها لم تعلم بذلك طوال حياتها..

يقول في ذكرياته « من أغرب الصدف أنني في شبابي بت ليلة في بيت صديقي المرحوم جواد سعيد النشاشيبي في القدس، وكانت وجيهة تلك الليلة تزور أم جواد دون علمي. وفي تلك الليلة دعوت «جواد» ليقيم عندي في تلفيت لبضعة أيام، ولما مررنا بعين سينا قلت لجواد: في هذا البيت نشأت فتاة أصمت

حصاتي وأشعلت نار الحب الملتهبة في قلبي الصغير وقصصت عليه القصة بطولها وعرضها ففاجأني بقوله لقد كانت الليلة الماضية وأنت هنا عندنا فأخذت بخناقه، فقال لي: ويحك هل أعلم الغيب؟ لا أدري أنك في طفولتك أحببتها».

«رحم الله وجيهة لقد شبت عن الطوق وترعرت في رحاب القدس ثم تزوجت رجلا من خيرة الرجال وأنجبت أشبالا ثم قضت نحبها وهي لا تعرف عني شيئا إلا ما كانت تتناقله الصحف والإذاعات بين الفينة والأخرى».

دخل عبد القادر مدرسة القرية في العهد التركي.. وما زال يتذكر المعلم الشيخ أنيس زيد، وكانت المدرسة في مسجد القرية، حيث يجلس أنيس مقابل الطلاب وإلى جانبه مطرق الرمان. وكان الطلاب كما يقول عبد القادر يتبارون في إهداء الشيخ قلائد القطين (التين المجفف) والبيض والفراخ والحطب.

وفي تلك السنوات كان عبد القادر يساعد أسرته في الزراعة في أوقات فراغه وعن تلك الفترة يتذكر أنه رعى الغنم والبقر، وحرث الأرض وحصد القمح ونقل الزرع ودرسه على البيدر، ونام في القش المحصود لحافه السماء بنجومها والهواء العليل الذي يضرب وجهه فيعطيه كل ذلك كتعة كبيرة. وعن قسوة الظروف التي مر بها عبد القادر في أواخر الحرب العالمية الأولى يتذكر أنه قضى شهر رمضان المبارك (الذي صادف موسم الحصاد) في دوما (قرية على مقربة الأغوار) مع المرحوم والده والمرحوم أخيه إبراهيم وأمه، فكان عبد القادر ينقل القش المحصود على الحمير من الأغوار إلى البيدر في دوما وهو صائم رغم شدة الحر وصغر سنه (عشر سنوات)...

ويذكر ليلة قاسية من شتاء 1918 حين حمل هو وأخوه إبراهيم السجاد على حمارين من نابلس إلى تلفيت مرورا بأرض بيتا ثم وادي الشاعر ثم قبلان (قرية مجاورة لتلفيت من جهة الشمال) يقول «وصلنا قبلان في المساء ثم أطبقت الغيوم على السماء وانهمرت الأمطار بغزارة».

ومع ذلك ظلا يسيران مع الأحمال حتى وصلا إلى سفح الجبل الذي يطل رأسه على تلفيت، واشتد الظلام واشتد انهمار الأمطار، ومالت الأحمال ولم يستطيعا تعديلها، ويتذكر تلك اللحظات القاسية ويقول إنه لم يعد يهتدي إلى الحمار إلا من صوت قضمه للأعشاب، فتركا الأحمال في الطريق وساقا الحمارين إلى القرية، وفي البيت قدم لهما طعام العشاء وكان مفتولا، فأكل منه حتى شبع. ولكن المرحوم والده أصر على أن يعودا للأحمال وأرفق معهما ابن عمه المرحوم عقل البخيت.

يقول عبد القادر «عدنا ليلا والسماء منهمرة والأرض غرقى وأخذ عقل ينهال بالشتائم على الوضع الذي نحن فيه. ولما وصلنا كروم التين في المكان الذي نسميه «القنطرة» دخلنا إلى مكان كنا نسميه «القصر» وهو محل مبني من الحجارة ومعقود بالطين والخشب وكان أخي وأنا نرتدي ما يسمى «بالبشت» وهو معمول من غزل الصوف الطبيعي. فنمنا والأرض مبتلة والبناء يدلف. ولقد كان نومنا في مثل تلك الظروف أعجوبة ثم أخذنا السجاد إلى بيت أحد أصدقائنا في قبلان وتركناه هناك لينشف».

التعليم

في أوائل سنة الإنتداب البريطاني على فلسطين افتتحت مدرسة حكومية في تلفيت، وتلقى عبد القادر علومه فيها وتخرج منها سنة 1922م، حيث انتقل إلى المدرسة الصلاحية في نابلس وحصل منها على الشهادة الابتدائية- ثم التحق بمدرسة النجاح الوطنية وحصل منها على شهادة الخصوصي، وكان مدير مدرسة النجاح آنذاك المؤرخ المشهور المرحوم محمد عزة دروزة الذي توفي في دمشق سنة 1984م.

ومن أساتذته في النجاح يذكر المرحوم أحمد طوقان وحسن عرفات وفهمي هاشم، وأما معلم اللغة الإنجليزية فكان رجلا أمريكيا يسمى مستر هارلو.

يتذكر عبد القادر تلك الفترة من حياته فيقول: كان من أبناء صفي السيد محمد كمال الذي أصبح فيما بعد رئيسا للتلفزيون الأردني منذ تأسيسه؛ وكان يلعب معه الشطرنج.. وفي مرة أدت هذه اللعبة إلى وقوع مشاجرة بينهما، وظل السيد محمد كمال يذكر تلك المشاجرة فيما بعد كلما التقيا، وكان يهدي عبد القادر ربطات عنق وجرابات حريرية، وظل كل منهما يكن للآخر المحبة والتبجيل.. ومن زملائه في مدرسة النجاح الأخوين إبراهيم وصادق الشنطي ومصطفى الحاج أحمد.

ومن أصدقائه في نابلس في تلك الفترة السيد عفيف الخوري وكان عمه الدكتور سامي رئيسا لمستشفى فلسطين.

يقول عبد القادر: كنت ما أزال في الصف السادس الابتدائي في الصلاحية حين كنت أزور بيت عفيف الخوري، وكان بيته يشرف على قهوة الهموز، وكانت أم عفيف تستغل وجود عبد القادر لتعليم أبنائها وبناتها اللغة العربية، لأن عبد القادر كان متفوقا في اللغة العربية والخطابة (حتى أنه في الصلاحية كان رئيسا للجنة الخطابة).

وذات يوم جاءت لزيارتهم معلمة نابلسية فأعجبها التعليم، فأخذت توجه أسئلة لعبد القادر أعطيت في امتحان المعلمات فأجاب عليها إجابة صحيحة، ووصل الأمر إلى أن تطلب من عبد القادر أن يعطيها دروسا في اللغة العربية فكان يذهب كل يوم بعد الظهر إلى بيتها، وأفرد أهلها لهما غرفة خاصة وطاولة وكرسيين متقابلين، وانتهت هذه الدروس بالحب والاتفاق على الزواج في الظرف المناسب، وكان ذلك على علم من أهلها.. ولكن عبد القادر ترك الصلاحية ودخل في مدرسة النجاح (بالقسم الداخلي)، فقلت زيارته لبيتها.

وفي يوم من الأيام أرسلت طالبة من مدرستها تحمل ظرفا وورقة وقلما، فالتقت الطالبة بمدير المدرسة المرحوم السيد محمد عزة دروزة، فأخذها منها، وأرسل يستدعي عبد القادر وقال: إن المعلمة (فلانة) أرسلت لك هذه الأشياء مع هذه الطالبة فهل أنتما مرتبطان، فقال عبد القادر نعم، فسلمه ما أرسلت.

غضب عبد القادر غضبا شديدا بسبب هذه الحادثة، وذهب إلى بيتها، ولامها لوما عنيفا، ثم قال:

(لست راحلا من هذه المدينة، فإن لم نلتق اليوم فإننا نلتقي غدا فقد أحرجتني مع المدير).

وبعد ذلك أنهى عبد القادر دراسته في مدرسة النجاح، ثم انتقل إلى القدس الشريف حيث التحق بالكلية العربية وفي نفس السنة انتقلت المعلمة السالفة الذكر إلى خان يونس، ولكن المراسلة لم تنقطع بينهما حتى سنة 1932. وسأدون لك أخي القارئ بعضا من القصائد الشعرية التي نظمها عبد القادر وأرسلها لتلك المعلمة، وذلك في ملحق خاص بالأدب أعددته في هذا الكتاب.

في الكلية العربية بالقدس كان عبد القادر رئيسا للجنة الخطابة، ويتذكر من زملائه فيها صادق الشنطي ونصرة نصار، وكان مدير الكلية المرحوم أحمد سامح الخالدي.

قام صادق الشنطي ذات يوم ليخطب فلم يوجه لعبد القادر كالعادة «حضرة الرئيس» لفتور كان بينهما، وفي اليوم التالي، أثناء طعام الإفطار حاول نصرة نصار «من الناصرة» أن يزعج عبد القادر، فأخذ يتحدث مع صادق الشنطي غامزا لامزا، ولما تأكد عبد القادر أن نصرة يعنيه صفعه صفعة قوية دوت لها القاعة، فأخذ نصرة يركض في اتجاه الإدارة يشتكي عبد القادر، ولكن مدير الكلية أحمد سامح الخالدي، استدعى عبد القادر وقال له «عندك غريزة القتال».. فأجابه عبد القادر «ليس من شأني ولا من طبيعتي أن أبدأ الناس بالأذى. ولكن إذا اعتُدي علي يكون ردي دائما عنيفا وشرسا». وكانت النتيجة أن مرت تلك الحادثة بسلام.

وفي القدس أعلنت الجمعية الأمريكية عن جائزة مالية لأحسن كلمة تكتب وتخطب حول مضار المسكرات، وفي اليوم المحدد للمسابقة امتلأت القاعة المخصصة لذلك بالمدعوين، ورغم كثرة المتنافسين إلا أن كلمة عبد القادر نالت الدرجة الأولى، وفاز بالجائزة المالية وعندما عاد للكلية أثناء وجبة طعام العشاء وقف الطلاب وأخذوا يهتفون لعبد القادر الذي رقع من شأن كليتهم بنجاحه الباهر.

كان في الكلية العربية بعض الطلاب ضخام الأجسام، يفتخرون بقوة أجسادهم، ويقومون بأعمال طائشة، ويحتسون الخمر، وكان عبد القادر يكره هذه الفئة من الساقطين، صحيح أن عبد القادر لم يكن مثلهم ضخم الجثة، لكنه كان متوسط الطول، ممشوق القوام، سريع الحركة في انتباه، وضاء الوجه، محبا وممارسا للصيد والرياضة، كثير التجوال عضوا في حركة الكشافة في كل مدرسة تعلم فيها.

ذات مساء، بينما كان عبد القادر يطالع في غرفة المكتبة، وقف إلى جانبه أحد أولئك الطلبة «الساقطين» (من صفد)، وحاول الاحتكاك بعبد القادر والانتقاص منه، فما كان من عبد القادر إلا أن شتمه.. ولكن عندما أنهى المطالعة، واستدار ليخرج من المكتبة وجده واقفا بالباب، وقال له: «أنت شتمتني وأنا أريد الانتقام».

حاول عبد القادر أن يبرر له الموقف، وأن يلطف من حدة غضبه، لكن دون جدوى... عند ذلك لم يعد أمام عبد القادر إلا واحد من أمرين، أن يستسلم للذل أو يقاوم، وفي تلك اللحظة قرر أن يقتله، ثم يهرب إلى تلفيت مشيا على الأقدام (تبلغ المسافة بين القدس وتلفيت حوالي ستين كيلو مترا. كما لم تكن وسائل المواصلات متوفرة، خاصة في الليل).

طلب عبد القادر من خصمه أن يخرجا من ساحة الكلية إلى بستان الزيتون المجاور ليقتتلا، فوافق؟ وما أن وصلا بستان الزيتون، حتى قفز عبد القادر وأخذ يرشق خصمه بالحجارة، وعبد القادر الفلاح عضو حركة الكشافة أرشق من خصمه، فهرب من أمامه وظل عبد القادر يطارده من شجره إلى أخرى، حتى تنبه بعض المعلمين فأسرعوا إلى الحديقة، وكانت النتيجة توجيه إنذار لكل من الطالبين عبد القادر وزميله خصمه.

في نهاية سنة 1928 حصل عبد القادر على دبلوم المعلمين، حيث عين معلما في جنين في بداية سنة 1929.

العطاء

عمل عبد القادر معلما في مدرسة جنين سنة 1929 كما أسلفنا، وهناك تعرف على نخبة من الأصدقاء والأصحاب أحبهم وأثر فيهم وتأثر بهم، ومنهم المرحوم الشيخ حلمي الإدريسي الذي يصفه بخفيف الظل، وكان ضليعا في الأدب، شاعرا يهفو للجمال.

كان الشيخ حلمي واعظا، وكان عبد القادر كثيرا ما يذهب معه إلى قرى قضاء جنين.

يقول عبد القادر، إن أحب قرى جنين إلى قلبه «يعبد»، وكان يحب أهالي يعبد، وعلى الخصوص المرحوم فضل الطاهر «أبو نبيل» لدرجة تفوق الوصف... ويقول «إنه بعد ذلك بعشرات السنين، جاء محمد بن المرحوم فضل الطاهر إلى بيتي في نابلس وأخبرني بأنهم عثروا في أوراق أبيهم على وصية مكتوبة تقول «إذا حزبكم الأمر، وقابلتم مشكلة فاستعينوا بعمكم عبد القادر الصالح في نابلس».

ثم يتابع «لقد أسعدني ذلك جدا وأبديت لهم استعدادي، ولا أزال،
وسأبقى، إن شاء الله، حتى آخر لحظة في حياتي على استعداد لكي أكون عند حسن ظن المرحوم أبيهم».

من الطرق التي ما زال عبد القادر الصالح يذكرها أثناء إقامته في جنين، أنه زار مجلسهم في جبع «قرية من أعمال جنين» رجل أعمى، فحدثهم أنه اتفق مع صديق له بصير على أن يسرقا مقثأة «بستان يزرع فيه البطيخ»، فركب البصير الأعمى ودخلا المقثأة. فكان البصير يقطف والأعمى يسير. وافتضح الأمر بعد ذلك فانكرا، وأقسم الأعمى أنه لم يقطف ثمرا، وأقسم البصير أنه لم يطأ الأرض (لم يَدُسْها)، وكان كل منهما صادقا في قسمه.

أثناء زيارة عبد القادر للحاج ذيب ارشيد في قرية الكفير قضاء جنين، حدثت الطرفة التالية: كان الحاج ذيب يريد شيئا محددا من ابنه المحامي مصطفى فأتاه غمزا ولمزا فقال: «كان هنالك ولدان ولهما أم عجوز، فتحدث أحدهما للآخر فقال له: ما رأيك في أن أمك العجوز الشمطاء ترغب في الزواج، فاستغرب الابن الثاني أن يكون الكلام صحيحا. فقال الولد الأول لأمه: بدنا نشتري لنا فدانا. فقالت الأم: ياقبرت امك منين لكم ثمن الفدان؟ فقال لها الولد الكبير «دفع فلان مئتي دينار مهرا ثم سكت وطال سكوته. فقالت الأم: قبرت أمكم اسعوا في سلاك الفدان».

في الإجازة السنوية صيف سنة 1931م سافر عبد القادر إلى القاهرة برفقة صديقه الشيخ حلمي الإدريسي (من جنين) وأحمد الدويك (من الخليل).

أعجب بالقاهرة وزار فيها جوامعها والقناطر الخيرية والأهرامات، ويقول: «صعدت على سفح هرم خوفو (الهرم الأكبر) حتى وصلت إلى رأس الهرم، ونقشت هناك اسمي على حجر في الهرم.

في سنة 1932 تقدم لامتحان Secondary Teachers Higher Certificate ونجح فيه بتفوق، فنقل إلى المدرسة الصلاحية (أضخم وأشهر مدرسة في نابلس آنذاك) لتدريس اللغة الإنجليزية في الصفوف الثانوية.

ويقول عن الصلاحية: إنها كانت في ذلك الوقت في حالة فوضى، وكان الطلاب لا يكترثون بالأنظمة والقوانين.. ولا يقيمون وزنا للمعلمين أو لمدير المدرسة.. فصمم عبد القادر على التدخل لمنع تلك الفوضى... وتعاون معه نخبة من زملائه المعلمين، على رأسهم، كما يقول، الأستاذ الشيخ محمد زكي أبو غزالة «أبو شاكر» ...ووصل الأمر إلى حد أنه هدّد مدير المدرسة، بأنه إن لم يتعاون معه على إعادة النظام والجدية للمدرسة فإنه سيكون له عدوا، فوعد المدير بالتعاون. وكانت أول خطوة جدية في طريق الإصلاح استدعاء أكثر الطلاب فوضى وفسادا، والتحقيق معه، واتخذ القرار بالإجماع على طرده من المدرسة طردا نهائيا، ثم بدأ التشدد في تطبيق القوانين المدرسية وأخذ النظام يستتب والتعليم يزدهر.

تكررت زيارات عبد القادر للقاهرة أثناء الإجازات، وفي صيف سنة 1933 التقى في القاهرة بشهيد فلسطين عبد القادر الحسيني الذي كان وقتها طالبا في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، فنشأت بينهما صداقة، ثم افترقا، ولكنهما التقيا مرة ثانية يوم كان عبد القادر الحسيني قائدا عسكريا في الثورة الفلسطينية، حيث كانا مدعوين لتناول وجبة الغداء عند آل ارشيد.

في صيف 1935 زار عبد القادر القاهرة مرة أخرى، وكان معه صديقه المرحوم نعيم الخياط، وفي الجيزة عاد وصعد هرم خوفو- فاكتشف أن اسمه قد محي، وأن صهيونيا نقش اسمه ونجمة داود مكانه فعاد فمحاها وأعاد نقش اسمه مرة ثانية.

في تلك الرحلة زار حلوان (مدينة قرب القاهرة)، وانبهر هناك بحدائقها ذات الطراز الياباني، وأطيارها تروح وتجيء وتغرد، والصبايا المصريات والأجنبيات مع أزواجهن أو أحبائهن.. وهناك قرر الزواج فجأة، وعندما عاد من تلك الرحلة بث همومه لصديقه أحمد الحبش، الذي لفت نظره إلى ابنة الشيخ محمد زكي أبو غزالة (أبو شاكر).. فتقدم يخطب وقد وفقه الله فتم الزواج الأول والأخير في حياة عبد القادر سنة 1935، ورزقهما الله سبحانه وتعالى أربعة رجال وأربع بنات، إضافة إلى ابن خامس (عبد الفتاح) توفي ولم يبلغ العامين من عمره... وما زالت زوجه أم نضال، بحمد الله وتوفيقه، تتمتع بوافر الصحة والسعادة بما تحمل من ذكريات، وبأبنائها جميعا الذين يلتفون حولها، ويشعرونها بالألفة والسعادة التي تحتاجهما كل امرأة بلغت سن الشيخوخة.

وهم جميعا، رجالا ونساء، يحملون درجات جامعية، وأخوهم الأكبر «نضال» يحمل شهادة الدكتوراه في الصيدلية، وهم جميعا متزوجون، وينعمون بالرفاء والبنين في أسرهم، والرجال هم: نضال «أبو داود» مازن «أبو العبد»، سامر «أبو المهند»، وسلام «أبو صالح». والنساء هنّ: شادن «أم سائد»، سمر «أم كاظم»، أمل «أم صلاح»، وسوسن».

في ستة 1942 عين عبد القادر مديرا للمدرسة الصلاحية، فسلك في إدارته أسلوبا جعلها من أفضل المدارس في فلسطين كلها، وارتكزت هذه السياسة على الأسس التالية:

جعل طلاب الصلاحية يدخلون ويخرجون من المدرسة في أوقات مختلفة عن دخول وخروج طالبات المدرسة العائشية لإبعاد فرص الاحتكاك.

أسس شرطة آداب سرية من الطلبة كانوا ينقلون له سلوك الطلبة في المدرسة وخارجها.

جعل لكل صف لجنة يختارها طلاب الصف، ثم تختار جميع لجان الصفوف، لجنة مركزية تمثل الطلبة، ويجتمع بها لتدراس مطالب الطلبة وحاجاتهم ضمن القوانين والأنظمة مع مراعاة الإمكانات المادية.

شكل في المدرسة لجانا للأنشطة: لجنة للخطابة وأخرى للكشافة وأخرى للعمل اليدوي الفني، إضافة إلى لجنة الرحلات المدرسية.

جعل للطلبة مسجدا في المدرسة وزوده بما يلزم من أدوات الوضوء والصلاة.

وكأمثلة على أسلوبه في إدارة الصلاحية بحكمة وحزم أدون بعضا مما حدث عارضا كيفية تعامله مع تلك الأحداث.

في أحد أيام الشتاء تراكم الثلج بسمك بسيط على أرض نابلس فلم يأت طلاب الصفوف الثانوية إلى المدرسة في حين أن طالبات العائشية داومن دواما كاملا. ولما عاد الطلاب في صباح اليوم التالي جلد كل واحد منهم عدة جلدات قصاصا لهم.

وقعت في يده رسالة مرسلة من مراهقة في مدرسة البنات إلى مراهق في الصلاحية ففتحها – فوجد فيها خطة (عسكرية) نظمتها المراهقة للاجتماع بالمراهق وذلك على النحو التالي:

أخبرته أنها ستذهب مع أهلها في يوم حددته إلى سينما غرناطة وأنهم حجزوا المقاعد 4، 3، 2، 1 وطلبت منه أن يحجز رقم 5 إلى جانبها، وحذرته من التواصل معها في أوقات الإضاءة ولكن عندما يسدل الستار وتطفأ الأنوار تتشابك الأيدي وتتقابل الشفاه. أعاد عبد القادر الغلاف وسلم الرسالة لصاحبها، دون أن يشعره بأنه يعرف محتوياتها، ولكنه أرسل في طلب والد البنت وحذره من خطورة فترة المراهقة وضرورة العناية بابنته وحمايتها في هذه السن الحرجة.

ج- كان يفاجئ الطلاب المشبوهين جدا فيفتشهم في حالات نادرة ووجد في جيوب أحدهم ثلاثين منديلا حريريا أهديت إليه من بعض الممرضات لوسامته فاستدعى قريبا له وعرض عليه أن ينقله من الصلاحية إلى مدرسة أخرى فرفض فقرر عبد القادر طرد الطالب وهكذا كان. وبعد ذلك بسنوات وبينما كان عبد القادر الصالح في مكتب وزير الدفاع الأردني جاء الرجل ومعه نفس الطالب ليدخله ضابطا في الجيش الأردني، ولسوء حظ ذلك الرجل أنه استشهد بعبد القادر ليثني على الطالب، فشرح عبد القادر

للوزير الأمر على حقيقته وقال: فإذا أردت ضابطا من هذا الطراز فليكن، ثم أنشد:

ويكاد من شبه العذارى فيه أن تبدو نهوده
جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومن يقوده

د- تشاجر معلم مع طالب في الصف، فضرب الطالب المعلم، فطرد عبد القادر الطالب ثم عمم على جميع المدارس أن لا تقبله، أما المعلم فقد سعى حتى نقله إلى قلقيلية.

كان عبد القادر مغرما بالرياضة والصيد، ومن أصدقائه الذين كان يخرج معهم في رحلات الصيد يتذكر محمد العثمان، وعدلي البيطار، ومحمد بن الحاج توفيق حماد، أبو يوسف الزواتي؛ وفي سنة 1942 أسس مع عدد من أصدقائه «جمعية إصلاح القرية».. وهو يقول في ذلك : كان هدفنا تطوير القرية ورقيها لتلحق بالمدينة، وفي الصلاحية فتح الباب على مصراعيه لكل طالب يريد الالتحاق بالثانوية، وكان يشجع ابن القرية على الالتحاق بالصفوف الثانوية ليلحق بأخيه المدني علميا واجتماعيا، وكانت الجمعية تصدر نشرة منظمة اسمها «الفلاح» ومما كتب فيها كلمة بعنوان «لو عدل القاضي لاستراح الناس» وهذا العنوان عكس العنوان المألوف «لو عدل الناس لاستراح القاضي» ومن هنا يستطيع اللبيب أن يسبر غور أفكاره في السياسة، فالإصلاح يأتي من القمة وليس من القاعدة... وهذا يقودنا إلى موضوع جديد وهو النضال والسياسة في حياة عبد القادر.

النضال السياسي

كانت كلمات عبد القادر وخطبه وأفكاره السياسية تدور كلها حول المعادلة التالية: «إن العدو اللدود للمسلمين والعرب هم بشكل خاص الأنجلو أمريكان. وإن أغرب وأسوء شئ هو أننا مسلمين وعربا، نتخذ من هؤلاء الأعداء الألداء أصدقاء خلصا نتفانى في خدمتهم ونغرق في محبتهم، ونتجاوز ملايين الإساءات التي ألحقوها بنا، ولو أدى كل ذلك إلى حتفنا وإلى خراب بيوتنا ومخالفة ديننا... إنها صداقة تقليدية غريبة من طرف واحد هم العرب والمسلمون، للعدو اللئيم الزنيم الذي يسفر عن عدائه للدين الإسلامي حينا، ويبطن الحقد والضغينة لكل ما هو عربي ومسلم حينا آخر، ولكنه كان ولا يزال وسيظل يكن لنا البغضاء والحقد والكراهية ولو عبدناه من دون الله».

في عام 1932م كان أهالي فلسطين منقسمين إلى مجلسي ومعارض وكان أفراد الشعب الفلسطيني يقتتلون لإرضاء الزعامات المنحرفة.. فتأثر عبد القادر ولم يستطع أن يتحمل تلك المأساة، فكتب قصيدة عن ذلك الوضع المزري لم يجرؤ صحفي على نشرها كما يقول. (للأسف لم أعثر على تلك القصيدة).

سنة 1936 هبت في فلسطين الثورة المسلحة، وتم الاتفاق بين قيادة الثورة العليا وبين عبد القادر الصالح، على أن تكون المنطقة الواقعة شرقي الطريق الرئيس بين نابلس والقدس من عقبة اللبن وحتى نابلس بما فيها الأغوار وأريحا ومنطقتها، خاصة به على أن يختار لها ما يشاء من أفراد وقيادة، فاختار قائدا للمنطقة من عقربا اسمه خميس كان مطاردا من حكومة الإنتداب، وبعد خميس قاد الثورة الشيخ

إبراهيم العبد من جالود (قرية على بعد خمسة وعشرين كيلومترا جنوب شرق نابلس). والشيخ إبراهيم مشهور في الكرم والجود والشجاعة، وكان شابا محبوبا هدافا بارعا.

لكن الثورة انتهت سنة 1939 بعد تدخل الزعماء العرب من الخارج والداخل لإنهائها، وبعد مقتل شهيد فلسطين عبد الرحيم الحاج محمد بطل معركة ذنابة (قرية قرب طولكرم).. فاهتبل الإنجليز الفرصة وأخذوا يشددون قبضتهم على فلسطين واستمروا في سياستهم المعتادة «فرق تسد».

في نهاية الإنتداب البريطاني على فلسطين تشكلت في مدن فلسطين اللجان القومية، وأصبح عبد القادر أمين سر اللجنة القومية بنابلس يقول عبد القادر «جاء مجموعة من الضباط العراقيين المشاركين في الدفاع عن القدس وقالو إنها مشرفة على السقوط والانهيار».. فاجتمعت اللجنة القومية بنابلس وبحثت الوضع في القدس، ودرست اقتراحا للاتصال بالملك عبد الله في عمان لإرسال وحدات من الجيش الأردني لإنقاذ القدس، وأثناء ذلك انسحب المجلسيون) من الجلسة في محاولة لإفشال المشروع ولكن الباقين بما فيهم عبد القادر أمين سر اللجنة عدوا الجلسة قانونية، وقرروا تشكيل وفد من نابلس إلى عمان ضم ستين سيارة... وعرضوا المسألة على الملك عبد الله الذي وعد بالتدخل الفوري؛ فعاد الوفد إلى نابلس؛ وفي اليوم التالي حدثت محاولة لاغتيال عبد القادر الصالح أثناء مظاهرة في المدينة، فأرسل المتآمرون من يندس بين صفوف المتظاهرين ليغتال عبد القادر، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد غير ما كانوا يتوقعون، وحين حاول المندس قتل عبد القادر، كان عبد القادر أسرع منه، فوضع حدا لتلك المؤامرة، فاعتقل عبد القادر في سجن «الدبويا» بنابلس، فهاجت الجماهير وطافت في شوارع المدينة وأحيائها، تهدد وتنذر. خرج عبد القادر من السجن، وقامت اللجنة القومية وجمعية إصلاح القرية بنابلس بتسوية المسألة بحكمة، وعاد عبد القادر إلى المدرسة الصلاحية ليباشر عمله مديرا لها مع الاستمرار في سياسته القائمة على الحكمة والموعظة الحسنة مع القسوة التي لا بد منها في بعض المواقف.

يقول عبد القادر (ولما انسحب العراقيون تركوا الأرض التي كانوا يحتلونها، ومنها المثلث الفلسطيني الخصب المشهور بلا حماية فأخذ اليهود من المروج الممرعة والتلال المكسوة بالخضرة ما طاب لهم أن يأخذوا وما تبقى.. انضم للأردن). وأطلق اسم الضفة الغربية على الجزء المتبقي من فلسطين بعد تطبيق معاهدة رودس. ويقول عن معاهدة رودس «لقد أطلعت بنفسي عليها وعرفت أكثر من شخص فرّط لا أقول في أشبار أو أمتار بل غض النظر عن كيلومترات مربعة من الأرض الطاهرة المقدسة المجبولة بأجساد الآباء والأجداد. ورأيت نهاية بعضهم لا أراكها الله في حبيب أو قريب فهي نهاية مزرية مذهلة وصدق القول: «إن الله يمهل ولكنه لا يهمل....».

وأما سبب الهزيمة حسب وجهة نظر عبد القادر فهي «بعدنا عن العمل بمبادئ الإسلام الحقة أنقذت التي أنقذت عرب الجاهلية من وهدة الظلام والضلالة إلى النور والتي كونت من عرب الصحاري القاحلة رعاة الإبل وأكلة الجرابيع الذين يئدون بناتهم خوفا من الفقر لا صونا للعرض، أمة ذات قيادة وسيادة ونبراس وهداية، والتي كونت حضارة وارفة الطلال يتفيأ ظلالها كل العالم المعروف آنذاك».

في سنة 1951 طلب الملك عبد الله من عبد القادر الصالح أن يرشح نفسه لمجلس النواب، ولكن عبد القادر اعتذر، وفي مرة ثانية أبدى الملك رغبته في دخول عبد القادر الصالح في البرلمان أمام المرحوم الشيخ عبد الله غوشة والشيخ عبد الحميد السائح فاعتذرا عن عبد القادر بقولهما: عبد القادر رجل علم ولا تهمه السياسة. ولكن الملك عبد الله عاد وأرسل أحمد الخليل حاكم رام الله ليعرض على عبد القادر مجلس النواب فجددّ عبد القادر اعتذاره لكنه فوجئ بزيارة المرحوم أحمد طوقان «وكان وزيرا» إلى بيته في نابلس، وكرر عليه رغبة الملك عبد الله بشأن البرلمان، وكان أحمد طوقان أستاذ عبد القادر في مدرسة النجاح، فقال له: أستاذي أبو العبد ، بيني وبين جلالة الملك عبد الله مودة وصفاء، وأنا قانع بما أنا فيه وراض عنه. فإذا ما أصبحت نائبا فربما أراد خطا سياسيا معينا وسرت على ضده، وهنا نختلف ويزول الود والمحبة وتحل محلهما البغضاء فما أغناني عن هذا البلاء.

فقال المرحوم أحمد طوقان: إنني لا أخالفك الرأي ولكني أخشى أن يستدعيك شخصيا، فأجاب عبد القادر: لكل حادث حديث. شعر عبد القادر بالضيق والحرج وبينما كان يرافق السيد مصطفى مراد الدباغ (مفتش معارف لواء نابلس والذي يصفه بالأخ الكبير والحبيب) إلى طولكرم ، رجاه أن يعطيه إجازة شهر ليقضيها خارج الأردن ولما عرف السبب قال:

ما بين طرفة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال

وفي اليوم التالي اغتيل الملك عبد الله وأصبح ابنه طلال ملكا للأردن فاستقال عبد القادر الصالح من المدرسة الصلاحية ورشح نفسه لعضوية مجلس النواب الأردني، وفاز في تلك الانتخابات وأصبح عضوا في مجلس النواب، وظل عضوا في مجلس النواب منذ ذلك الوقت فلم يخسر أي جولة انتخابية طوال حياته.

نائب نابلس عبد القادر الصالح

لماذا كان الناس ينتخبون عبد القادر الصالح، بل يأتي ترتيبه في المركز الأول في اللواء عادة.. هذا على الرغم من كثرة أعدائه وتزايد المؤامرات التي وصلت إلى حد محاولة اغتياله.

يقول عن الأفكار التي يؤمن بها، ويحاول جهده أن ينشرها في مجتمعه «أنا اؤمن بالوحدة أرضا وشعبا ونظاما يضم الدول العربية والإسلامية في بوتقة الإسلام الحق الذي يدعو إلى التآخي وإنصاف الناس من أنفسهم وعدم اعتداء أي انسان مهما كان لونه أو جنسه أو انتماؤه أو دينه أو طائفته أو مدى هوانه على الناس، أريد ابن المجتمع أن يكتفي فينال حقه الذي يستحقه من المجتمع موفورا وليس ناقصا وأن يقدم الفرد للمجتمع أقصى مايستطيع من الجهد. أريد أن يكون المسلم أخا المسلم لا يضارّه ولا يسلمه، أريد للفرد المسلم أن لا يعتز بغير الله وفقا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم «من اعتز بغير الله ذل». أريد للمسلم أن لا يكون عبدا لأي مخلوق مهما كان لونه أو جنسه أو ماهيته أو علوه في المجتمع». الخ.

هذه الأفكار التي يؤمن بها عبد القادر هي الأفكار التي يحلم بها شعبه، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه

كان خطيبا بارعا، شاعرا مرهف الحس، نظيفا لا يعتز إلا بالإسلام، أدركنا سر نجاحه في جميع الجولات الانتخابية التي خاضها.

كان كلامه يخرج من قلبه عفوا، وما يخرج من القلب يدخل قلوب الناس بسهولة ويسر... حتى الأعاجم لا يعرفون لغته، تأثروا بكلماته وشعره وخطاباته.

قد تستغرب أخي القارئ.. ولكن عبد القادر حضر مؤتمر السلم العالمي المنعقد في برلين الشرقية سنة 1954 ممثلا عن الأردن وكان معه في الوفد الأردني د.عبد الرحيم بدر والشيخ سليمان الروسان.. وفي حفل العشاء الذي أقيم لممثلي الشرق الأوسط، ألقى عبد القادر قصيدة شعرية، وعندما وقف المترجم، ليترجم القصيدة إلى اللغة الألمانية، طلب إليه المستمعون بإلحاح التوقف عن الترجمة، وظلوا سكوتا مستمعين حتى نهاية القصيدة ومطلعها.

أخذ الفؤاد بوجده المضني يبوح ويجهر
وإذا الغرام تجاوز المألوف لا يتستر

ومرة ثانية خطب في ناد من نوادي أوروبا، فكان الناس يصفقون ويهتفون قبل الترجمة، وبعد انتهاء الخطاب تقدم شاب وسأل عبد القادر: هل لاحظت أننا كنا نصفق ونهتف لك قبل الترجمة فأجابه: أجل. قال الشاب: هذا يعني أننا نفهمك بدون ترجمان، فهل بلغت من الخطابة والتأثير على الناس شأوا يتيح لك أن تجعل الناس يفهمونك وهم لا يعرفون لغتك!. فأجابه عبد القادر: أنا لا أتحدث دائما إلا من قلبي وما يخرج من القلب يذهب إلى قلوب الآخرين بلا ترجمان.

بات القارئ يعرف أن محور سياسة عبد القادر الصالح كانت تدور حول إقناع قومه بأن الاستعمار الأنجلو أمريكي، وهو العدو اللدود للإسلام والمسلمين والعرب والعروبة، ولا يتوقف عن ترداد هذا الكلام في كل مكان وكل مناسبة رسمية كانت أو شعبية، ويتألم لدرجة البكاء وهو ينبه قومه ويخاطبهم «هذا الوحش الكاسر الذي نتودد له وطالما تودد نا حتى أسرفنا في التودد والود، فلم تحل هذه الصداقة الموهومة المزعومة بينه وبين تدمير بيوتنا وبقر بطون حبالانا وتمزيق أشلاء شيوخنا وأطفالنا».

ويصف تلك الصداقة الغريبة بصداقة الذئب والحمل، ثم يتساءل «فعل بين الذئب والحمل يمكن أن توجد صداقة».

كان يحب المنابر ليشرح لقومه أينما كانوا أفكاره، فسافر إلى بيروت لحضور مؤتمر دولي، وكان يرافقه فضل االطاهر ود. عبد الرحمن شقير وهناك خطب ضد الأحلاف العسكرية، وأية أحلاف تلك التي تقوم بين الضعيف والقوي (الحمل والذئب).

سنة 1952م عاد الملك حسين إلى عمان من لندن بعد أن أنهى تعليمه ليباشر الحكم بنفسه، فوصلت إشارة هاتفية إلى عبد القادر الصالح وحكمت المصري للمثول بين يديه.

يقول عبد القادر- ذهبت لأرى شابا جميلا ممتلئا حيوية ولم أكن رأيته من قبل. وأخذ يعري رجال الحكم الذين يتخذون من مراكزهم سلما للوصول إلى غاياتهم الشخصية وأعلن أنه سيهدر آخر قطرة من

دمه في سبيل شعبه ووطنه».

يقول عبد القادر- ذهبت لأرى شابا جميلا ممتلئا حيوية ولم أكن رأيته من قبل. وأخذ يعري رجال الحكم الذين يتخذون من مراكزهم سلما للوصول إلى غاياتهم الشخصية وأعلن أنه سيهدر آخر قطرة من دمه في سبيل شعبه ووطنه».

قال عبد القادر للحسين «إني لأنصح لجلاتكم أن تختاروا رجلين حكيمين عندهما الخبرة الكافية والخلق القويم والضمير الحي فلا يتخذان من مركزهما سلما يصعدان عليه لقضاء حاجاتهم الخاصة».

لكن وصول توفيق باشا أبو الهدى إلى عمان، أقفل هذا الباب، فكانت تلك المقابلة الأولى والأخيرة من نوعها.

عندما انتشر الخبر بأن وزارة توفيق باشا أبو الهدى ستستقيل، أخذ المستوزرون في الضفة الشرقية يكثرون من ترددهم على السفير البريطاني وعلى كلوب باشا (قائد الجيش الأردني) في عمان، وفي الضفة الغربية وخاصة في نابلس كانوا يتوافدون على المستر «هكتبين» في رفيديا.

غضب عبد القادر لهذا السلوك المشين وكتب مقالة «بعنوان» وأتوا البيوت من أبوابها»... وقدمها لجريدة الدفاع فرفضت نشرها بحجة أنها تنطوي على توجيه، فقدمها إلى عبد الله نعواس لينشرها في جريدة فلسطين، فرفضت الجريدة بالحجة نفسها، فلجأ إلى مطبعة كمال زكريا بنابلس، ولكن كمال أعاد المقالة بعد عدة ساعات وقال لعبد القادر، إنه بأمر رئيس الوزراء تم تعميم على جميع المطابع في الضفتين عدم طبع المقالة، فقال له: كيف ذلك! فقال: عندما أخذت المقالة اتصلت بالمتصرف في نابلس، فاتصل المتصرف بوزير الداخلية ووزير الداخلية برئيس الوزراء، وهكذا كان. فذهب عبد القادر إلى السيد صالح عبد الرزاق طوقان وكان لديه آلات طباعة Writer Type

وطابعون، فطبع منها عدة نسخ، وأرسل واحدة منها في كتاب مسجل للملك حسين، ثم أخذ يرسل كل يوم برقية لمقابلة الملك، وبعد أربعة أيام استدعاه حابس المجالي قائد منطقة نابلس وسأله: «لماذا هذا الإلحاح». فقال له عبد القادر: «أنا مواطن في حاجة ماسة إلى المثول بين يدي سيد البلاد»، فأعطوه موعدا محددا لمقابلة الملك، وفي نفس الموعد أعطوه موعدا لثلاثة نواب آخرين وهم عادل الشكعة وحافظ الحمدالله ونجيب الأحمد؛ فألقى عبد القادر كلمة أمام الملك عرى فيها الحكومة وضرب الأمثلة العديدة وقال للملك! من حقك علينا أن نطلعك على الواقع ومن حقنا عليك أن تصغي إلينا. فقال الملك: «لحسن حظي أنني لمست السوء الذي تتحدث عنه بيدي هاتين. ولكني أرجو أن تعتبرني إنسانا أصيب وأخطئ فإذا ما أخطأت فهذا البيت بيتك تأتيه متى شئت لتدلني على الخطأ الذي سأعمل جهدي لإصلاحه».

فسأله عبد القادر عن الكتاب المسجل فأجابه أنه لم يصله، فقال عبد القادر: لذلك جئت بنسخة ثانية عن الكلمة والكتاب وسلمها للملك.

وبعد ذلك أخذت المخابرات تتابع أخبار عبد القادر، وكان الشيخ حلمي الإدريسي صديق عبد القادر في عمان مفتشا للشرعية فحضر مجلسا ضم رئيس لمخابرات الأردنية «باتريك كوجهل» البريطاني الجنسية. قال باتريك للحضور : إن أخطر شيوعي في الأردن هو عبد القادر الصالح، فأجابه الشيخ الإدريسي «إذا كان عبد القادر الصالح شيوعيا فكل المشايخ وفي مقدمتهم أنا، شيوعيون، فأنا كشيخ قد يمر بي فرض من

فروض الصلاة فلا أؤديه لسبب أو لآخر، أما عبد القادر الصالح، وأنا أعرفه تمام المعرفة عبر سنين طوال، فلا يفوته فرض»، فاستغرب الطاغية الإنجليزي موقف الشيخ الإدريسي فقال: إذن فعبد القادر الصالح وطني متطرف فرضي الشيخ الإدريس بذلك وانتهى الجدال. وأخذت المخابرات في نابلس تضايق مؤيدي عبد القادر، وتم استدعاء عبد الله العيسى وهو فلاح عادي من سبسطية تعرف عليه عبد القادر أثناء جولاته الانتخابية، فوجده ذا عقل نيّر عف الضمير جريئا في الحق فصادقه ؛ وكان عبد الله العيسى يتردد كثيرا على بيت عبد القادر، فقال رجل المخابرات لعبد الله العيسى «مالك ولعبد القادر الصالح فهو زعيم وأنت رجل بسيط فهو يسخر منك ويخدعك». فقال : «عبد القادر الصالح ليس في حاجة إلى مالي أو إلى رجالي وعندما أجيئه يستقبلني على الباب ويقدم لي بيديه فنجان القهوة والسيجارة ويتحدث إلي حديث الند للند ويودعني للباب»؛ فحبسوه فتره ومع ذلك قال لهم: «والله سأظل أزوره ما دمت حيا إلى أن يسن قانون يمنع زيارة عبد القادر الصالح».

وجاءت انتخابات سنة 1954 وفي نابلس تألفت قائمة ضد قائمة عبد القادر الصالح، ثم أعلن أحد معارضيه مقسما يمينا غموسا أن عبد القادر لن ينجح في الانتخابات مهما حاول، ووصل هذا الكلام إلى عبد القادر فكتب مقالا في جريدة الجبهة بعنوان «قبلنا التحدي وسنخوض المعركة «وابتدأ كلمته «أيها الصنم الذي خلقت لتعبُد لا لتُعْبَد، أقسمت أنني لن أنجح معتمدا على الاستعمار وأذنابه من أمثالك، وأنا أقسم أنني سأنجح معتمدا على الله وعلى الناس».

لماذا كان ذلك الرجل واثقا من أن عبد القادر لن ينجح في الانتخابات!؟ لأنه كان قد شارك في وضع خطة لتزييف الانتخابات ليلة الفرز، وتقرر أن يكون الفرز في غرف مغلقة، ومدبروا الخطة كانوا يعرفون عبد القادر نزقا مندفعا ودائما يحمل مسدسا، فيثيرون الفتنة بين عبد القادر والمتصرف، فيطلق عبد القادر الرصاص على المتصرف، ويطلق الحرس الرصاص على عبد القادر فيقتل أو يسجن- ولكن شاء الله تعالى غير ذلك، فقد عرف تفاصيل الخطة الدكتور مصطفى بشناق رحمه الله (صديق الشيخ إبراهيم قريب عبد القادر الصالح) فسافر إلى إبراهيم العبد في جالود وأطلعه على تفاصيل المؤامرة. فذهب عبد القادر إلى المدرسة الغزالية (مقر الفرز) بدون أن يحمل مسدسا، وكان عدد كبير من آل الحاج محمد ومؤيدي عبد القادر بصحبته في المدرسة الغزالية لحمايته إذا لزم الأمر.

أصر عبد القادر أن يكون الفرز علنا، وأصر المسؤولون أن يكون في غرف مغلقة، وكان الخلاف حول عملية الفرز يصل إلى الجماهير الغفيرة المحتشدة التي تنتظر نتيجة الفرز، وكادت تقوم ملحمة أمام المدرسة الغزالية، فأمر المتصرف أن يسير الفرز وفق القانون وأن يكون علنا، وهكذا نجح عبد القادر وسقط ذلك الرجل.

علقت بعض الصحف الأمريكية على نجاح عبد القادر وعزته إلى أنه يمثل الفلسطيني الجريح الحاقد المدافع عن حقوق فلسطين المغتصبة، وكتبت احدى الصحف، المصرية معلقة على نجاح عبد القادر تحت عنوان «نجاح صقر الأردن».

في بريطانيا تنشر التقارير السرية الخاصة بوزارة الخارجية البريطانية بعد مرور ثلاثين سنة عليها، وفي أواخر عام 1984 نشرت جريدة الشرق الأوسط التقارير السرية المرفوعة من السفارة البريطانية في عمان، إلى وزارة الخارجية البريطانية، وورد في التقرير السري أنه لم يتخط العراقيل التي وضعها المسؤولون من

بريطانيا وغيرها أمام المرشحين غير المرغوب في نجاحهم سوى اثنين:-
ممثل الجبهة الوطنية عبد القادر الصالح.
ممثل الاتجاه الديني الشيخ أحمد الداعور.

عندما عقدت أول جلسة لمجلس النواب المنتخب، اتخذ المجلس قرارا بالأغلبية لمنع الأقلية (عبد القادر والداعور) من الكلام.

ذهب عبد القادر إلى الملك حسين وشرح له الأمر محتجا، فاتصل الملك بالمسؤولين وطلب منهم عدم منع أي نائب من الكلام. وقال لهم في بريطانيا رئيس المعارضة له راتب ضخم وثابت من الحكومة.

يرى عبد القادر أن الملك حسين في معاملته مع الناس، يأخذ بالمبدأ الإنجليزي المشهور:
To err is human، to forgive is divine سافر عبد القادر إلى الهند كممثل للأردن هو وزميله د. عبد الكريم خليفة في المؤتمر الآسيوي الأفريقي الذي عقد في دلهي سنة 1955م؛ وفي دلهي قابل رئيس الهند جواهر لال نهرو، وفي ذلك المؤتمر اتخذ قرار بإدانة إسرائيل وتأييد العرب.

في سنة 1955 حاولت الحكومة الأردنية برئاسة هزاع المجالي تمرير حلف بغداد فثار عبد القادر وأخذ يخاطب الشعب أينما التقى به، ويشرح له مخاطر الأحلاف (بين الحمل والذئب) وفي منبر البرلمان قاوم بشدة هذا المشروع الذي يربط الأردن والعراق وتركيا وإيران بحلف الأطلسي، وعمت المظاهرات مدن الأردن في شرق النهر وغربه، ووقعت الاصطدامات في كل مكان، فانهارت حكومة هزاع المجالي وانهار معها حلف بغداد.

ألف عبد القادر كتيبا يشرح فيه آراءه في حلف بغداد ومخاطره على الأردن والعرب والمسلمين وسماه «رأي في حلف بغداد».
وبعد، فقد فرضت الإقامة الجبرية على عبد القادر الصالح سنة 1955م، وكان المتصرف بهجت طبارة (صديق عبد القادر)، فخيره بين الإقامة في بيته في نابلس أو في القرية فاختار القرية... وفي تلفيت أخذ يزاول عمله في الزراعة التي يحبها، فأصلح أرضا تتكون من ثلاثين دونما، وزرعها بأشجار الفاكهة وأشجار الزيتون.. ولكنه فوجئ بعد فترة بوصول رجال الشرطة إلى القرية لاعتقاله، وفي سجن نابلس وجد أنهم قد اعتقلوا كلا من عادل الشكعة، ونجيب الأحمد، ونعيم عبد الهادي ولبثوا جميعا في السجن أربعة أيام، ولكن الحاكم العسكري لنابلس صالح الشرع ذهب إلى عمان ورجا المسؤولين الإفراج عنهم، فأفرجوا عنهم. فذهبوا إلى مكتبه وشكروه على جهده، لكن صالح الشرع استبقى عبد القادر، ثم قال له: أتعرف لماذا نقل السيد حسن الكاتب (الحاكم العسكري لنابلس) الذي خلفته في مركزه، فقال له عبد القادر: لا، فقال إذن اسأل لتعرف.

فذهب عبد القادر إلى صديقه عبد الله الخطيب (مدير الصلاحية الثانوية وعديل حسن الكاتب)، فأخبره أن وزير الدفاع من السيد حسن الكاتب اعتقال عبد القادر الصالح، ولكن حسن الكاتب رفض، فغضب الوزير، ونقل حسن الكاتب من نابلس.

عبد القادر الصالح في الوزارة

في انتخابات مجلس النواب الأردني سنة 1956 نال عبد القادر الصالح المرتبة الأولى على لواء نابلس بفارق ألفي صوت عن المرتبة الثانية، وكان سليمان النابلسي مكلفا بتشكيل الوزارة، فعرض عليه وزارة الزراعة

فقبلها، ويقول إنه قبلها لأن صديقه علي نصوح الطاهر كان وكيلها، وبعد أن أصبح عبد القادر وزيرا للزراعة، زاره صديقه الدكتور مصطفى خليفة، وسأله إن كان سيستمر على نهجه الوطني الذي اشتهر به وهو في الحكم، فأجابه عبد القادر «إن خطي الوطني هو جوهر مسيرتي السياسية وإن وجودي في الحكم ليس إلا سحابة صيف عن قريب تقشع». وبعد ذلك انفعل عبد القادر وألف كتيبا جديدا سماه «عهد»، وأكد فيه أنه سيبقى على عهده وأنه لن يبدل أو يغير من سياسته ما دام حيا.

أثناء الغزو الثلاثي على مصر سنة 1956م أرسلت الحكومة الأردنية عبد القادر الصالح إلى دمشق بمهمة رسمية- للاتصال بسفير الاتحاد السوفيتي.. فسافر إلى دمشق مع صديقه حسن النابلسي الذي يصفه بالأخ الحبيب والرجل المثقف.

عرض على سفير الاتحاد السوفيتي رغبة الأردن في شراء الأسلحة والتعاون الاقتصادي مع الاتحاد السوفياتي، فأجابه السفير بأننا مستعدون لمد الأردن بالأسلحة، أما التعاون الاقتصادي فكيف يتم ولا يوجد بين البلدين تمثيل دبلوماسي، وأرسل مع عبد القادر رسالة للملك حسين تنص على أن الاتحاد السوفياتي موافق على تبادل التمثيل الدبلوماسي مع الأردن.. ولكن الحرب قد انتهت. وانسحبت إسرائيل من سيناء وغزة.. فأهملت الأردن موضوع الرسالة والتمثيل الدبلوماسي مع الاتحاد السوفياتي.

ثم قامت محاولة انقلابية في الأردن بزعامة قائد الجيش على أبو نوار، ولكن الملك تمكن من السيطرة على الأمور، ثم قامت الحكومة بحركة (تطهير) واسعة، ولكن عبد القادر يقول: كانت حركة التطهير ستمس متصرف نابلس (بهجة طبارة)، لكنه صمم منع ذلك بأية طريقة، لأن بهجة كان قد رفض تزويرالانتخابات النيابية في نابلس.

وذهب عبد القادر إلى الملك للدفاع عن بهجة، وأخيرا وافق الملك على إحالة بهجة على التقاعد، ثم عرف عبد القادر أن ضباط الأمن يحاولون الإعتداء عليه، فتدخل مرة ثانية وحال دون ذلك.

ثم سافر عبد القادر إلى هلسنكي (عاصمة فنلندا) لحضور مؤتمر السلام العالمي، كان معه في الوفد الأردني فايزة عبد المجيد الأدبية المعروفة، واصطحب معه زوجة أم نضال، وبعد انتهاء المؤتمر، سافر وزوجه إلى موسكو وزار ضريح لينين في الساحة الحمراء، والكرملين ومتحفه وجامعة موسكو وأعجب بالهندسة الروسية ويقول أنه شاهد «قص مجموعة من العمارات ثم جرها والموظفون يعملون فيها على أساسات مواقع جديدة معدة لذلك».

كما زار المعرض الزراعي الصناعي وبعض المصانع. لم تكن زيارة عبد القادر الصالح إلى موسكو رسمية، ومع ذلك فقد سألوه: أي شخص من الطبقة السياسية العليا تود أن تقابل. فأجابهم: أني لا أود مقابلة أحد من الساسة ولكن «أن تأتوني بإنسان مطلع يجيبني على مجموعة أسئلة حساسة عن موقف الدولة وحرية التبشير وإقامة الشعائر الدينية وعن الدراسة وعن الولادة والزواج والكتاب والمستشفيات»... الخ وفي موسكو صلى الجمعة في مسجد ذي طبقتين تصلي فيه المصليات في الصالة الرياضية، والرجال في الطبقة العلوية، وعند الخطبة يفتح الخطيب فتحة تطل على المصليات فيسمعن خطبة الجمعة ويأتي الخطيب بالآية القرآنية أو بالحديث الشريف باللغة العربية ثم يفسر الآية أو الحديث بلغة الجمهور.

ومن موسكو سافر وعقيلته إلى ستالنجراد وزار المكان الذي أسر فيه القائد الألماني باولوس ويقول: إنهم أخبرونا بأن الجيش الألماني الذي كان يطوق ستالنجراد مليون جندي (أثناء الحرب العالمية الثانية) ولم ينج من ذلك الجيش الضخم سوى خمسة وسبعين ألفا، وكانت معركة ستالنجراد بدء النهاية، نهاية غطرسة هتلر وجبروته.

وفي ستالنجراد حضر حفلة «سيرك» وتمرد أسد أثناء الحفلة وهو على حبل فوق رؤوس المتفرجين فدب الرعب في قلوب المتفرجين إلى أن هداه الله فاستجاب إلى أوامر مروضه فنزل إلى قفصه. ثم عاد إلى موسكو ومنها إلى نابلس.

ثم عاد إلى استكهولم ليمثل الأردن في مؤتمر للسلم العالمي، وورد في كلمات كثير من ممثلي أوروبا العطف على إسرائيل والتنديد بالعرب، وكان أشرسهم في ذلك ممثل هولندا، فسأل عبد القادر صديقا هولنديا: ما خطب ابن بلدك؟فقال: لما احتلت الجيوش النازية أوروبا وطورد اليهود أخذته رأفه باليهود من وجهة نظر انسانية بحتة، وظل من تلك الأيام وهو على علاقة طيبة بإسرائيل؛ هل لديك مانع في أن أدعوه إليك وتسمعه وجهة نظرك؟ «فوافق عبد القادر، وبعد نقاش طويل تمكن عبد القادر من التأثير على الرجل الذي كان مضللا وأدرك أن الحقائق التي يعرفها هي مزيفة ومقلوبة، وقال «لم يدر بخلدي أبدا أنكم المعتدى عليكم بهذا الشكل الشنيع».

بعد انتهاء مؤتمر استكهولم، غادر عادل الشكعة إلى إيطاليا، على حين سافر عبد القادر وفدوى طوقان إلى الصين، حيث حضرا حفلا ضخما في ساحة القصر الشتوي في بكين. وكانت الحشود تهدر «ماوتسي ون تسي» أي ليعش ماوتسي.

وأثناء الحفل قابل ماوتسي تونغ الذي يصفه بأنه ألطف الناس الذين قابلهم.

وفي حفل العشاء الذي أقامه شو أن لاي وزير خارجية الصين لممثلي الشرق الأوسط، جلس إلى جوار عبد القادر، وأثناء الحوار بينهما قال عبد القادر: «أنتم بشر قاسيتم الأمّرين وذقتم الويلات من ممارسات الاستعمار الوحشية، فأنتم لذلك تختزنون الحقد والضغينة وحب الانتقام من عدونا المشترك، وبذلك، تكون الأمة العربية قد كسبت ستمائة مليون مقاتل (عدد سكان الصين في ذلك الوقت)، وكذلك العرب، نحن وعددنا مئة وعشرون مليونا من البشر يختزنون الحقد والضغينة وحب الإنتقام من الاستعمار الذي سامنا سوء العذاب.

فنحن وإياكم بحكم الواقع والمنطق السليم في خندق واحد ضد عدو مشترك شرس واحد، رضينا أم أبينا...» .. ثم يقول: أعجب شوان لاي بهذا الأسلوب وهذه الطريقة في التفكير.

وعن الغرائب التي شاهدها في الصين يتذكر أنهم قدموا له وجبة سمك محلى بالعسل.، كما أن أقدام النساء لا تتجاوز بضع سنتمترات طولا، وتغزل أحد الشعراء الصينيين فقال»إن طول قدم حبيبتي لا يتجاوز سنتمرات». ولكن هذا العذاب رفع عن الفتاة الصينية منذ الاستقلال سنة 1949.

وعلى طول الطريق الفرعية الموصلة لمقبرة الإمبراطور شاهد تماثيل عديدة وبينها تمثال لجمل عربي فسأل عن ذلك فقالوا له إنها ذكرى دخول الإمبراطور إلى أرض العرب وهم يعتبرون العرب مثلهم أمة عريقة في الحضارة.

وفي المتحف الوطني شاهد الحجل والعصفور الدويري، وعن التراث الإسلامي في الصين يقول «وجد في الصين مسجدا مكتوبا عليه أنه بنى في العصر الأول الإسلامي، ووجد قبرا في أوساط الصين مكتوب عليه: «كل نفس ذائقة الموت» ثم أنه يوجد في بكين وحدها ستون مسجدا يعلم فيها الدين الإسلامي والتاريخ الإسلامي واللغة العربية وفي نزهة مع الشاعرة فدوى طوقان صعدا سور الصين العظيم الذي يقال لو أن حجارته فُكت لحوطت محيط الأرض من خط الإستواء أكثر من مرة.

في سنة 1960م أصيب عبد القادر بمرض شديد، فأمضى عدة أيام في المستشفى بنابلس، وفي أثناء فترة النقاهة، قامت المخابرات الأردنية باستدعائه إلى مكتب التحقيق في العمارة الشرقية بنابلس، واحتجوا بوجود تقرير يؤكد لهم أن عبد القادر الصالح شيوعي، وأنكرعبد القادر ذلك إنكارا شديدا، وبعد انتهاء التحقيق، سافر عبد القادر إلى عمان وقابل الملك حسين وقال له «والله ثم والله ثم والله لولا أنني مسلم ولولا أن الماركسية لا تنسجم مع الإسلام لأصبحت شيوعيا. فإذا كان هنالك من يحتفظ بدينه مع الشيوعية لأصبحت شيوعيا. قال الملك حسين: عبد القادر إني أرى صحتك سيئة جدا وإن كل همي أن تستعيد صحتك كما كانت وأن تعود إلى ما عهدته فيك من صراحة وجرأة في الحق في البرلمان. وأما الأشياء الأخرى فأنا لها.

ثم هاتف رئيس الوزراء ، ثم مدير المخابرات العامة، قائلا له «إن عبد القادر الصالح عندي فكفوا عن مطاردته».

وبعد، فقد تقلد عبد القادر الصالح منصب الوزارة في عدة وزارات وهي «وزارة الزراعة والدفاع، وشؤون الرئاسة، والإنشاء والتعمير، والأشغال العامة» وذلك في الفترة 1967/1956م.

على أبواب النكسة

سبق أن ذكرت أن عبد القادر دخل الوزارة الأردنية لأول مرة سنة 1956، ثم تقلب في عدة وزارات حتى سنة 1967م، ومع ذلك فإن المؤامرات استمرت تحاك ضده، سواء من المخابرات العامة أو عملاء الأجهزة الأجنبية أو غيرهم من الحاسدين، وسبق أن ذكرت أن عبد القادر اعتقل سنة 1960 ثم أفرج عنه.

كانت الأبواب مغلقة، وهذا ليس بالأمر الغريب في الوطن العربي، فالأبواب مغلقة في الغالب إلا للمنافقين والمتسلقين، والذين يدعمون الأنظمة ويتحولون إلى دعاة ومبشرين يبررون أخطاءها ويمتدحون حسناتها، وفي المقابل ينبهون ويسلبون ما يحلو لهم، ويمتصون دماء الشعوب المسكينة التي لا حول لها ولا قوة.

في ذلك الواقع المر ماذا يستطيع عبد القادر الصالح أن يفعل، والمثل الشعبي يقول «يد واحدة لا تصفق».

في تلك الظروف وصل عبد القادر إلى سياسة ذات شقين، أن يستمر في المعارضة منبها قومه للأوحال التي يغرقون فيها، ويرجوا أن يرعووا وأن يعودوا إلى تراثهم الأصيل ودينهم العظيم، ليعيشوا كرماء أحرارا أعزاء. والشق الثاني: إن يصادق الملك حسين، فهو رأس الدولة وصاحب الصول والطول فيها.

إنها سياسة مركبة معقدة خطيرة، ليست بالسهلة، ولا يقدر عليها إلا من كانت له جذور قوية في تربة هذا الشعب تحميه أثناء المسير، وهكذا كان عبد القادر.

صادق الملك حسين وحارب سياسة الأردن، واستمرت المؤامرات تحاك ضده، ووصلت في أحيان كثيرة إلى حد محاولة قتله، ولكن الله تعالى أراد بمشيئته أن ينقذه. ربما كانت هذه السياسة خاطئة، في نظر الكثير خاصة من الشبان المتحمسين الأبرياء المندفعين لخدمة أوطانهم وكرامتهم وأصالتهم.

وربما كانت تلك السياسة صائبة لرجال كبار عركوا الحياة وعركتهم، وجربوا وحاولوا وناضلوا وأدركوا في النهاية مرارة الواقع الأليم. فوصلوا إلى هذا الحل: منبر جديد من نوع غريب، لعل وعسى. إنه منبر يائس لكنه منبر على أية حال، ووجود شيء ربما كان خيرا من لا شيء .. أليس هذا ما يسمونه بالواقع».

في أوائل عام 1967م عرف عبد القادر بعض الأسرار لمؤامرات تحاك في دولة كبرى لتصفية القضية الفلسطينية، فأخذ يصرخ لقومه محذرا منبها أن الخطر يقترب، فأخذت زمرة من عملاء الأنجلو أمريكان، تحاول حرق عبد القادر كي يخبو صوته وتضيع كلماته، فقام نفر منهم يدعون الوطنية بالدعاية واتهام عبد القادر بأنه انحرف عن خطه الوطني السليم الذي اشتهر به، وأنه أصبح نصيرا قويا للحكومة الأردنية والملك حسين، فقاموا بحرق صيدليته في نابلس (صيدلية ابنه نضال)، في محاولة يائسة لطعن عبد القادر في وطنيته لإسقاطه وضربه في كبريائه وعزته، التي كانت عنوان حياته؛ وأخذت الإشاعات تنتشر والناس في ذهول غير مصدقين ما يسمعون من تلك الإشاعات. ولكن ما جرى عقب الاحتلال الإسرائيلي للضفة كشف الحقيقة والوجه البشع لمن فعلوا ذلك.

في سنة 1967 جرت انتخابات برلمانية جديدة في الأردن، وأثناء الدعاية الانتخابية أخذ عبد القادر يتكلم عن المخطط الرهيب الذي يحاك في الدولة الكبرى المعنية، لتصفية القضية الفلسطينية وإذلال الشعب الفلسطيني، وتشكلت قائمة لمنافسة قائمة عبد القادر؛ وبذلت ألوف الدنانير ومئات الوعود للناخبين وبعض المرشحين لإسقاط عبد القادر؛ بل وصل الأمر إلى محاولة تصفيته وقتله. فكان الشبان المتطوعون من الحاج محمد وغيرهم من محبي عبد القادر يحرسون منزله ويرافقونه في أي مكان يذهب إليه ليلا نهارا، وشاء الله الذي لا راد لمشيئته أن ينجح عبد القادر في الانتخابات.

وبعد نجاحه رغم الصعوبات والعراقيل التي واجهته سافر إلى عمان، وأخذ إجازة من مجلس النواب، ثم قام بزيارة لسفارات العراق والكويت وإيران في عمان، ليأخذ منها كتب التوصية لزيارة تلك الدول، وأثناء ذلك كان ابن عمه المرحوم قاسم الذيب حارسه يرافقه كظله؛ يقول المرحوم قاسم الذيب «لما دخل عبد القادر على السفير العراقي في عمان، جلست عند السكرتير الأول للسفير العراقي، فسألني «هل هذا عبد القادر الصالح».

قلت له: نعم. فقال السكرتير «والله لولا أن جذوره عميقة ووطيدة في تربة الشعب لاقتلعته أمريكا وحطمته».

سافر عبد القادر إلى بغداد والكويت وطهران، وفي طهران أقام عند صديقه القديم الذي يصفه بالحبيب علي نصوح الطاهر سفير الأردن في إيران.. وهناك اجتمع سماحة الحاج أمين الحسيني في فندق هلتون- ودار نقاش ساخن بين الزعيمين الفلسطينيين، ذلك أن عبد القادر لام سماحة الحاج على ثقته التي منحها لأشخاص ليسوا أهلا لها، وسمى شخصا بالاسم، فقال سماحة الحاج «أرجوا أن لا تعيد ذكر اسمه أمامي فقد طلبت من كل أصدقائي وأعواني في المنطقة أن يقاطعوه وأن ينبذوه».

فسألوه عبد القادر: لماذا؟

قال سماحته: لقد ثبت لنا أنه كان عميلا وجاسوسا لأكثر من جهة قال عبد القادر: أليس السيد(X) من أصدقائك؟

عبد القادر: لا يزال السيد (X) والجاسوس الدولي صديقين حميمين ولا يفترقان أبدا.

وفور سماع سماحته هذا الخبر طلب من أحد أعوانه أن يبرق فورا إلى (x) لمقابلته. ثم اتجه لعبد القادر وقال: «أنت ظلمتني يابني وسأنشر مذكراتي وسيجد من يتاح له فرصة قراءتها أني مظلوم». ولكن سماحة الحاج أمين الحسيني توفي رحمه الله ولم يعثر أهله وذووه على أي مذكرات. وندم عبد القادر على ذلك الحوار وقال «قسوت على سماحته» ومعلوم أن عبد القادر يكنّ محبة قديمة وأصيلة لآل الحسيني.

وعبد القادر معروف عنه الجرأة والصراحة فيما يعتقد أنه حق، لا يخاف إلا الله سبحانه وتعالى وبلغ من جرأته أنه ألف كتيبا سماه «تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم»، وفيه يخاطب بعض المتزعمين

ومدعي الوطنية ويعريهم، وعن ذلك الكتيب يقول «ولقد تحديت كل من أشرت إليه بإصبع الإتهام وأوردت له مواقف غير وطنية وعينت الزمان والمكان والأفعال المشينة التي قام بها من وصمته بالخيانة وهي تهمة خطيرة كبرى. وتحديث كلا منهم أن يرد علي وأن يدافع عن نفسه فلم يستطع أي منهم أن يرد ويكذب التهم الخطيرة الموجهة إليه».

والآن لنعد إلى طهران، ففي نهاية شهر أيار سنة 1967م طلب سفير الأردن (علي نصوح الطاهر) من عبد القادر العودة إلى نابلس بالسرعة الممكنة. لأن الحرب العربية الإسرائيلية قائمة حتما كما قال وفي القريب العاجل. فغادر عبد القادر وصحبه طهران إلى بغداد، وفي الطريق أذاعت الإذاعة الأردنية بان الملك حسين، غادر عمان بالطائرة لمقابلة الرئيس جمال عبد الناصر في القاهرة؛ فقال عبد القادر لأصحابه «لقد ضاعت الضفة الغربية»، فاستغرب أصحابه كلامه.. ولكنه يقول «بنيت ذلك على البند الثالث من المخطط الرهيب الذي نشرته بين المواطنين أثناء الانتخابات».. وقامت الحرب التي استعدت لها إسرائيل بينما لم تفكر أي وحدة من الجيوش العَربيّة بالقتال أو أعدت له، ولكن كان هنالك بطولات فردية قام بها بعض الأفراد بدافع ذاتي وجعجة إعلامية فارغة، فمنهم من ألقى بالإسرائيليين في البحر وجعل أجسادهم طعاما للأسماك، ومنهم من أسقط في خياله المريض مئات الطائرات ومنهم هدر وأنذر، وكانت تلك التهديدات وتلك الأخبار لا تسمن ولا تغني من جوع.

وهكذا سقطت الضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء وهضبة الجولان، وانتهت بذلك تلك الحرب العجيبة التي سماها عبد القادر «حرب المهاميز» ويعني بذلك أن الطرف المنهزم لم يستعمل إلا المهاميز ليحث خيوله للإسراع في الهرب.

يقول عبد القادر: ألّف يهودي فرنسي زار إسرائيل سنة 1966 ولبث فيها ستة أشهر واتصل خلالها بكثير من رجالات إسرائيل في داخل الحكم وخارجه- كتابا بعنوان «نهاية الشعب اليهودي»، ويعني بهذا العنوان أن اليهودي الذليل المستخذي المعروف في التاريخ لم يعد موجودا، وإنما حل محله الشاب الإسرائيلي المتغطرس المتعجرف ذو الطموحات والفتوحات.

ويؤكد المؤلف أن رجالات إسرائيل كانوا مرتاحين جدا للإعلام العربي الذي خدم إسرائيل، لاسيما الأحمدين «أحمد سعيد وأحمد الشقيري» اللذان ملآ الدنيا ضجيجا وتهديدا فاستغل الإسرائيليون ذلك لشحن أطفالهم بكراهيتهم للعرب. وبالطبع لم يتحقق من تهديداتهما شيء، وكأن المثل العربي «أسمع جعجعة ولا أرى طحنا» يعنيهما.

بعد سقوط الضفة الغربية استقر عبد القادر في بيته في نابلس، يعيش مع من بقي من أصدقائه حيا، ويعتني بأرضه وأشجار الزيتون التي يحبها، ورغم قيام كثير من المتزعمين في الضفة الغربية، بمتابعة أنشطتهم السياسية بطريقة أو بأخرى فإن عبد القادر فضل السكون والهدوء على جراح لم تلتئم، وكيف تلتئم وشعبنا يسير من سيء إلى أسوأ.

ويعترف العدو قبل الصديق بأن عبد القادر الصالح هو الزعيم المعروف المشهور الذي احتفظ بكرامته بعد الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية وحتى آخر لحظة في عمره.

النهاية

منذ حرب حزيران سنة 1967 ظل مجلس النواب الأردني منحلا، ولكن الملك حسين افتتح المجلس الوطني الاستشاري في عمان في أوائل الثمانينات، ودعا إليه النواب الذين كانوا قد انتخبوا في العام 1967؛ فأخذ عبد القادر يسافر إلى عمان لحضور جلسات المجلس الوطني الاستشاري، كلما عقدت تلك الجلسات.

ومع وجود هذا المنبر الجديد عاد عبد القادر ينبه قومه إلى خطورة الاستعمار وعملائه، وإلى ضرورة الصحوة، فالموقف لا يحتمل كل هذا الخنوع والاستسلام، وهأنذا اختصر بعضا مما قاله في خطاباته تلك:»..... أصبحت لغة الناس الذين يريدون ويحبون الحياة الحرة الكريمة الرفيعة المستوى، القنبلة الهيدروجينية والذرية والكوبالتية والصوايخ... ولكن المذابح والدماء التي تسيل في إيران والعراق وسوريا ولبنان والدمار الذي حل والمذابح التي تجرى وجرت في فلسطين لم يردها ولم يسمعها متمدن ولا تحدث عنها متحضر. وهنالك في بعض الأحيان يسمع هنا وهناك نغمة حقوق الإنسان، ولكن لم يرد قائلها ولا عنى رافعها العرب والمسلمين أبدا، فالعرب والمسلمون خنع، مستخذون لا يرون ولا يسمعون ولا يفهمون ولا يتدبرون...، ولا يهتمون بما يدور حولهم ولا المكائد المهلكة التي تعد لهم.... .

ورحم الله الشاعر العربي الذي سلبت نوقه فأخذ يتأسى:

لو كنت من مازن لم تستبح — بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذا أقام لنصري معشر أنف — عند الكريهة إن ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم — طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم — في النائبات على ماقال برهانا
لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد — ليسوا من الشر في شيء ولو هانا
يبغون من ظلم أهل الظلم مغفرة — ومن إساءة أهل السوء إحسانا» .

أخي القارئ أدركت الآن موقف عبد القادر الصالح من قضية حقوق الإنسان التي تتحدث عنها أحيانا الدول الغربية والتي تهدف إلى حماية حقوق الإنسان الغربي والإسرائيلي وسحق الإنسان العربي والمسلم.

وعن قضية حقوق الإنسان، فإن الشعب الألماني مازال يكفر عن ظلم أجداده لحقوق الإنسان اليهودي، رغم مرور عشرات السنين على الحرب العالمية الثانية، ورغم الأموال الهائلة التي قدمها الشعب الألماني وما زال يقدمها لإسرائيل فإنه ما زال مهتما، ولم يحصل على الإفراج بعد.

فما هو رأي عبد القادر الصالح في هذه القضية: «وبهذه المناسبة أود أن ألفت نظر القراء إلى كتاب ألفه روسي عام سنة 1976 وكان قد جاء إلى إسرائيل فأقام فيها فترة ثم عاد إلى روسيا ليؤلف هذا الكتاب

الذي ترجم في سوريا من اللغة الروسية إلى اللغة العربية بعنوان «احذروا الصهيونية» ويدلي المؤلف بأكثر من دليل منطقي على أن النازية والصهيونية كانتا أثناء الحرب العالمية الثانية حليفتين. فهو يقول أن الصهيونية طلبت من حليفتها النازية قتل شيوخ اليهود وعجائزهم وتهجير الشباب إلى فلسطين ليكونوا نواة دولة إسرائيل. ويقول المؤلف في كتابه هذا أن الجيوش النازية المندحرة المولية الأدبار أمام أبطال الاتحاد السوفياتي، لم يكن لديها ناقلات جنود كافية فاتصل بعض المسؤولين النازيين باللجنة الصهيونية في بلجراد عاصمة يوغوسلافيا وطلبوا منها الاتصال بابن جوريون ليتصل بدوره بتشرتشل ليمد الجيوش الألمانية المولية الأدبار بكمية كافية من الناقلات فأرسل للنازيين عشرة الآف ناقلة».

في إحدى جلسات المجلس الوطني الاستشاري بعمان بكى عبد القادر بكاء مرا، أثناء إلقائه خطابه الذي قال فيه عن العرب والمسلمين»... يلهثون وراء صداقة وهمية لعدو زنيم لئيم، نستجدي صداقته وهو ينعم بالمليارات المتزايدة من ثروتنا الطبيعية، وهو دائب الولوغ في دمائنا، ويتخذ من ساحتنا الفسيحة وحروبنا الأهلية سوقا مفتوحا لصادراته، ويكدس المليارات من الدولارات التي يخزنها متمولوا الأسلحة العربية المصنوعة في بنوك الضبع التي لا تمكّن صاحب المال العربي من التصرف بأمواله إلا على موائد القمار أو تعاطي الراح حتى الثمالة، أو ملاحقة الحسناوات.. الخ».

وكانت تتواجد في قاعة المجلس الوطني الاستشاري الصحيفة الأردنية المشهورة محاسن الإمام. أصرت محاسن الإمام على مقابلة عبد القادر الصالح، ودامت المقابلة أربع ساعات، ونشرت بعد ذلك مقالا عن عبد القادر في مجلة الفجر عدد 121 بتاريخ 1983/5/16، تحت عنوان «قراءة في عقل سياسي مخضرم».

ويعلق عبد القادر على المقال بقوله «غفر الله لها لقد أظهرتني بمظهر العجوز المتداعي الذي لا يعرف إلا البكاء، ولكن فاتها قول الشاعر العربي «إن يشب شعري فالقلب صبي».
والمثل الإنجليزي.A man is as old as he feels

وقبل أن اختتم هذه السيرة انقل إليك أخي القارئ هذه الكلمات التي كتبها عبد القادر أثناء تدوينه لكتابه «ذكريات سنة 1984» اكتب هذا الآن (؟/1984) والمسلمون الفلسطينيون والأشراف من مواطني لبنان يعانون سكرات الموت والعرب والمسلمون في أقطارهم وأمصارهم المختلفة ينتظرون ويطيلون النظر وكأن بعضهم كان يتوقع نفس المصير لهذه الطلائع من أبطال فلسطين، ويخيل إلي أن بعض أشقائنا العرب شامتون ولا شماته في الموت. ولكن شبابنا وأبطال فلسطين، بقايا عرب القادسية واليرموك ومسلمي حطين وبدر الكبرى يتخذون شعار لهم: «اطلب الموت توهب لك الحياة».

توفي عبد القادر الصالح رحمه الله وغفر له 1992/4/6 ودفن في مقبرة تلفيت «مسقط رأسه» في جنازة لم تشهد لها القرية مثيلا، «وكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام».

أخيرا فلا يبقى للإنسان بعد مماته إلا ما عمل من عمل صالح يخلد ذكراه إلى يوم يبعثون.

ملحق أدبي

كان عبد القادر الصالح يمتلك عاطفة جياشة وموهبة شعرية وكان رقيقا مرهف الحس، وقد ابتدأ الكتابة مبكرا في سن الخامسة عشرة من عمره، وسأدون في هذا الملحق نماذج من شعره ليتعرف القارئ على هذه الشخصية الفذة التي جبلت في طينة هذا الوطن.

في سنة 1923 بدأ عبد القادر الصالح ينظم أبياتا من الشعر فكان يكتب ما يخطر بباله، ومن تلك الأبيات اخترت ما يلي:

نسيم الروض إن أَدْلَجْتَ يوما ... قبيل الصبح بَلِّغْهُ سلامي
أبيت اللعن، لولا أن قلبي ... سليم ما نطقت بذا الكلام

وهذه أبيات أخرى:

ذهب الكرام وقل من أوليته ... نعما فيشكرها ولّا يكفر
فُقِدَ الوفاء فكل من عاهدته ... نقض العهود ووعده لم يذكر
حلف الزمان لينجحن عدونا ... حنثت يمينك يازمان فكفِر؟؟

في سنة 1924 أحب عبد القادر معلمة نابلسية، وكانا قد تعاهدا على الزواج بمعرفة أهلها، ولكنها نقلت إلى خان يونس، في حين سافر عبد القادر إلى القدس للدراسة في الكلية العربية، ولكن استمرت المراسلة بينهما ولم تنقطع حتى عام 1932 وشاءت الظروف أن يفترقا ويتزوج غيرها..

-ومما كتب

تقول غداة البيت حُسْنٌ ألا أكفن ... أيا عبد عن ذكري وكن لي ناسيا
ولا ترج لي عبد الوصال فإنني ... عزمت على ألا أكون فتى ليا
فقلت لها رحماك حسن فما أرى؟ ... هل السعد ولىّ أم تناسيت دائيا
ولكن رضينا ما رضيتم وكيف لا ... أرى الخير في ما تأمرين ولو بيا
خليلي جودا بالبكاء ترحما ... عليّ إذا ما العظم أصبح باليا
وقولا رعاك الله مت متيما ... وعشت مشوقا ساهر العين باكيا

وفي سنة 1925 كتب لها:

ولقد ذكرتك يا حبية ... عندما أفل القمرْ
فكأنه خَجَل الفقير ... لذكر فاتنة البشرْ
فرأى الفرار سلامة ... ومقامه إحدى الكبرْ
فلأنت كلاّ والذي ... خلق المواعظ والعِبَرْ
أشهى إليّ من البدور ... خلق المواعظ والعِبَرْ
ولأنت نفسي فاعلمي ... لا فرق إلا في الصورْ
فإذا فرحتِ تيقني ... يا مهجتي أني أسرْ

وإذا شكوت وما شكوتُ حبيبتي ألقى الضررْ
فلقد لقيت لذا الفراق مصيبة تشجي الحَجَرْ
فالويل لي، هلا وَجَدْتِ كما وجدتُ من الضجرْ
ولأنت منيتي التي جرحت فؤادي بالحورْ

وفي سنة 1926 كتب:

يا فتاة وهب الله لها ملك قلبي كل شيء بقدرْ
كان لي قلب ولكن قد غدا أثرا يمحى على إثر أثرْ
عصف الشوق به والحب قد غَلْغَل السهم به حتى انفطرْ
لو رأيت عندما زار الكرى ناظري فاستاء منه ونفرْ
ورأيت الناس نّواما وما فيهم غيري تولاه السهرْ
اسكب الدمع أناجي طيفكم قلق البال غريقا في الفكرْ
لبكيت لرثيتِ حالتي يا رعاك الله ذنبي لا غتفرْ

وكتب سنة 1928:

أيا «حسن» هذا العبد أفقدني رشدي وخلّف لي سقما يقرب لي لحدي
وضاعف ألامي وزاد تأوهي وبرهن لي أن لا حياة مع البعدِ
وأضرم أشواقي إليك وما جنت وحقك، لكن زدت وجدا على وجد
ثلاثة أعوام خلونَ ولم أفد بزورةِ طيف من موردة الخد
وكيف يزور الطيف من هجرالكرى سنين وهل يأتي الخيال مع السُهْدِ
عظيم علينا أن يشتت شملنا ثلاثا، وأنا لا نغيّبُ في اللحد
كلانا ضعيف عن تحمل ذا النوى أنشكو، لمن نشكو، وهل ذلكم يجدي
حبيبةِ قلبي لا تنوحي بل افرحي وخلّي الي الحزن أحمله وحدي
فإني على حملي الذي تحمليني قدير، كما أني حفيظ على عهدي
فعما قريب سوف يجمع شملنا رؤوف، بصير بالسريرة والعبدِ
وسوف يُبَلُ القلب من حُرَقِ الجوى ونلقى الذي نهوى على الهَزْل والجَدِ
فصبرا إلى أن يقضي الله أمره وليس يلي الصبر الأليم سوى الشهدِ
إليك سلامي يا منى النفس عاطرا تحية إخلاص على القرب والبعدِ

عمل عبد القادر معلما في مدرسة جنين من سنة 1929 حتى سنة 1932 وكان كثيرا ما يزور قرى جنين برفقة الأصدقاء وخاصة صديقه الشيخ حلمي الإدريسي، وأحب بدرجة تفوق الوصف يعبد، ولأن عبد القادر كشافا صيادا جذبته جبال يعبد فأنشد يتغنى بها:

سَقَتْكِ الصباحَ هَتونُ السحاب جبالا تضوع فيها الزهرْ
جبالَ تكاد تمس السماء تعانق فيها غصون الشجرْ
تلاعبُ فيها عليل النسيم فيوحي الشعور وتصفو الفكرْ
قبيل الغروب وعند البزوغ وقبل الصبح نسيم السحرْ

حباك الإله جميع الجمال ففقت الجبال وكنت الوطرْ
ففيك الغصونُ تَكِنُ الطيور وَفَيْءُ الظلال ذوات الحَوَرْ
وتلك المروجُ وتلك الرياضُ وهذي ذراك وذاك (البحرْ)
جبال يبعبد جلَ الإلهُ تعيدُ الشباب، تُطيل العُمُرْ.
عليك السلامُ سلامُ العميدِ سلامُ المشوق لحُسْن الصورْ
فقلبي إليك كثيرُ الحنين كثيرُ الوجيبِ لذاك السَّكرْ

من أصدقاء عبد القادر الصالح المرحوم عبد الله الخطيب الذي كان سنة 1931 مديرا لمدرسة مجدل عسقلان، فنظم عبد القادر قصيدة وهي نقد جارح لشاعر مختص بالقطع الشعرية التي تحفر على شواهد القبور وأرسلها لصديقه عبد الله، وهي طويلة فاخترت منها الأبيات التالية:

ضاقت بشعركم المقابر يا ناظما فقد المشاعرْ
الشعر ما نفث الشعور وغيره احدى الكبائرْ
من أين يأتيك الخيال وأنت في الدمن الدوائرْ
لم تحظ عينك بالجمال وما كشفت لها الستائرْ
عن كل ما تهب الطبيعة من جمال المناظرْ

وينهيها بالبيتين التاليين:-
يا مقلق الموتى «بأرّخْ» هون عليك فلست بشاعرْ
أذنبت في دعوى الشعور فتب فإن الله غافرْ

من أصدقاء عبد القادر الصالح المرحوم نظمي عبد الهادي، وفي شهر آب سنة 1931 توفي والده المرحوم توفيق عبد الهادي، وكتب عبد القادر قصيدة في الرثاء وأرسلها لصديقه نظمي عبد الهادي وقال فيها:

عطف القلوب على القلو ب إذا تفاقمت الخطوبْ
والدمع تذرفه العيـ ن على الخدود مع النحيبْ
هو ما يقوم به الوفي لصاحب فقد الحبيبْ
ناعيه ويحك ما دعاك لنقل ذا الخبر المريبْ
أضرمت نارا في الحشا أفلا يروعك ذا اللهيبْ؟
«توفيق» مات أبو الفخار وصاحب الخلق العجيبْ
توفيق من وهب الصلاح وكان مسكنه القلوبْ
توفيق من ملك الفضا ئل ذلك الرجل المهيبْ
ما مات ويحك إنه لدعاء خالقه مجيبْ
«نظمي» أيحزنك الفرا ق وليس بالأمر الغريبْ
فالموت يعتام الكرامَ ويصطفي الرجلَ الأريبْ

والآن أنقلك أخي القارئ إلى باب الغزل وعبد القادر الشاعر العاطفي الرقيق مرهف الحس كان يهفو للجمال وشطحات الحب، ولكن عليك أن تعلم أن حب عبد القادر هو حب طاهر وعفيف وإنما تفجر من الخيال والحرمان الذي يفرضه الخلق القويم ومبادئ الإسلام، في فترة حرجة من حياة الشباب، وهو يفتخر دائما بأنه لم يقترف الفاحشة ولم يذق طعم أي نوع من أنواع الخمرة ولم يلعب الميسر طوال حياته، رغم أن الظروف لنوال كل ذلك كانت مهيأة له في الشرق والغرب، وهو يحمد الله العلي القدير الذي أنقذه من حبائل الشيطان، وفي هذا الباب اخترت عدة قصائد أبدؤها بالبيتين التاليين:-

لا أقول الشعر إلا غزلا أقرب الشعر إلى نفسي الغزلْ
باعثُ الشعر خدود وردت وقدود مائسات ومقلْ

في سنة 1932 بعث الشيخ حلمي الإدريسي رسالة إلى عبد القادر يذكره فيها بأن الصبية (انشراح) وهي صبية من جنين توشك أن تدخل في مرحلة المراهقة قد (أفركت) أي أنها نضجت فأرسل عبد القادر الأبيات التالية:

ذكرى خبت فعلام تبعثها وتثير كامن لوعتي ولها
أرسلت تذكرها لتقتلني روحي الفداء لقاتلي ولها
لج الفؤاد بحبها زمنا ثم أرعوى متفطر ولها
قد كان يذكرها على مضض حتى تَغَّير ما به وما بِها

نظم عبد القادر أربع قصائد في فتاة اسمها «عائدة» كان أبوها طبيبا في نابلس، ويقول عنها «وهي إلى جمالها الرائع تتمتع بخلق رفيع المستوى وبالأدب الجم والاحتشام ولا أدري الآن هي وما فعل الزمان بها. ولي فيها أربع قصائد. ولا أدري لحد الآن إن كانت تعرف عني شيئا وأنا أميل إلى الإجابة بالنفي.. وقد اطلع الشهيد الشاعر عبد الرحيم محمود على القصيدة الأولى وأخذ يبحث عن الفتاة فلما رآها عاد ليقول لي: إن قصيدتك أجمل من الفتاة».

يا قلب مالك كلّما سَنَحَتْ ظباءُ شاردة
أو ناح في الليل البهيـ م حمامُةٌ متواجدَة
وشدت بلابل أيكة فوق الغصون المائدة
وتأوّدت نشوى الصِّبا أعطاف بنت ناهدة
هزّتك أحلام الشباب وذكرياتٌ خالدة
وأخذتَ تغرقُ في الوجيب ولا كوجدك واجدة
يا قلبُ مالك والهوى أو ما خبرت عوائده
حُرَقٌ وشوقٌ عاصفٌ يضني ويُرْدي واجدة
أيام كنت بفعله قطعا تصفق جاهدة
حَرَّى مبعثرةٌ على إثر الغواني الجاهدة
تهفو لكل خريدة فدع الهوى وخرائده

يا قلب حسبك ما مضى سهر الليالي البائدة
دامي الجراح ولا ارعواء؟ فما لذلك فائدة
من ذا أهاج لواعجَ الماضي الحزينِ الهامدة؟
أو ما حَبَتْ ومضاتُها أم تلكَ حمّى وافدة؟
نزوات حب طائش تمضي وليست عائدة
أنا لا أقول لك (أرْعَو) ما زلت تعشقُ واحدة
جَمَعت شتات الحسنَ من أطرافه المتباعدة
فَغَدتْ كما شاء الهوى والغانيات الحافدة
ختلتك صائدةُ القلوب ويا لها منْ صائدة
أصمت حصاتكَ باللَوا حظ ، ناعسات قاصدة
سفكت لواحظها دمي تلك الخدودُ الشاهدة
لا ! لا أطالبها به لم تأت ذلك عامدة
يا من هجرت لها الكرى والعين منها راقدة
أرعى النجوم مرددا آهاتي المتصاعدة
أشكو إليك وأنت لا عَطْفٌ لديكِ ولا عِدَة
«بابا» يعود من اشتكى أمراض جسم سائدة
يشفي من الداء العضا ل بجرعة أو قاصدة
أما القلوب فمن لها إن لم تكوني العائدة؟ !
زكيَّ جمالك طالما فُرصُ الشباب مساعده
وحذار أن تتحرَّجي ساعُ الملاحة نافدَة
نفثاتُ صبٍّ هائم رِفقا به يا «عائدة»

بينما كان عبد القادر يجلس مع بعض أصدقائه تحت ظلال الأشجار الباسقة قرب مخرج الحمام في الحمة، خرجت شابة حسناء من الحمام وكانت ترتدي «كيمون»، وتدعى شفيقة، هزت مشاعره فنظم قصيدة سماها «من وحي الحمة» ونظر لطولها اخترت منها:-

خرجت من الحمام ترفل بالدمقس وبالحريرِ
ويلوح من خلف الكيمون تألق الروض النضيرِ
بسمت فسبحان الذي نضد الآلىء بالثغورِ
بيضاء فارعة القوام بمقلة الظبي الغريرِ
ترنو بطرف فاتر والطرف يسحر بالفتورِ
وتحدثت فكأنما كلماتها نطف الخمورِ
وتأودت نشوى الصِّبا فاهتزّ رمان الصدورِ
من آل أحمد دينها نشر المحاسن بالسفورِ
وَتَفطّر القلب السليم فيا لآلام الفطورِ

ظِمئي لريقة ثغرها ظمأ العطاش إلى النمير
أألامُ إنْ جُنَّ الفؤاد بحبِّ منقطع النظير
أنا يا شفيقة من هواك على لظى نارَ السعير
أشقى وأسعد ذاهلا وأجود بالدمع الغزير
لا تعجبي شأن المحب العيش في نار ونور
أحييت آمالي العذاب بعطفك الحلو الأثير
وخلقت مني شاعرا فنان، فياض الشعور
وجعلت مني شاديا هيمانَ بالحسن النضير
فعلام صرت إلى الصدود وَلِمْ أقابل بالفتور؟
أترى عجوزَ السوء «عفَّتْ» ساقها بذر الشرور
فغدت توسوس للحبيبة كل بهتان وزور
ورضيت منها ما تسوِّل من جسيمات الأمور
أنا في إسارك لا أريم فأين رفقك بالأسير
أأظل في شوقي إليك أعود بالطرف الحسير
جودي على صبٍّ يكاد يجود بالنفس الأخير
جودي فأنت عزيزة في حالتي عدل وجور
سأظل في دنيا الهوى مثلا على مر الدهور

وهذه أبيات اخترتها من قصيدة نظمها عبد القادر في حسناء مقدسية تدعى سهام.

خرائد القدس ما أشهى تبذلها وأروعَ الراح تُسْقاها وتسقيها
فكم لقينا لديها فتنة عجبا لم يخلق الله أحلى من غوانيها
في مجنتيها من التفاح أجمله وأعذبُ الشَّهد ما يشتارُ من فيها
يفترُّ عن لؤلؤات نضدتْ عجبا ما لؤلؤ البحر إلا من لآليها
فريدة الحسن تدنو في تدلها من المنال وتقسو تارة تيها
في صالة الرقص نلقاها فيفتننا حسن القوام ويسبينا تثنيها
حورية من جنان الخلْد مترفةٌ أرادها آية في الحسن باريها
وآلهف نفسي كم تهفو لرؤيتها وَتُرْقِصُ القلبَ أشواقٌ يعانيها
أقسمتُ لو أن ميتا ذاق ريقتها لقام من قبره صبا يناجيها
ولو سئلتُ لقاء الوصل تضحية قلت الفداء لها الدنيا وما فيها

هذه الأبيات اخترتها من قصيدة لعبد القادر، نشرت في جريدة الجامعة الإسلامية التي كان يصدرها الشيخ الفاروقي سنة 1932 وفيها يظهر تألم عبد القادر من الأوضاع السياسية السائدة في فلسطين والخلافات الحزبية وآثارها السيئة على الشعب:

خطبٌ أَلَمّ بموطني وا لهف نفسي من إباحه

ينمو الشقاء بأرضه والظلمُ فكَّ به سراحه
لهفي على وطن الذبيح وليس من يأسو جراحَه
أصمى السماءَ أنينهُ والقوم ما أذنوا نواحَه
لا هون قد مَرَدوا على حبّ الزّعامة والوقاحَة
حزبان يقتتلان كي ترضي السعادة والسماحة
والشعب والهفي له أضنوه في الكرب استراحة

في سنة 1932 وأثناء تقديمه لامتحان Secondary Schools Higher Certificate كان يقطن في فندق قطينة في باب العمود بالقدس، وأصيب بمرض شديد وأكثر ما كان يؤلمه أذنه، فنظم قصيدة -اخترت منها الأبيات التالية:

هذي المصائب هل يا صاح تنكشف العين غاشيةٌ والجسمُ يرتجفُ
وأعظمي ليس غير الجلد يسترها تكاد من كثرة الأعياء تنقصف
وهذه أذني قد قد طبلتها سقم ينهنهني دوما ويعتسف
يكاد ينكرني من كان يعرفني كأنني شبح يبدو ويتصرف

حين كان عبد القادر معلما في الصلاحية بنابلس أرسل قصيدة 1933 إلى أعز أصدقائه على قلبه الشيخ حلمي الإدريسي (أبو عماد) الذي يصفه بالصديق الصدوق والحبيب. وكان الشيخ حلمي آنذاك واعظا في جنين، وكان سبب نظم القصيدة، هو إقدام الشيخ حلمي على خطبة فتاة جميلة من جنين ولكن تحوم حول شقيقها بعض الإشاعات – وكان من عادة عبد القادر أن يمازح الشيخ حلمي ويداعبه حتى إذا وصلت المداعبة إلى درجة تغضب الشيخ ينسحب وداعبا فتهدأ ثورة الشيخ:

شيخ المواعظ والخطب يا ليت شعري من خطبْ
هل كان رائده الجما ل، أم الشمائل والأدبْ
هل كان يرغب في القصور وفي الجنائن والذهبْ
أم جل ما يصبو له هيفاء وافرة الحسبْ
يرنو إلى أردافها مرتجة فيرى العجبْ
حوراء ضاعف حسنها سكر يجود به شنبْ
لمياء، عذب حديثها سحر، تحلله الكتبْ
نبئتُ أنك خاطب صدق المنبى أم كذبْ
لِمْ، ما ذكرت صديقكم يا شيخ ويحك ما السببْ؟
«مفتي» سيصبح طفلكم ذكر «الأمين» فلا عجبْ
لِمَ لا يكون كخاله فخر العروبة والعربْ
خلف الوليد أو «المطيع» لأمر آمره الغضبْ
بطل المعامع في الوغى هدفُ الأسنّة والقضبْ
والأسود «العبسي» كم لَهَجَتْ بفعلته الكُتبْ

غضب الشيخ الإدريسي غضبا شديدا، فبعث بالرسالة التالية لعبد القادر:

ربَّ القوافي والأدبْ — وابن الكرام، المنتسبْ
جاءت خريدتك التي — تختال في الثوب القشبْ
وتبثّني مر العتاب — تلومني فيما وَجَبْ
ولقد عهدتك لا تني — تشتق من صدري الغضب
وتثير في نفسي الحزازةَ — ثم تلجأ للهربْ
فإذا ركبت على حمارِكَ — في العتاب فلا عَجَبْ

أما بعد فقد عرضت وأفرطت في تعريضك. وأنك لتعلم أنني أخطب فتاة في المكان المرموق من الصيانة وكرم السجايا وليس بضائرها أن يكون للدوحة فرع دان فذلك بتأثير خاص وظروف شاذة ما كان لها أن تتعدى صاحبها وتتجاوز وقتها.

أما أني اخترت فأحسنت الإختيار فذلك ما ينبئك عنه شماتة الأعداء وغبطة الأصحاب في جنين. ولقد كان لذلك معركة ماتزال تعدّ لي من أصحاب النفوس الضعيفة خارج الميدان خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة.

أما أنت يا عبد القادر فأربع على ضلعك ولا أرسلت عليك شواظا من غضبي وعلمتك كيف تكون التورية والأحاجي. وخير لك أن تنتظر إلى ما بعد العيد الكبير حيث ندعوك لحضور عقد القرآن ومهما يكن في نفسك فإني قد سبقتك إلى عالم النعيم والاستقرار هنا «الخير» وغيره يسلمون عليك وننتظر قدومك كما وعدت سلامي لمن عندك.

فأجابه عبد القادر بالقصيدة التالية التي هدأت ثورته وقال عنها: هذا هو الشعر:

عزيزي الشيخ لا تشحذ سنانك — ولا تحمل على هجوي لسانك
ولا ترسل إلي شواظ نار — تألق في الدجا غضبا حنانك
تهددني وتوعدني وإني — لأطلب أيها الباغي، أمانك
أراك تلج في عذلي، فمن لي — بقاض أن درى، كلمي أدانك
أسأت مقالتي فهما وإني — وحقك، ما أردت بها امتهانك
فتاتك مثل ماء المزن صفوا — وقاها الله من دنس وصانك
يزيد كمالها خُلْقٌ وَخَلْقٌ — وزان جمالها أدب وزانك
علقت بظبية بالشمس تزري — فسرح في شمائلها بيانك
ولا تسمع الى العذال فيها — وصدق في محبتها جنانك
ولكن ل اتفاخرنا بعرس — سنترككم، على مضض وشانك
تَدِلُّ عليَّ أن أصبحت زوجا — أتحسب أنني أرضى مكانك ؟
فؤادي ها هنا هدف الغواني — حساني فقن ، يا شيخي حسانك
أراك فتنت في زمن قصير — وقاني الله ، ياحلمي افتتانك

ولكن زواج الشيخ حلمي لم يتم ، فقد تركته فتاته وتزوجت من غيره. في سنة 1933 نظم قصيدة تصور غرام البلبل بالورد:

على ضفاف غدير لايحف به ... إلا الرياض وأزهار بها بدعُ
شاد يردد الحان الهوى سحرا ... ليهوى به فنن طورا ويرتفعُ
لاه عن الكون ساه غير مكترث ... ما يحيط به، أزرى به الجزعُ
مضنى له كبد حرى مؤلهة ... تكاد من شدة الأشواق تتصدعُ
يشكو الى الورد في رفق صبابته ... عساه، إن سمعت شكواه، ينتفعُ
بالله يسأله رفقا ينضو[1] جوى ... والورد في الصد ماض ليس يرتدعُ
يدنو فيلثمه، لا الشوك يمنعه ... وارحمتاه له، جرح ولا وجعُ

سكران من عَرْفِه[2] مَعْمودُ[3] طلعته ... يشدو، فيشجي الى من ليس يستمعُ
يصفق القلب من الحانه طربا ... وارحمتاه له قد شفه الولعُ
يا بلبل الروض كم في الكون من دنف ... يقض مشجعه الاشواق والولعُ
فلست أول من في الحب غيره ... طول الصدود، وقد أزرى به الوجعُ
هون عليك، نياط القلب متعبة ... تكاد من كثرة التحنان تنقطعُ

في صيف 1935 زار عبد القادر القاهرة والتقى هناك بالمرحوم نعيم الخياط المعلم في المدرسة الهاشمية بنابلس،

والسيد وهيب البيطار الطالب بدار العلوم وقاموا معا بزيارة حلوان «مدينة قرب القاهرة « فأعجب عبد القادر بحدائقها البديعة الصنع ، فنظم قصيدة قال فيها :

جنائن الخلد أم أحلام ولهان ... وهذه الحور أم غادات حلوان
خطرن يختلن في الجنات ناضرة ... كأنهن بها أسراب غزلان
يعبثن بالزهر والأغصان مائسة ... والطير شدية لحان فنان
يرمينا بسهام اللحظ فاتكة ... وكيف لايصرع الإنسان جفنان
يمر عنها خليُّ البال مبتسما ... وقلبه عن شئون الحب في شان
فلا يروح بقلب غير منفطر ... تهمي الدموع على خديه عينان

1 - نضو: المهزول من الحيوان
2 - العرف : الرائحة الطيبة
3 - معمود : مصاب بالعشق الذي أضناه .

ثم كتب السيد وهيب البيطار قصيدة عن تلك الزيارة وبعث بها الى عبد القادر، وقال فيها:

جنان حلوان لازلت لحلوان — مراتع الصيد من حور وولدانِ
عشا تآوى إليه الريم وأدعة — ينجدن كل مريض القلب ولهانِ
لاحت لنا من بعيد خلت إذ عرضت — أنى بواد من الفردوس فينانِ
فقلت يا «عبد» ما هاتيك قال لنا — هي النعيم الذي ما إن له ثانِي
سرنا تحيط بنا الأشجار مائسة — أغصانها بين تفاح ورمانِ
نمتع العين بالأزهار آونة — وبالكواعب من آن الى آنِ
أهاب شاعرنا هيا وأجلسنا — الى غدير بها في جانب دانِ
وراح ينشدنا من شعره ثملا — من نشوة الحب لامن خمرة ألحانِ
أما «نعيم» فقد لانت سرائره — فقلت ما ذاك ؟ قال «الكيفَ» وآفاتي
وكان يأكل بزرا منه أطعمنا — وكان فيه جوادا غير بخلان
.....الخ

فرد عليه عبد القادر بالقصيدة التالية :

أتانـي كتابـك وافرحتـا! — فحـل بقلـب شديـد الوجيـب

ترفرف فيه طيور المنى — وينعم منك بسحر عجيب
يراك على الرغم من بعده — فأنت لديه البعيد القريب
رسمت عليه وراء الشغا — ف ، ولم لا ، وأنت الأديب الأريب؟
ملكت بلطفك ذاك الفؤاد — فصنه فأنت عليه الرقيب
وأنت الخبير بضعف القلوب — وأنت الرؤوف بخل غريب
تمنى عليك دوام الوداد — ومن للوفاء ، سواك ، وهيب؟
أتتني الزهور خلال السطور — تفوح يذكرك مسكا وطيب
عليها الغصون بفعل النسيم — تميس فتهفو إليها القلوب
وينع الثمار ودر الكلام — خليق بسحر الوقور المهيب
بعثت إلي به روضة — تغرد فيها غنا العندليب

في سنة 1941 توفي الطفل عبد الفتاح بن عبد القادر، وكان عمره اقل من سنتين ، واشتد حزن عبد القادر فقال:

لقد كان ملء العين أما كلامه — سحر وأما وجهه فجميل
فأصبح ملء القلب حزنا ولوعة — فيا كبدي الحرى المصاب جليل
ذوت زهرة ما كان أبدع عرفها — وغابات أزهار الحياة ذبول
وغيب بدري في الثرى وهو مشرق — وهل ثم بدر ما اعتراه أفول ؟ !
فكنت أمني النفس دوما بأنه — سيقوى على الآمه فتزول
أمانيَّ لم تَصْدُقْ وهل تصدق المنى — وليس إلى تحقيقهن سبيل؟ !

فأسرع عنا بالرحيل فجاءة ... وليس لركب الظاعنين قفول
لقد هد ركن من بناء سعادتي ... كذلك وقع النائبات ثقيل

والآن ، اختتم هذه الأمثلة من منظومات عبد القادر الشعرية بهذه القصيدة التي تشرح حال الأمة، في هذا الزمن الصعب، وهي بعنوان «أخلاقنا»، وقد نظمها ونشرها في جريدة الدفاع الأردنية في عددها الصادر في 29 نيسان سنة 1952.

خُلِق النفاق مَزيّة العصر ... ولذاك ضاق العيش بالحرِّ
نُطري الفتى مادام في سَعَة ... من ماله أو من ذوي الأمرِ
ونظل نلهج باسمه عَبقا ... نثني عليه بعاطر الذكرِ
حتى إذا قلب الزمان له ... ظهر المجن وآل للعسرِ
ورمته بالجُلّى مصائبه ... رحنا نكيد له مع الدهرِ
لم نَرْعَ فيه مودة سلت ... ومواقف الاحسان والبرِّ
أيام كان كما نصوره ... فيض الغمام وطلعة البدرِ
هذي خلائقنا فواعجبا ... نجزي الجميل بوافر الغُمرِ
فإذا أردت وجاهة وغنى ... وسَنا المقام ورفعة الدرِ
وجنى اللذاذة ناعما جذلا ... وصفا الحياة وبهجة العمرِ
وعلو شأنك في الحياة على ... رغم الذي تأتيه من شرِّ
وبزوغ نجمك في محافلنا ... نرنو إليك بأعين الشكرِ
عَفِّر جبينك في التراب وقل ... عزُّ النفوس مطيّةُ الفقرِ
واُشم أيادي من له خطر ... لثم الأيادي منتهى الفَخْرِ
وابسِمْ لمن يشناك معتقدا ... أن العداء يزول بالبِشْرِ
تلك الوصايا ان عملت بها ... نلت العلاء وفزت بالوَفْرِ
وغدوت فينا ماجدا بطلا ... مهما سَفُلْتَ وكنت من غَمْرِ
فإذا أبيت وقلت مفسدةٌ ... كنت السفيه وسبَّةَ الدهْرِ
أتراك تأمل أن تفوز بلا ... رشف الهوان وذلة القهْرِ؟
لاتحسبني ساخرا غضبا ... هذا الصحيح وليس بالسُّخْرِ
ياقوم طال النوم فانتبهوا ... هيا اخْلصُوا من وهدة الضُّرِّ
ياقوم هذي أمتي سلكت ... سُبُلَ الضلال بهمة قَفْرِ
أين الشباب الحر ينقذها ... وارحمتاهُ لِلَيْلها الغمْرِ

أعجبتني مجموعة نثرية نشرها عبد القادر في الصحف المحلية في الخمسينات واخترت لك ايها القارئ الكريم امثلة من السلسلة التي كتبها تحت عنوان «من أغرب مارأيت وما سمعت»، وتتكون هذه السلسلة من قطعتين: الأولى سماها «سكر»، والثانية سماها «كينا» وسأنقل لك اخي القارئ بعضا منها بدون تعليق.

الرجل اللائق للمكان اللائق

سكر:

جاء رجل الى زعيم عربي في بلدٍ عربي يرجوه أن يوظفه، فقال الزعيم للرجل صاحب المصلحة (لقد وظفتك معلما) وقال له الرجل إني أُمي لا أقرأ ولا اكتب. فقال الزعيم لست في حاجة للقراءة والكتابة أفلا تحسن استقبال الضيوف وتقديم القهوة والسجاير في ديواني! وهكذا كان ذلك الرجل يتناول راتب معلم وهو أُمي ويعمل في ديوان الزعيم وليس في مدرسة. وبعد مرور بضع سنوات جاء الرجل الأمي الذي يتناول راتب معلم للزعيم يولول ويصرخ: واخسارتاه، فقال له الزعيم: ما بك؟ فقال له الأُمي: لقد عينوا لجنة لفحص المعلمين. وماذا سيجدون عندي؟ سيقطع راتبي ويخرب بيتي، فقال الزعيم: هون عليك. فقد عينتك في لجنة الفاحصين.

كينا:

أراد رئيس وزارة عربية ما أن يطهر الجهاز فعين لتلك الغاية لجانا وعين رئيسا لتلك اللجان أكبر لص في البلد فالتقيته في الشارع وقلت له كم لجنة زرت فأقسم يمينا غموسا أنه لم يزر أي لجنة من تلك اللجان. ولما سألته عن السبب قال: أنا أولى بالتطهير.

أظلاف بقر:

جاء في قصة سيف بن ذي يزن أن سيفا أتى إلى مدينة فالتقى ببعض شبابها وأخذ يتجاذب وإياهم أطراف الحديث فأنس بهم وارتاح إليهم ولكنه فوجئ بأن أرجلهم اظلاف بقر ففر هاربا ولم يعقب، والتقى بمجموعة أخرى من شباب المدينة فجابهوه بقولهم (كفى الله شرك ماذا أصابك) فقال لهم: (لقد رأيت في مدينتكم عجبا) فقالوا له: (خيرا رأيت) قال التقيت بشلة من شباب هذه المدينة أنيقة لكن أرجلهم أظلاف بقر، فأشاروا الى أرجلهمم، فإذا أرجل جميع سكان المدينة أظلاف بقر.

كينا:

كنت وزميلان في مكان ما، وكنت أنا أهاجم أنواعا من الرجال بعنف مصابون بمرض اجتماعي رهيب، فدنا أحد الاثنين وهمس في أذني بأن ثالثنا كان مصابا بنفس المرض الذي أهاجمه، فلم استغرب لأني اطلعت بنفسي على بعض الوقائع التي تثبت صحة دعواه، ثم زرت قريبا لي في رام الله وهو من قضائها. فعرضت عليه ما جرى فقال لي إن الذي همس لك هو أيضا مصاب بهذا المرض فذهلت، واستدعى بالهاتف صيدلانيا صديقا مشتركا لنا فقال له أخبر أبا نضال عما تعرفه عن المستر (ج) فقال: (انه كان معنا عضوا في حزب البعث)، ثم ماذا؟ فقال إنه مصاب بالمرض نفسه.

هبة المسيح

سكر:

ورد في الانجيل أن السيد المسيح عليه السلام أهدى لاثنين من حواريه Talent (وهذه الكلمة الانكليزية ذات معنيين أما المعنى الأول فيعني قطعة ذهب رومانية ثمينة وأما المعنى الثاني فيعني مواهب عقلية) وبعد مضي بضع سنين عاد السيد المسيح للرجلين اللذين اعطى لكل منهما Talent فوجد

الأول قد استخدمها في التجارة والصناعة وأن المبلغ تضاعف أضعافا مضاعفة، وأما الثاني فقد أخرجها من الأرض حيث سبق أن دفنها، فبارك الأول وأثنى عليه ووبخ الثاني لأنه لم يستعمل ما وهبه إياه السيد المسيح. ويستنتج من ذلك أن الله عز وجل إذا وهبنا اية هبة فهو يريد من كل منا ان يستعمل ما وهب.

كينا :

لكن المرء في الشرق الأوسط يتعرض لخطر ساحق ماحق مدمر. متى؟ إذا كان له عقل نير يستخدمه أو ضمير حي يستجيب إليه فالذي يستعمل عقله النير ويستجيب إلى ضميره في الشرق الأوسط يكون هدفا لخطر لا يعدله خطر القنبلة الذرية أو الصواريخ عابرات القارات، والطائرات النفاثة ولا الخيانة ولا الإتجار بالمخدر.

وبالإختصار بشر كل من لديه عقل نير يستخدمه أو ضمير حي يستجيب إليه في الشرق الأوسط، بأوخم العواقب وأسوأها. والمطلوب أن تصدأ العقول من قلة الاستعمال وأن يخفت صوت الضمائر الحية. هذا واقع أبناء االشرق الأوسط المرير.

في أوائل الخمسينات كان عبد القادر يكتب سلسلة كلمات تحت عنوان شامل «الصداقة التقليدية» وكانت تنشرها جريدة البعث التي كانت تصدر في رام الله آنذاك، وآخر كلمة في هذه السلسلة «من المسؤول عن ضياع فلسطين؟» ويجيب على تساؤله «أنا». ويعنى بذلك، كل فلسطيني، لماذا؟.

يقول «لأننا كنا منساقين خلف زعماء جلهم إن لم نقل كلهم أتباع رخيص للمستعمر الأنجلو أمريكي وكنا نصفق ونهتف فليحيا هذا الزعيم وليسقط الأخر فشجعناهم بهتافاتنا على التمادي في الخيانة».

نموذج من خطبه

خطبة القاها في مجلس النواب سنة ١٩٨٤

معالي الرئيس ،
حضرات النواب والأعيان المحترمين،
حضرات دولة رئيس الوزراء وأعضاء الوزارة المحترمين.

أود ان ألفت نظركم جميعا ونظر المسلمين في أي مكان تواجدوا إلى ظاهرة خطيرة هدامة تجرى في هذا البلد المسلم ولا أدري مدى تواجدها في الأقطار المسلمة الأخرى. في 26/ 3/ 1984 ضمني في عمان مجلس فيه مجموعة من المثقفين. فعرضت إلى الدور الذي لعبه الإسلام في الأمة العربية بشكل خاص والعالم الفسيح بشكل عام. والدور الذي ينتظر أن يعود الإسلام من جديد إلى لعبه، وإعادة الانسان في أي مكان إلى إنسانيته واذا بشخص من هذه المجموعة يتصدى لي، وهو مسلم يدعي الاسلام، ويتجنى على الإسلام الدين الحنيف الذيأ الناس من الظلمات إلى النور. فدعواي التي تصدى لها تنحصر في قول محمد صلى الله عليه وسلم (لا يصلح آخر هذا الأمر الا بما صلح به أوله).

فادعى أن الإسلام عتم على حضارة الأمة العربية السالفة، وأنه لم يظهر منها إلا السيئات، وأن أثر الإسلام في تاريخ الحضارة ينحصر في حقبة قصيرة جدا، وأن اليونانيين خلفوا حضارة وارفة الظلال على الرغم من أنهم كانوا عبدة أصنام.

وألفت نظر المثقف المتجني على الدين الحنيف الذي نظم علاقة الإنسان بالإنسان وعلاقة الإنسان بالله العلي القدير إلى كتابين؛ أما الأول فنشر حديثا وجيء به إلى هذا البلد وعنوانه The One Hundred ألفه أميركي يحمل أكثر من دكتوراه. وقد ضمنه أسماء مئة شخصية أثروا على الإنسان خيرا أو شرا منذ الخليقة حتى الآن، وقد رتبهم حسب أهمية الأدوار التي لعبوها في التاريخ، وكان على رأس القائمة نبي الإسلام محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وقد سود صفحات من الكتاب للدفاع عن رأيه.

وألفت نظر الحكومة والنواب والأعيان وكل مواطن ذي سعة أن يعمل على نشر هذا الكتاب في مؤسساتنا الثقافية.

وألفت نظر المتجني على الإسلام إلى كتاب نشره أجنبي اسمه وليام هِمفري وهو مؤلف من جزأين وقد ورد الجزءان حديثا لعمان أتى بهما الغيورون على دينهم المخلصون لأُمتهم ووطنهم للتحذير منهما قبل انتشارهما.

وأما الجزء الأول فقد ترجم للغة العربية وأهديت نسخة منه إلى دولة رئيس الوزراء أحمد باشا عبيدات، وأما الجزء الثاني فلا يزال يترجم إلى العربية حتى الآن، وفي اعتقادي أن على كل مسؤول في العالمين العربي والإسلامي أن يدرس هذا الكتاب دراسة مستفيضة. ولا أريد أن أخوض في التفصيلات. ولكن اكتفي بنقطتين بالنسبة لهذا الكتاب في حدود معلوماتي لم يدخل الأردن منه حتى الآن سوى النسخة التي أشرت إليها وهذا الكتاب دراسة مستفيضة لمعرفة السبل التي يجب اتباعها للقضاء على الإسلام بواسطة المسلمين أنفسهم، ولا أجيز لنفسي ان أتجنى على المتجني على الدين الحنيف فادعي أنه من هؤلاء الهدامين.

وأريد أن ألفت نظر الجميع إلى أنني على أتم اليقين على أن رئيس وزراء هذه الدولة المعنية بمحاربة الإسلام بطرق شيطانية مذهلة، قد وقف يوما في برلمانه وبيده القرآن الكريم ليقول: لن يدوم لنا استعمار مازال هذا الكتاب معمولا به، وسيرى من يطلع على هذا الكتاب الذي يصف كيف حاول أعداؤه هدمه من الداخل أقول سيرى الأعاجيب ويصح أن يعرض في التلفزيون تحت عنوان The Incredible

وأقسم أنني لست ولم أكن يوما من الأيام ولن أكون ضد حرية الرأي، وأومن بقول فولتير:

« قد اختلف معك في الرأي ولكني مستعد أن أضحي بنفسي في سبيل إتاحة الفرصة لك للتعبير عن رأيك ». ولاكني ألفت نظر المسؤولين في الحكم وخارجه إلى هذه الظاهرة المدمرة، والله أرجو أن يحفظنا من العثار وأن يجنبنا الزلل».

نائب نابلس

عبد القادر الصالح

رأي في حلف بغداد
والأحلاف الأجنبية الاخرى

للأستاذ
عبد القادر الصالح
نائب نابلس

الطبعة الأولى
مطبعة الترقي سنة ١٩٥٦ _ دمشق

تمهيد

لم يجمع الشعب الأردني على شيء إجماعه على مقت الاستعمار والسير في ركابه، وعلى رفض جميع الأحلاف الأجنبية الاستعمارية، وفي مقدمتها حلف بغداد.

ظهر ذلك جليا في انتفاضته الشعبية الشاملة الأخيرة، التي كانت تعبيرا صادقا عن وعيه ورغبته الملحة في التحرر من ربقة الاستعمار، والنفوذ الأجنبي على اختلاف أشكاله وألوانه، تلك الإنتفاضة التي هزت الاستعمار هزا عنيفا، أفقده صوابه واتزانه، وجعلت الأردن على صغره ملء الدنيا وشغل الناس.

وفي غمرة الحوادث طلع السيد المجالي على الناس بكتيبه الأنيق «بيان للناس». عرض فيه لمحادثات تمبلر، ولرأيه في الحلف. وفي 1956/1/31 أدلى في المجلس النيابي ببيان آخر، أعرب فيه عن إيمانه العميق بأن من الخير العميم للأردن أن ينضم لحلف بغداد، وإن المصلحة العامة هي التي حملته على تبني سياسة انضمام الأردن لذلك الحلف. ثم أعلن عن استعداده للرجوع عن الخطأ إذا كشف له عنه، والسير في جادة الصواب، إذا جليت له.

وكان أن قمت في الجلسة ذاتها بتفنيد الحجج التي يتذرع بها مؤيدو الحلف، وأبنت الخطر الداهم الذي يكمن في هذا الحلف وأمثاله من الأحلاف الاستعمارية الأخرى. غير أن موضوعا هاما كحلف بغداد لا يمكن أن يوفى حقه من البحث في كلمة مرتجلة عابرة، لذلك جئت بهذا الكتيب لأوفي الموضوع ما يستحقه من الدراسة والتحليل، راجيا أن يرافقني التوفيق في تبيان الحقيقة وإحقاق الحق! ولأكفل التسلسل المنطقي في البحث، سرت على أساس تقسيم الموضوع إلى فصول آخذ بعضها برقاب بعض على الوجه التالي:

طبيعة الاستعمار وتطلباته:

تنو بذور الاستعمار وتزدهر في البلاد الصناعية التي تطورت صناعتها، وكانت المصانع ووسائل الإنتاج الكبرى فيها للأفراد، وليست للأمة في مجموعها، وكان الإنتاج فيها لا يتوخى رفاهية جمهرة الناس وسد حاجياتهم ورفع مستواهم المعيشي، وإنما يهدف إلى تكديس الأرباح الخاصة التي تذهب لجيوب أصحاب المصانع والمشاريع الإستثمارية الأخرى.

ولكي يتمكن أصحاب رؤوس الأموال المستثمرة في الصناعة والمشاريع الاستثمارية المختلفة من نيل أكبر قسط من الربح، لا بد من استغلال مجهودات عشرات أومئات أو ألوف العمال الكادحين الذين يعملون في مصانعهم ومشاريعهم، من أبناء جلدتهم أولا.

فالعامل الذي ينتج لصاحب المصنع أو العمل ما قيمته عشرة دنانير مثلا، لا يتناول على ذلك أجرا قيمته عشرة دنانير، إذ لو كان الأمر كذلك لما استطاع صاحب رأس المال المستثمرأن يربح، ولأفلست مشاريعه. وما يأخذه العامل فعلا يترواح مابين جزء من الدينار وما هو أقل من العشرة دنانير.

فإذا ما أعطى صاحب العمل للعامل دينارا واحدا، توفر له من الربح تسعة دنانير، وإذا ما أعطاه دينارين، يكون ربحه ثمانية دنانير، وهكذا. هذا إذا غضضنا النظر عن القيم الثابتة للمواد الأولية التي تتكون منها السلع. وعلى كل فالحقيقة الثابته أن ربح صاحب المعمل يحصل عليه من حرمان العامل من حقه الكامل في ما أنتج.

ومدى استغلال صاحب العمل للعامل يتوقف على عوامل متعددة: فكلما ازداد وعي العمال على حقوقهم المغتصبة وكلما كثرت النقابات العمالية وأخلص لها النقابيون، كلما صعب على أصحاب العمل استغلالهم، وكل ما ينالونه من حقوق أكثر. وكلما اشتد الطلب على السلع المنتجة، كان المجال أوسع لنيل العمال أجور أعلى، وعلى كل تظل هناك حقيقة ثابته لا يستطيع تجاه لها من له أدنى المام بقوانين الاقتصاد، وهي: « قبل أن تستعمر دولة دولة أخرى، لا بد من استعمار أبناء جلدتها أولا». وذلك لكي يتوفر للفئات المتمولة في الدولة جني الأرباح وتضخيم رؤوس الأموال التي تستطيع استثمارها في الأقطار الأخرى.

ولتظل الصناعة، في البلد المتطور صناعيا على أساس الربح الخاص مزدهرة، ولتظل أرباح الأموال المستثمرة في ازياد مستمر، لا بد من توفر الأشياء التالية:

أ. الأيدي العاملة الرخيصة.
ب. المواد الأولية الصالحة لأن تتحول قوى محركة تسير الآلات، كالفحم والبترول، مثلا.
ج. المواد الأولية الصالحة لأن يعمل منها سلع الاستهلاك ، أو الآلات الثقيلة والخفيفة: كالقطن والكتان والصوف، والحديد والنحاس والألمنيوم وما أشبه.
د. الأسواق: وهي البلاد المتخلفة اقتصاديا وصناعيا لتتلقى المنتجات والبضائع التي تنتجها مصانع البلاد الاستعمارية بالأثمان التي تضمن لذوي رؤوس الأموال أوفر الأرباح، ولتستوعب رؤوس الأموال الفائضة الاستعمارية في مختلف المشاريع التي تدر على المستعمرين الأرباح الطائلة، ولتستوعب كذلك الفائض من أبناء الغزاة، يوضعون في أعلى المراتب باعلى الرواتب

وفي سبيل الحصول على المواد الأولية المشار إليها أعلاه، واحتكار الأسواق الصالحة، وفي سبيل جني الأرباح الطائلة من عرق الكادحين في البلد الأم وفي البلدان الأخرى، كانت المستعمرات ومناطق النفوذ، وكان الغزو الاستعماري المنظم، إقتصاديا وعسكريا وثقافيا، ولكل من افريقيا وأسيا وأمريكا، وبقية أجزاء العالم الأخرى الصالحة للإستغلال والإستثمار.

وفي سبيل هذه الأرباح الخاصة، ومن جراء تنافس الدول الاستعمارية على احتكار الأسواق ومصادر الثروات الخام، قامت الحروب العامة وسالت الدماء أنهارا.

وفي سبيل هذه الأرباح والتسابق في حوزة المستعمرات ومناطق النفوذ، تجيش الجيوش البرية، وتبنى الأساطيل البحرية والجوية، ويتهافت المستعمرون على إقامة القواعد العسكرية، واحتلال المناطق الإستراتيجية، إما احتلالا مباشرا وإما بإقامة حكومات وطنية صورية الإسم، وللاستعمار الفعل والقول الفصل.

وفي سبيل هذه الأرباح، وللمحافظة على الأسواق ومصادر الثروات الخام، وللإبقاء على نفوذ المستعمرين ومصالحهم، تقام أحيانا جيوش وطنية ودوائر أمن محلية، يمولها ويقودها ويوجهها جميعا الاستعمار، ويستخدمها أكثر ما يستخدمها، في وأد الحركات الوطنية الصاعدة، وكبت الحريات، ومطاردة الأحرار الواعين، الذين يدركون خطورة الاستعمار، ويعملون على تثقيف الناس والتخلص من ربقته ومن أي نفود أجنبي آخر، وقد يستعمل هذه القوى لنشر نفوذه وتوسيع فتوحه أو في صد هجمات الدول الاستعمارية المنافسة، الطامعة في سبله ما لديه من مناطق نفوذ أو مشاركته فيها.

وقد دللت التجارب الطويلة على أن الاستعمار المقنع، في كثير من الحالات وفي كثير من المواطنين، أقل كلفة وأوفر أرباحا للمستعمرين، فكان لذلك نظام الحماية والإنتداب، ثم تلك الاستقلالات العرجاء الشوهاء وما يرافقها عادة من أغلال وقيود تسمى، ظلما وعدوانا، معاهدات والتزامات، وما يقتضيها ذلك من إقامة حكومات لا تعدو كونها دوائر موظفين ثانويين ترتبط فعلا ارتباطا مباشرا بالاستعمار نفسه، تجيء على أساس ثقته بها واطمئنانه إلى حرصها على مصالحه ورعايتها الشديدة لها، تلك المصالح التي تتناقض حتما مع مصالح جمهرة المواطنين.

على أنه لا يعدم الفرصة، وما أكثر ما تواتيه الفرص، ليدلل للناس ولهذه الحكومات ذاتها على أنها لا تملك من زمام أمرها شيئا، وإنه ليس لها مجال لأن تحكم ولا يجوز لها أن تحكم، إلا وفقا لمشيئته وأهوائه، وإنها أضعف من أوراق الخريف في يوم عاصف، إذا سولت لها النفس الأمارة بالسوء أن تعصي له أمرا أو ترفض له مطلبا، ما زالت غير مبثقة عن إرادة الشعب الصحيحة، وكان جل اعتمادها على الاستعمار نفسه.

لذلك تراه في الملمات يسفر عن وجهه الكالح، ويكشر عن أنيابه الزرق، ويبرز مخالبه الدامية، متخطيا تلك الدمى التي صنعها لتنخدع ولتخدع الناس، غير مكترث لها أو معترف بوجودها، ضاربا بقوانينها المرعية ودساتيرها الجوهرية عرض الحائط.

فالاستعمار في حد ذاته عملية معقدة بعض الشيء، تتألف من عناصر رئيسية ثلاثة: غزو اقتصادي وغزو عسكري وغزو ثقافي، تسير متشابكة أو متلاحقة.

ففي بعض الحالات يفد الغزو الاقتصادي أولا ثم يتلوه الغزو العسكري والغزو الثقافي للتمكين له. وفي حالات أخرى يأتي الغزو العسكري، يعضده الغزو الثقافي، ممهدا للغزو الاقتصادي الذي هو غاية الغايات. وفي بعض الحالات الخاصة، يقدم الغزو الثقافي أولا.

وعلى كل إذا استقر الاستعمار واستوى على سوقه في بلد مبتلى به، تجد العناصر الثلاثة جاثمة على صدور المواطنين حتما.

فتوجيه الاقتصاد الوطني والمشاريع الاقتصادية الكبرى يكون تحت إشرافه المباشر حينا وغير المباشر حينا آخر، وأسواق البلاد وثرواتها الطبيعية وجميع مرافقها تصبح وقفا عليه محظورة على سواه، له من أرباحها حصة الأسد، ولأهل البلاد فتات المائدة.

وتكون قوى الدفاع الوطني وقوى الأمن الداخلي، والمسكرات والطارات جميعا تحت إشرافه المباشر السافر أو المقنع، هذا بالإضافة إلى ما يكون له عادة من جيوش ومعسكرات وطائرات ومطارات خاصة به.

والغزو الثقافي قد يبدأ بتأسيس المدارس الأجنبية والمنظمات التبشيرية ثم ينتهي أو يصل إلى التدخل في مناهج التدريس ومستوى التعليم، وفرض كتب ودراسات خاصة، وإقصاء دراسات أخرى وحرمان أساتذة من نوع معين من مباشرة التعليم، وحظر تداول كتب معينة قد تتعارض محتوياتها واتجاهاتها مع طبيعة الاستعمار ومصالحه. وقد يبرز هذا الغزو في حصر البعثات الدراسية في بلاده ومناطق نفوذه فقط وليتمكن الاستعمار من تحقيق أهدافه المشار إليها أعلاه، وليضمن بقاءها أطول مدة ممكنة، يسلك مختلف السبل. فمن السبل التي يسلكها في البلاد التي تبتلي بدائه:

أ. الإشراف الفعلي على أهم مرافق الدولة (إن وجدت). فمنه المستشارون الماليون، والمشرفون على المعارف وقوى الجيش والأمن الداخلي الخ..

ب. سياسة (فرق تسد). ولذلك يحيي النعرات الطائفية والجنسية والحزبية ويستغلها أقصى استغلال. ويخلقها إذا افتقدها.

ج. خلق طبقات حاكمة أو تاجرة أو عملاء من الأهلين ترتبط مصالحهم الذاتية جميعا ارتباطا وثيقا بمصالحه، وتزول بزواله.

د. كم الأفواه وكبت الآراء وتحطيم الأقلام الحرة، وتعطيل الصحافة أو تعهيرها، وشل التنظيم السياسي والنقابي، ومحاربة كل الحركات الوطنية الواعية، ووأد الحريات العامة بشكل عام، إما مباشرة وإما عن طريق أذنابه وأشياعه في البلد الرازح تحت نفوذه، وما يستلزم ذلك من إنشاء شبكة جواسيس تحصي على المواطنين الأحرار أنفاسهم.

هـ. اللجوء إلى القوة السافرة لتحقيق غاياته إذا اضطرته الظروف والملابسات وفشلت مغريات الجاه والمال.

أهداف الاستعمار وغاياته في العالم العربي

عرضت في الفصل السابق بإيجاز لطبيعة الاستعمار ومتطلباته بوجه عام، وسأعرض في هذا الفصل لأهداف الاستعمار وغاياته في العالم الغربي بشكل خاص.

من متطلبات الاستعمار، الأسواق والمواد الأولية والمراكز الاستراتيجية، والقوى البشرية الرخيصة الصالحة لاستخدامها في مصانعه ومشاريعه التي قد يقيمها في مستعمراته ومناطق نفوذه بأرخص الأجور أو في حشده الحشود ليقدمها ضحايا على مذبح شهواته وأطماعه الاستعمارية، وليجعلها وقودا لأتون حروبه التي لا تنقطع.

فهل في العالم العربي من متطلبات الاستعمار هذه ما يغريه به، ويحمل المستعمرين على جوب الفيافي والقفاز ومواجهة الأخطار في سبيل الإستيلاء عليها؟

نعم! إن البلاد العربية غنية بثرواتها الطبيعية، خطيرة بمراكزها الإستراتيجية، كثير عدد السكان نسبيا، متأخرة في صناعتها وإنتاجها ومجالات العلم الحديث، منقسمة على نفسها. ولذلك كانت تربة صالحة للاستعمار والإستغلال، يتهافت عليها المستعمرون ومن أجلها يتناحرون ففي البلاد العربية 75% من مخزون البترول في العالم. والبترول عصب الصناعة في كل مكان. وما يجنيه الاستعمار الأنجلو- أميركي من الأرباح الناجمه عن استغلاله للبترول العربي يقدر بمئات الملايين من الدولارات.

وفي البلاد العربية كنوز البحر الميت التي قيل عنها (من يملك البحر الميت يملك العالم). وفي البلاد العربية المانجنيز والفوسفات بكميات هائلة وفيها البوتاس والذهب والنحاس وغيرها من المواد الأخرى الصالحة للصناعة.

وفي البلاد العربية القطن والصوف والرز والسكر والتمور وغيرها من المواد الغذائية المختلفة، وفيها الأيدي العاملة الرخيصة جدا، وفيها الحاجة الماسة إلى أكثر منتجات الصناعة الحديثة، وفيها المجالات الواسعة لإقامة مختلف المشاريع الاقتصادية التي تعود على ذوي رؤوس الأموال المستثمرة فيها بالربح الوفير، وفيها من الثروات والآفاق الواسعة البكر التي يطمأن لوجودها ولم يحاول كشف النقاب عنها بعد.

والعالم العربي في نفس الوقت جسر الطامعين الأوروبيين في كل مكان من آسيا وإفريقيا، وكان مسرحا لحروب الدول الكبرى طيلة مراحل التاريخ.

وقد كانت البلاد العربية منذ القدم ممرا للقوافل التجارية الدولية في غدوها ورواحها من الشرق إلى الغرب وبالعكس. وهي تجاور مصادر الثروة البترولية في بقية أجزاء الشرقين الأدني والأوسط، وهي، لحسن حظها أو لسوئه، تقع على طريق الهند تلك القارة المترامية الأطراف بما فيها من ثروات وما يسكنها من مئات الملايين. تلك القارة التي كانت إلى فترة قصيرة من الزمن القارة التي كانت إلى فترة قصيرة من الزمن لعنة الدهر ، وبلاء على نفسها وعلى الناس. فقد استطاع الاستعمار الإنكليزي أن يسيّطر على الهند سيطرة تامة ردحا من الزمن، وأصبح يستعمر الهند وغيرها من بلاد العالم التي تقع على طريق الهند بأموال الهند والملايين من أبناء الهند. وكانت جحافل الهنود في الجيش الإنكليزي تساق للمذابح الاستعمارية في الشرق والغرب سوق الخراف، كما وقع فعلا في الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية.

وخليق بالعرب، وهم على اتصال دائم بالهنود عبر التاريخ الطويل أن يعتبروا بما وقع في الهند من مآس وفظائع على أيدي الاستعمار الإنكليزي، وأن يحذوا حذو أحرار الهند في نضالهم الطويل المرير، وصبرهم على المكاره، وتماسكهم ووحدة صفوفهم التي أدت إلى إنطلاقهم وتحررهم من ربقة الاستعمار البغيض.

ففي سبيل مواقع البلاد العربية الإستراتيجية الممتازة، وثرواتها الطبيعية الوفيرة وخصوصا البترول، وفي سبيل أسواق العرب والأيدي العاملة العربية الرخيصة، قامت الدول الاستعمارية، ولا تزال تقوم بمحاولاتها

المتتالية للسيطرة عليها. فكل من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وانكلترا وأمريكا أدلت بدلوها في الدلاء في هذا المضمار.

وهناك من يرى أن من الأسباب الجوهرية لقيام كل من الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية، تنافس الدول الكبرى على أسواق البلاد العربية وخبراتها ومراكزها الإستراتيجية. وهنالك من يقول بأن بترول العرب هو السبب الأول.

ولكن لسبب أو لآخر استأثرت انكلترا بحصة الأسد من خيرات العالم العربي، وقلصت ظل إيطاليا، وإلى حد ما، ظل فرنسا من البلاد العربية. على أنها ابتليت بمنافس قوي جديد غزاها حتى في عقر دارها وأخذ ينافسها في جميع مناطق نفوذها، ومنها العالم العربي، ومن العالم العربي، بالطبع، هذه المملكة الناشئة التي قاست ولا تزال تقاسي من الاستعمار والنفوذ الأجنبي على اختلاف أشكاله، ما تقاسي.

هذا المنافس الاستعماري الجديد هو أمريكا التي تحاول، وفي بعض الحالات بنجاح ملموس زحزحة الاستعمار الإنكليزي وأخذ محله.

وعلى الرغم من أن انجلترا أخذت تضيق ذرعا بتغلغل الاستعمار الأميريكي في العالم وجعلت تتململ تحت وطأة نفوذ الاستعمار الأمريكي المتزايد في انكلترا نفسها وفي بقية أرجاء المعمورة التي تسير في فلك الاستعمار، على الرغم من أنها تشعر بمرارة برجحان كفه الاستعمار الأميريكي، فإنها لا تملك أن تجاهره بالعداء السافر، وإنما تعمد إلى طرقها الملتوية التي اعتادت عليها، للتعبير عن سخطها وتذمرها.

والتنافس الحاد بين الاستعمارين الانكليزي والأمريكي لم يعد خافيا على أحد وإن اتخذ أشكالا مختلفة باختلاف الأمكنة والأزمنة.

فاختلاف وجهات نظر الدولتين حيال قضايا كل من فيتنام، وبترول إيران، وواحة البريمي، ومجلس الدفاع الأوروبي، والأحلاف في الشرق الأوسط والأدنى، والعلاقات الاقتصادية والدبلوماسية بدل الديموقراطيات الشعبية وروسيا السوفياتية، وحل مشكلة فلسطين إنما هي مظهرمن مظاهر التنافس الحاد القائم فعلا. وليست النقطة الرابعة ومجلس الأعمار في الأردن سوى مظهر آخر من مظاهر هذا التنافس وتناقض مصالح الدولتين، وقد كان في الحرائق التي أصابت المنشآت والمؤسسات الأمريكية في الأردن في أخريات الانتفاضة الشعبية الأخيرة أوضح دليل على حدة التناقض والتنافس في مصالح الاستعمارين.

على أن هذا التناقض لم يصل ولن يصل في وقت قريب إلى درجة الاصطدام المسلح فعلى الرغم من كل ما سبق تسير سياسة انكلترا وسياسة أمريكا متفقتين تمام الاتفاق حول نقطتين أساسيتين:

فهما متفقتان تمام الإتفاق على مقت الشيوعية ومقاومتها.

وهما متفقتان كذلك تمام الإتفاق على مقاومة جميع الحركات الوطنية التحررية في أي جزء من أجزاء العالم. لذلك نجدهما دائما ضد الدول الاستعمارية الأخرى. كما وقع فعلا حين عرض قضايا شمال إفريقيا ودويلات جنوب أمريكا.

ولذلك من خطل الرأي ومن الخطورة بمكان أن يأمل أي شعب مناضل في سبيل استقلاله واستكمال سيادته ونيل حريته أي عون من أية حكومة استعمارية وعلى الأخص من انكلترا وأمريكا.

هذه نبذة قصيرة ولمحة خاطفة عن علاقة الاستعمار القائمة بالعالم العربي وأهدافه فيه. وسأنتقل إلى الفصل الثالث لبحث دولة إسرائيل وعلاقاتها بالاستعمار الأنجلو- أمريكي والأهداف التي خلقت إسرائيل لتحقيقها.

إسرائيل

للاستعمار الأنجلو- أمريكي في العالم العربي مصالح جمة تدر عليه مئات الملايين من الدولارات وهو في سبيل تطوير هذه المصالح وإقامة مشاريع استغلالية أخرى تضاعف أرباحه أضعافا مضاعفة.

ومما ساعد الاستعمار على تثبيت أقدامه في الأقطار العربية واحتكار أسواقها وامتصاص خيراتها والإستيلاء على ثرواتها الطبيعية الظاهر منها والباطن، انقسامها على نفسها وتفشي الجهل والفقر في معظم ربوعها.

ولما كانت عوامل الضعف هذه التي تغري المستعمرين بالبلاد العربية لا يمكن أن تدوم مهما استغلها ونماها المستعمرون، ولما كانت مصالح المستعمرين في البلاد العربية بهذه الخطورة، عمد الاستعمار الأنكلو أمريكي إلى خلق المشكلة الفلسطينية، وإدخال عنصر غريب في قلب البلاد العربية، أمده المستعمرون بالمال الوفير وبالسلاح الكثير، وروح الكراهية للعرب، وحملوا العرب على مبادلته الكراهية بمثلها، لئلا تتاح الفرصة للعنصرين بالتفاهم واحلال الوئام محل الخصام، وليظل هذا العنصر الغريب وتكوينه الناشز، بما يمدونه به من نصرة وقوة، جسرا أمينا يصل ما بينهم وبين مصالحهم.

إن الاستعمار الأنكلو- أمريكي خلق إسرائيل لتبقى، وذلك لتلعب دور الحارس الأمين لمصالحهم في العالم العربي، ولتكون المصنع الأمامي لاستخدام رؤوس أموالهم الفائضة وتصريف منتوجاتها، مع ضمان أكبر قسط من الربح، في السوق العربية المتسعة التي تكاد تحتاج إلى كل شيء من الصناعات الحديثة من الخارج. ولتعطي المجال لإقامة معسكرات ومطارات أمينة لجيوشهم الجرارة التي ستستخدم لضمان بقاء مصالحهم في البلاد العربية والشرقين الأدني والأوسط وللضغط على روسيا عدو الاستعمار الألد. إن الاستعمار الأنكلو- أمريكي قوى وسيظل يقوي دولة إسرائيل لتكون خطرا ماثلا محسوسا أمام العالم العربي يهدد به العرب أجمعين ويحملهم على الرضوخ إلى أطماعه وجشعه والسير في قافلته. وليست الإعتداءات الغادرة المتكررة على حدود الأردن، ولا الاعتداءات الهمجية على حدود مصر وسوريا ببعيدة، ولا غاياتها ودوافعها بمجهولة.

إن قيام دولة إسرائيل حال دون وحدة العالم العربي التي هي مصدر القوة ومعقد الأمل، وأتاح للاستعمار مجالا دائما للتدخل في شؤون البلاد العربية بحجة المشاكل القائمة بين العرب وإسرائيل، وغمر الديار العربية المجاورة لإسرائيل بموجة عارمة من القلق الدائم وعدم الإستقرار.

إن الاستعمار وأعوان الاستعمار استغلوا قيام إسرائيل وما رافق قيام إسرائيل من مآسي أحاقت بالعرب، ليقصروا عداء العرب على إسرائيل نفسها، محاولين أن يتناسى العرب الحقيقة الثابتة أن عدو العرب الأول هو من خلق إسرائيل ليتخذ منها مخلب القط.

ونحن الذين رافقنا قيام إسرائيل لا ننسى الدور الذي لعبته انكلترا كدولة منتدبة على فلسطين في ظهور إسرائيل لحيز الوجود لقد نص صك الإنتداب الذي تبنته انكلترا أثناء حكمها المباشر في فلسطين على ضرورة (وضع البلاد في ظروف اقتصادية وسياسية تسهل قيام الوطن القومي لليهود) والوطن القومي إنما عنوا به قيام دولة إسرائيل بالذات. وقد كانت انكلترا حريصة جد الحرص على تنقيذ كل نص فيه لليهود مصلحة، وكانت حريصة جد الحرص على تجاهل حقوق العرب وامتيازاتهم.

إن أبناء فلسطين العرب لم ينسوا ولا يحق لهم أن ينسوا كيف أقامت انكلترا لليهود، حتى في فترة الإنتداب حكومة ضمن حكومة، وكيف أنشأت لليهود جيشا قامت انكلترا بتنظيمه وتسليحه وتدريب ضباطه، وكيف أعطت لليهود قبيل مغادرتها البلاد وفي أثناء الحرب العالمية الثانية الطائرات والدبابات والكميات الهائلة من الأسلحة الأخرى.

وإن ننس لا ننسى كيف كانت تهدم بيوتنا وتنسف أحياؤنا ويشنق أبناؤنا من أجل خرطوشة فارغة، على حين تركوا لليهود المجال ليتمرسوا في الإرهاب وليعتادوا الرجولة، فكانوا ينسفون القطارات بما فيها من مئات الجنود الإنكليز وكانوا يهدمون العمارات على من فيها من كبار موظفي الدولة، وكانوا يشنقون الرعايا الإنكليز ويجلدون رجال الأمن الإنكليز ويختطفون القضاة الإنكليز، وكيف استمر إرهابهم فترة طويلة دون أن يعاملوا بما يعكر أمزجتهم جزاء لهم على إجرامهم وإرهابهم.

وإن ننسى لا ننسى كيف حمل العرب على إخلاء طبريا وحيفا وخلافهما، وكيف وقف الإنجليز موقف المتفرج المرتاح لما قام به اليهود من اعتداءات همجية صارخة في دير ياسين وخلافها.
وإن حاولنا عبثا نسيان مساوئ الإنتداب الإنكليزي فلن ننسى هذه المشاكل القائمة: مشكلة اللاجئين ومشكلة الحدود الدامية ومشكلة هجرة أبنائنا الدافقة.

مئات الألوف من إخواننا في العروبة والوطن، كانوا آمنين في ديارهم، ناعمين في أملاكهم، أصبحوا يفترشون الغبراء ويلتحفون السماء، أو يعيشون في أكواخ هزيلة وخيام بالية لا تقيهم غائلة القر ولا تمنعهم من شدة الحر.
مر على وضعهم البائس سنوات عجاف وقضيتهم تزداد مع الزمن تعقيدا، حتى فقدوا الأمل وكفروا بالعدالة..
وهذه الحدود الغريبة التي يعجز الشيطان عن تخطيط ما هو أسوأ منها أصبحت مذبحا للضحايا العربية والدماء العربية.

وهذه الهجرة الدافقة من أبنائنا المثقفين والعمال الفنيين وغير الفنيين تكاد تجعل بعض القرى

تقفر من أهلها، على حين نرى البلد في أمس الحاجة إلى سواعد أبنائه، لكن الظروف الاقتصادية السيئة والتدخل الاستعماري المباشر يجعل الوقوف في وجه هذه الهجرة أمرا متعذرا.

فلولا مأساة فلسطين وقيام دولة إسرائيل لما كانت مشكلة اللاجئين التي تنفطر لها الأكباد، ولولا مأساة فلسطين وقيام دولة إسرائيل لما كانت مشاكل الحدود الدامية ولولا مأساة فلسطين لما كانت مشكلة هجرة المواطنين على هذا النطاق الواسع.

وإذا ما تساءلنا (ولا يمكننا إلا أن نتساءل) من خلق إسرائيل وقوى لا يزال يقوي إسرائيل وينصرها في المحافل الدولية؟ أجابنا الواقع بلسان الصدق الذي لا مراء فيه: (الإنكليز والأمريكان).

وإذا ما تساءلنا (ولا بد لنا من أن نتساءل): هل اقترف الاستعمار الأنجلو- أمريكي جريمته هذه مرغما أم مختارا؟ وهل اقترفها عفوا أم كان له مصلحة في هذا السوء الذي حل بنا؟!

ويجيبنا لسان الواقع والمنطق السليم بكل صدق وجلاء:
«إن الاستعمار الأنكلو- أمريكي فعل بنا فعله طائعا مختارا، عامدا متعمدا، لأن له في ما اقترف وفي السوء الذي نحن فيه مصلحة أية مصلحة):

ولننتقل من هذه النقطة بالذات إلى دراسة حلف بغداد والأحلاف الأجنبية الأخرى ومدى فائدتها لنا أو خطورتها علينا.

حلف بغداد والأحلاف الأجنبية الأخرى
ليس حلف بغداد بالحادث الحديث، ولكنه حلقة من سلسلة لم تكتمل حلقاتها بعد من الأحلاف العدوانية التي يعمل الاستعمار الأنجلو- الأمريكي لإقامتها في أقاصي الشرق والغرب منذ أمد بعيد.

فقد بدأ الاستعمار بفكرة فرض الأحلاف العسكرية في الشرق الأوسط والشرق الأدنى منذ أيام فاروق. وكان أول بوادر هذا الإتجاه (حلف قيادة الشرق الأوسط المشتركة). أو (الدفاع المشترك عن الشرق الأوسط). ثم تلا ذلك حلف تركيا الباكستان –الولايات المتحدة- الذي روج له كثيرا. ولكن رفض الشعوب القاطع لفكرة الارتباط بأية أحلاف من هذا القبيل، وتناقض مصالح الاستعمارين الإنجليزي والأمريكي، جعل نجاح هذه المشاريع متعذرا.

وأخيرا طلع علينا الاستعمار الإنجليزي في ظروف معروفة بحلف: (تركيا- العراق- باكستان- إيران) الذي أقام الأردن وأقعدها حين حاول جر الأردن للانضمام إليه.

يدعي مؤيدو هذا الحلف أنهم تبنوا سياسة ضم الأردن إليه، لأنهم يرون فيه الوسيلة الوحيدة، في هذه المرحلة، للقضاء على إسرائيل عدو العرب الأول، أو دفع أذاها واعتداءاتها المتكررة، على الأقل وقد فاتهم أو تناسوا الحقائق التالية:

ج- إن حلف بغداد يصدع الجبهة العربية الآخذة في التماسك. ويتيح للجيوش الأجنبية الفرصة للتدخل في قمع الحركات الوطنية الصحيحة باسم الحلف.

على أن العرض الواقعي المنطقي الذي أوردته في الفصل السابق يثبت بما لا يحتمل الشك والجدل، إن عدونا الأول ليس إسرائيل وإنما من خلق إسرائيل وأمدها ولا يزال يمدها بكل أسباب القوة من مال وسلاح وعون في المحافل الدولية، لتحقق له الغايات الاستعمارية التي وجدت إسرائيل من أجل تحقيقها والتي أشرت إليها في الفصلين الثاني والثالث السالفين.

فهل من سداد الرأي وسلامة المنطق أن نعتمد في حل قضية فلسطين على من أوجدها لأن له في ذلك مصلحة؟ وهل من الحكمة في شيء أن نحاول أن نستمد القوة الفعلية للقضاء على إسرائيل من الجهة التي خلقتها ومكنتها ولا تزال تمكنها في الأرض؟ وهل نسينا الحكمة الكامنة في الحديث الشريف (لا يلدغ المؤمن من حجر واحد مرتين).

حالفنا الإنكليز والفرنسيين في مطلع الحرب العالمية الأولى ، فكان جزاؤنا على ذلك، أن عقد الحلفاء فيما بينهم (وفي الخفاء شأن اللص الخؤون) صفقة تجارية خسيسة كنا فيها سلعا وأسلابا توزع (ونحن ما زلنا نقاتل في صفوفهم ونطمئن إليهم). ثم جاءت الدلائل على وفاء انكلترا لعهودها وبرها بأصدقائها في إعلان وعد بلفور المشؤوم وفي صك الإنتداب.

وليست هذه هي المرة الأولى التي تربط فيها انكلترا القضية اليهودية بعجلة الإمبراطورية البريطانية.

ففي القرن التسع عشر كان قنصل انكلترا في القدس (كما يبدو في كتابه الذي ألفه عن تلك الحقبة من الزمن) على سياسة تبني قضايا اليهود وحمايتهم والعمل على اتخاذ اليهودية العالمية وسيلة من وسائل استغلال العالم العربي وتغلغل نفوذ الغستعمار الإنكليزي فيه.

وفي مطلع القرن العشرين يتقدم هربرت صموئيل (كما يقول في مذكراته) قبل ظهور وايزمن على المسرح بمذكرة ضافيه للمسؤولين في انكلترا ينصح فيها بإقامة دولة يهودية تضم خمسة ملايين يهودي تقوم بدور الحارس الأمين لمصالح الإمبراطورية البريطانية في العالم العربي بشكل خاص والشرقين الأدني والأوسط بشكل عام.

ولم تقف انكلترا وأمريكا عند حد قيام دولة إسرائيل والإعتراف فيها رسميا، بل استمرتا ولا تزالان في عونها ونصرتها. فقد جاءتا بدول التصريح الثلاثي الذي ضمتا إليه من بعيد الدولة التركية صديقة إسرائيل وربيبتهما. وهاهي دول التصريح الثلاث تقف نفسها على حماية إسرائيل ورعاية مصالحها، والدفاع عن جرائمها في المحافل الدولية. ولا تتورع عن المجاهرة بنواياها الخبيثة ووقوفها صفا واحدا ضد قضايا العرب جميعا في افريقيا وآسيا. وهنالك أكثر من دليل على صحة ما اذهب إليه.

وعلى سبيل المثال لا على سبيل الحصر، أورد بعض الوقائع التي تكشف بوضوع عن موقف هذه الدول التي تتظاهر بصداقتنا والحدب علينا وتشغل نفسها بموضوع الدفاع عنا، وهي في الحقيقة العدو اللدود والخصم الغادر.

على أثر ظهور مشكلة المثلث العربي، ذهب وفد من رؤساء بلديات ذلك المثلث لجلالة الملك عبد الله يشرحون له خطورة الموقف فأجابهم بما نشر في جريدة الدفاع بتاريخ 49/4/8 (أنا لا أخدعكم وصارحتكم ولا أزال أصارحكم... إن إنكلترا أو أمريكا ضغتا علي وعلى حكومتي لقبول هذه الاتفاقية) وليس كتاب ترومن بهذا الخصوص بالمجهول لدى الكثيرين.

أعلن المستر أندرسون وزير التجارة في حكومة أيزنهاور إن حكومة الولايات المتحدة وشعبها قدما للصهيونيين بين عامي 1948-1952 نحو ألف مليون دولار من الهبات والعطايا والقروض (وحصلت إسرائيل من عام 1952 إلى الآن على مبلغ مماثل).

أعلن السناتور رايلي رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي سنة 1953 إن الولايات المتحدة. (تعتبر إسرائيل القاعدة الأساسية لها، اقتصاديا وعسكريا وسياسيا، في الشرق الأوسط).

أعلن المستر هنري بايرود حينما كان مساعدا لوزير الخارجية الأمريكية في مؤتمر صحفي عقد في 2 شباط سنة 1954 في واشنطن (إن إسرائيل وجدت هناك لتبقى، وإن أمريكا هنا لتؤمن حياتها).

أرغمت انكلترا وأمريكا ألمانيا الغربية على أن تدفع تعويضات مالية لإسرائيل تبلغ نحو 875 مليون دولار.

وفي أوائل الصيف المنصرم أعلن وزير الحربية لإحدى دول التصريح الثلاثي على مسمع من بعض شبابنا في عاصمته بما يأتي:
(خلقنا إسرائيل لتبقى. ولا بد لبقاء إسرائيل من التوسع اقتصاديا في ديار العرب، فإما أن يكون ذلك صلحا وإما حربا. ولا قبل للعرب مجتمعين بقوى إسرائيل، ولا يستطيع صد إسرائيل سوى قوى انكلترا نفسها. وتدخلنا سيؤدي لإشعال حرب عالمية ثالثة، ونحن على غير استعداد للذهاب إلى هذا المدى البعيد).

وفي عهد وزارة دولة الملقي كان للأردن قضية ضد إسرائيل في منظمة الأمم، وفي السنوات الأخيرة كان لكل من مصر وسوريا قضايا ضد إسرائيل. ولم يأن لنا أن ننسى مواقف دول التصريح الثلاثي من هذه القضايا. تلك المواقف العدائية الوقحة. ولا أظن أحدا منا يستطيع أن ينسى أو يتناسى مواقف انكلترا وأمريكا وأخيرا تركيا من قضايا شمال افريقا العربي، وإنها جميعا ساندت فرنسا في تصرفاتها الغاشمة.

وأخيرا وليس أخرا جاءت خطوة مصر الرشيدة حين أقدمت على تسليح نفسها صدا للعدوان وصيانة للكرامة. فقامت قائمة دول التصريح الثلاثي وحليفتها تركيا، ودعوا جميعا بالويل والثبور لأن التوازن في الشرق الأدنى والأوسط قد اختل.

ومعنى التوازن في شرقنا لدى هذه الدول التي تريد أن تفرض علينا صداقتها بمنطق الحديد والنار، أن تظل قوى العالم العربي مجتمعة أدنى من قوى إسرائيل ذاتها. وذلك ليظل العالم العربي حقل استغلال وبقرة حلوبا لهؤلاء السادة، ولتظل إسرائيل سوطا يؤدب به العرب كلما سولت لهم أنفسهم أن يفكروا في مصالحهم أو أن يتشوفوا لنسائم الحرية والإنطلاق من ربقة الاستعمار ومجال نفوذه.

فهل يحق لعربي مؤمن بعروبته وانسانيته، مكتمل بقواه العقلية، ولديه بعض الحس الوطني، أن يقول بأن الإنضمام إلى حلف تشرف عليه الدول التي سردت مواقفها أعلاه يمكّننا من القضاء على إسرائيل؟

وهل هذه الدول الغادرة الفاجرة على استعداد للتخلي عن مصالحها، عن استغلالها واستعمارها لديارنا، وامتصاص دمائنا؟ وهل هي بالتالي مستعدة لإعطائنا المعول لهدم الصرح الذي بنته ورعته أقوى رعاية لقضاء حاجاتها الجوهرية؟

اللهم لا ثم لا. ومن حق كل مواطن عربي أن يشك في سلامة الدوافع التي تحمل أي سياسي أو صاحب رأي على تبني سياسة حلف بغداد وغيره من الأحلاف المماثلة، بعد اطلاعه على الوقائع التاريخية والحقائق الراهنة التي أسلفت ذكرها.

ولا أزال اذكر تعليقا نشر في مجلة (لايف) الأمريكية، بمناسبة تصريح عراقي أشار إلى أن العراق يستعمل الأسلحة الأمريكية لقتال إسرائيل، فقد جاء في ذلك التعليق الأمريكي: (إن ما نشر في العراق بهذا الخصوص إنما هو للإستهلاك المحلي، إذا أعطيت الأسلحة الأمريكية للعراق مشروطة بأن لا تستعمل ضد إسرائيل».

وحلف بغداد بعد كل هذا ولهذا، لا يعدو كونه استعمارا جديدا من نوع جديد. فبعد الضربات القاصمة التي حلت بالاستعمار في جنوب وشرق آسيا، وتململ الشعوب الأفريقية، أخذ الاستعمار يعض بنواجذه على الشرق العربي بشكل خاص والشرق الأدنى والأوسط بشكل عام وأصبحت بعض الصحف الإنكليزية كالديلى ميل مثلا ترى في ضياع الأردن من مجال النفوذ الإنكليزي مسألة حياة أو موت للجزر البريطانية نفسها.

والاستعمار يتوخى من وراء هذا الحلف إيجاد المبرر الشرعي إلى احتلال عسكري جديد والتدخل في أدق شؤننا الداخلية والخارجية والسيطرة على جميع مرافقنا بشكل شرعي يحمل تواقيع الرضا والإرتياح، وهو بذلك يضمن بقاء نفوذه في ديارنا، وتوسيع دائرة استغلاله لنا، وعندما يدق ناقوس الخطر ويعلنها المستعمرون الأنجلو- أميركان حربا شعواء على الدول الشرقية كان في وسعهم من جراء الحلف أن يسوقونا سوق الخراف للمذبحة التي لا ناقة لنا فيها ولا جمل.

أما الحجة الظاهرة التي تقدم بها الاستعمار لإقناعنا بضرورة الإنضمام لحلف بغداد وأمثاله، فهي دعواه بأن هنالك خطرا علينا من عدو موهوم، ليس الاستعمار وبالطبع ليست إسرائيل، ولا قبل لنا منفردين به، ولذلك كان الزاما علينا أن نرضخ لما يريدون وننجز لأحلافهم.

في أوائل الحرب العالمية الثانية ذهب وفد بريطاني للهند لإقناع المؤتمر الوطني الهندي بضرورة قيامه بتشجيع الهنود على التطوع في الجيش الإنكليزي، وذلك بحجة قيام ألمانيا الدكتاتورية الغاشمة بالإعتداء على بولونيا وسلبها حريتها واستقلالها. فكان رد ممثل المؤتمر أنذاك مولانا أبو الكلام آزاد: (تريدون منا أن نضحي بالملايين من أبنائنا، لاسترداد حرية بولونيا الأوروبية، فإذا كان لا بد لنا من سفك دماء أبناءنا، ألا ترون أنه أولى بنا أن نسفكها في قتالكم أولا لنيل حرياتنا التي تغتصبونها أنتم؟)

فالأنجلو- أمريكان بهذه الأحلاف يريدون تحويلنا عن هدفنا الأول الذي لا يجوز أن يسبقه هدف وهو التحرر من سيطرتهم والقضاء على عملائهم ووليداتهم، تارة بالتلويح لنا بمخاطر الشيوعية وطورا بالتهديد بأخطار الصهيونية وتارة أخرى بهما معا. والاستعمار أقدر الناس على التضليل وجمع المتناقضات في صعيد واحد.

فيا أيها المستعمرون الضالون المضلون إن العرب بلغوا درجة من الوعي تمكنهم من أن يقولوها بملء أفواههم:

(لن نسكت عن خطر واقع علينا، ملموس لدينا، اتقاء شر موهوم قد يقع وقد لا يقع).

أما الأحلاف العسكرية العدوانية الأخرى التي أقاموها في أوروبا وجنوب أسيا ويحاولون إقامتها في كل مكان فلها، كحلف بغداد نفسه، الأهداف الاستعمارية التالية:

السيطرة التامة اقتصاديا وعسكريا على البلاد الداخلة في الأحلاف وربطها بعجلة الدول الكبرى. وبذلك تضمن الدول الكبرى لنفسها ومشاريعها الأرباح الطائلة وتجعل الوضع الاقتصادي في صغار الأعضاء والثانويين منهم مرتبطا ارتباطا وثيقا باقتصاد الدول الكبرى، لا تستطيع عنه فكاكا.

الإبقاء على نفوذ ومصالح الدول الكبرى الموجودة فعلا في دول الحلف.

وضع اقتصاديات البلاد الداخلة في الأحلاف على قدم الحرب لتضمن بذلك تسابقا في التسلح، يكفل لمصانعها التي تنتج الأسلحة المتختلفة دواما في الإنتاج ووفرا في الأرباح.

الإستعانة بجيوش الدول الداخلة في الأحلاف وجميع امكانياتها في حروبها الاستعمارية وعلى الأخص في ما يفكر بها دعاة الحروب في الغرب من غزو للإتحاد السوفياتي والديموقراطيات الشعبية.

ويقيني أن في ما أوردت من حقائق ووصف صحيح لحقيقة هذه الأحلاف وأهدافها الاستعمارية، وطبيعة الاستعمار ذاته وعلاقاته بإسرائيل، الكفاية للتدليل على أن هذه الأحلاف لن تكون ولا يمكن أن تكون الوسيلة الصالحة لحل مشاكلنا وإزالة البؤس الذي نعيش فيه، وإنها على العكس من ذلك ضارة جدا، سيئة جدا، ترمي إلى زيادة شرورنا والإبقاء على السوء الذي نحن فيه. أما الوسيلة الصالحة للخلاص من ما نحن فيه فذلك موضوع آخر سأعالجه في الفصل الخامس التالي وهو الأخير.

سبيل الخلاص

المشكلة الفلسطينية (التي هي من انتاج الاستعمار الأنجلو- أمريكي وإخراجه) جزء لا يتجزأ من مشاكل العالم العربي، ومشاكل العالم العربي ترتبط، بدورها، ارتباطا وثيقا بمشاكل العالم الفسيح الأرجاء، ومشكلة المشاكل في العالم تكمن في وجود الاستعمار، في وجود طبقات وحكومات تؤمن بحقها في استغلال واستعباد طبقات ودول أخرى، في وجود فئات تستأثر (وتعمل جاهدة لتظل مستأثرة) بخيرات مختلف أقطار العالم على حساب عري وجوع وموض الملايين من البشر، في قلة تمتص دماء الشعوب وتستنزف حيويتها وتستحل الفتك والتضحية بالملايين من الناس على مذبح شهواتها وأطماعها لتظل وحدها تنعم وتتخم وتحكم وترسم.

وما مأساة فلسطين وما نجم عنها من مشاكل مستعصية على الحل، وما نقاسيه في الأردن من سوء متفاقم سوى مظهر من مظاهر هذا المرض الإجتماعي الخبيث، والاستعمار.

فمن سخرية القدر والاستهتار بالعقول الراجحة والمنطق السليم ومن الهزء الفاضح بمصالح الوطن وخير الأمة أن نظل معتمدين على عون الاستعمار الأنجلو- أمريكي مرتبطين بعجلته، وعلاقته بنا لا تعدو علاقة الذئب بالحمل أو علاقة الآكل بالمأكول، قوته في هزالنا ونماؤه في ضعفنا، وغناه في افتقارنا.

وموقفنا من المستعمرين الإنكليز والأمريكان لا يعدو موقف من اختطفت عقله الضبع، يعدو خلفها لا يلوي علي شيء، يناديها بأحب الأسماء وأشهاها وهي إنما تقوده إلى مصيره المحتوم، وحتفه المعلوم، إلى جحرها الدامس حيث تفترسه.

ولهذا فلا بد من سبل للخلاص غير هذا السبيل. فمن السبل الناجعة في حل مشاكلنا والقضاء على عدونا الأكبر، عدو الإنسانية جمعاء، والتخلص من براثنه ودفع أذاه ما يأتي:

الوعي العام ومعرفة واقعنا على حقيقته وإدراك الجماهير والحكام منا بشكل خاص لهذه الحقيقة السافرة التي تقضي علينا بفصم عرى علاقتنا بالمستعمرين، ومناصبتهم العداء.

أن يكون اعتمادنا في حل مشاكلنا وتحسين أحوالنا العامة على أنفسنا ومواردنا أولا، ثم بالتعاون مع الشعوب العربية في الأقطار العربية الأخرى وبالتساند مع كل حر يقاوم الاستعمار والاستغلال في أي قطر من أقطار العالم.

واعتمادنا على أنفسنا ومواردنا والتعاون مع أحرار العالم في سبيل صالحنا وخير الإنسانية يتطلب:

أن ننتظم في أحزاب مبدئية ذات مناهج مدروسة توحد القوى وتكتل العناصر الطيبة وتحشد المجهودات في سبيل الخير العام وفي سبيله فقط، تسير، إذا تعددت ، في صفوف متراصة نحو الأهداف المشتركة، غير جاعلة همها ظهور قادتها على حساب المصالح الوطنية العليا.

ولكي يكون التنظيم والنضال الحزبي ممكنا ومجديا في نفس الوقت، كان لزاما علينا أن نجاهد في

سبيل ضمان الحريات العامة أولا، فمحاربة العقيدة والرأي الحر قتل لخير ما في الإنسان من جهة، وطعن لجوهر مصالح الأمة في الصميم، ووأد للحقيقة وإخفات للنور الهادي إلى سبيل الرشاد من جهة أخرى.

إن لا نسمح بقيام أية حكومة في بلادنا لا تعتمد في وجودها في الحكم وبقائها فيه على رضاء الشعب وتمتعها بثقته الفعلية، وأنه لا يجوز أن يصل للحكم وأن يظل فيه من لا يعتبر مهمته الأولى خدمة المصلحة العامة، والتحرر من أغلال الاستعمار والنفوذ الأجنبي.

أن يقصى عن مسرح السياسة كل من تعاون أو يتعاون مع الأجنبي ضد مصالح بلده وكل من فرط في جنب الوطن وحقوقه.

أن لا نشترك في أية مشروعات استعمارية وأن لا نساعد على إنجاحها، سواء كانت اقتصادية أو عسكرية، مهما كانت براقة خادعة.

أن نؤسس دائرة وطنية من خيرة المواطنين الموثوقين وبالإستعانة بالخبراء المختصين فعلا، يؤتى بهم، اذا احتيج إليهم، من الدول التي لا مشاريع لها ولا مصالح استعمارية في ديارنا، وذلك للإشراف على تنمية موارد الثورة في البلد من زراعية وحيوانية وصناعية، وتنظيم الإستيراد والتصدير وإنشاء المصانع وفقا لحاجات البلد وللإكتفاء الذاتي ما أمكن وإنشاء المشروعات التي تتلاءم مع امكانيات البلاد وحاجاتها مع الإشراف التام على الثروة القائمة ومصادرها.

ولكي يكون هذا الإشراف مجديا ولكي يكون النجاح مؤكدا يجب أن يهدم الجهاز الحكومي القائم من أساسه، وأن تؤلف لجنة من الخيرة ينضم إليهم مختصون موثوقون (على أن يكون بينهم سكسوني أو مواطن من أي بلد ينضم له مطمع استعماري فينا) تدرس حاجة البلد وتخطط الدوائر الحكومية على ضوء الحاجة الفعلية له.

ثم يختار لكل مركز الكفؤ اختصاصا ونزاهة وإخلاصا، وتضع لهذا الجهاز الجديد (كادرا) جديدا تسير التعيينات والترقيات بموجبه على أسس من الكفاءات العلمية والخبرة المهنية ونظافة اليد والإخلاص للعمل، والمؤهلات الضرورية لا يجوز أن يكون من بينها وشائج القربى والمحسوبيات والرشوة وما أشبه من وسائل أفسدت الجهاز الحكومي وجعلت منه حقل ارتزاق ووجاهة.

العمل على إزالة الحدود والسدود القائمة ما بيننا وبين شقيقاتنا الدول العربية الأخرى، ثم تنسيق المجهودات الاقتصادية والثقافية والسياسية والعسكرية، لرفع مستوى الحياة في جميع الأقطار واستكمال سيادتها وتحريرها.

هذه بعض سبل النجاة، ولكن الحصول عليها واستخدامها ليس سهلا ميسرا، وليست في حد ذاتها قريبة المنال، إذ كلما كانت الغايات سامية، كلما كانت الوسائل لتحقيقها شاقة، إذ كلما كانت الغايات سامية، كلما كانت الوسائل لتحقيقها شاقة، وكلما كانت الحاجة إلى حشد القوى وبذل المجهودات المنسقة أشد.

ومخطَّطي الذي أعرضه يعتمد أولا وقبل كل شيء على وحدة الصفوف في الداخل وتناسي الأحقاد والأغراض الشخصية، والإلتفاف حول الأهداف القومية العليا التي هي الأهداف المشتركة لكل العناصر الوطنية الشريفة، وفي مقدمتها تحرير البلاد من الاستعمار والنفوذ الأجنبي، وأول خطوة في هذا الإتجاه

تحرير البلاد من الاستعمار والنفوذ الأجنبي، وأول خطوة في هذا الإتجاه تحرير الجيش الأردني وقوى الأمن الداخلي من الإنكليز، وإقصاء الأجانب جميعا عن الإشراف على أية ناحية من نواحي حياتنا الاجتماعية ومنعهم من التدخل في أي شأن من شؤوننا الداخلية والخارجية مهما صغر أو كبر، وذلك يتطلب وجود حكومات تسندها قوى الشعب لتستطيع الصمود أمام الضغط الأجنبي وتهديدات المستعمرين، ولا يتيسر لنا ذلك إلا بوجود مجلس نيابي صالح تنبثق عنه حكومة صالحة، ولا يتم ذلك إلا إذا أتيح للشعب الأردني أن يختار نوابه في حرية وروية، ولا يتم ذلك إلا بإيجاد قانون انتخابات صالح وطبق بكل دقة ونزاهة، وأقصى عنه عبث العابثين.

وفي استطاعة الشعب الأردني باتحاده وتصميمه، كما ظهر في الانتفاضة الشعبية الشاملة الأخيرة وكما لاح في الانتخابات النيابية الأخيرة، أن يحقق هذه الغاية الجوهرية من غاياته، مهما وضع في سبيله من عراقيل وألاعيب، وأن يحقق كذلك باتحاده وتصميمه غاية أخرى هي من أهم مطالب الحياة، وهي الحريات العامة.

ويتطلب مخططي كما سلف أن تنسق تنظيماتنا ومجهوداتنا الشعبية مع مثيلاتها في الشعوب العربية الأخرى، وأن ننسق تنظيماتنا ومجهوداتنا الشعبية ونضالات العالم العربي في مجموعة مع مثيلاتها في كل من آسيا وافريقيا، وقد دلل مؤتمر شعوب آسيا في نيودلهي ومؤتمر دول افريقيا وآسيا في بندنج، على إمكان تحقيق هذه الخطوة الخطيرة، وها نحن نلمس فوائدها الجليلة.

وكذلك يتطلب مخططي تنسيق كل ذلك وانسجام نضالاتنا مع نضالات جميع شعوب الأرض التي تقاوم الاستعمار واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان، وأن نشترك في، وأن نعمل على قيام منظمات ومؤتمرات دولية تعمل لتحقيق هذه الغايات المشتركة: تحرير كل شعوب الأرض ونشر السعادة والسلام في العالم، وبذلك نضمن إلى جانبنا القوة الهائلة التي لا يمكن أن يتجاهل خطرها إلا من أعماه الغرض والمرض، أعني قوة الرأي العام العالمي.

ومخططي هذا يرى التحرر السياسي أولا، ولكنه لا يغفل ولا يجوز أن يغفل ضرورة العمل في كل النواحي الأخرى، من اقتصادية وثقافية وتنظيمية تساعد على التحرر السياسي وتفيد بدورها منه.

قد يلوح للبعض أن طريقي المقترح وعر المسالك وإنه يحتاج إلى أمد طويل، والظروف ملحة، وسوء يتفاقم.

ولكن ألا يرى هؤلاء فيما حققته كثير من شعوب الأرض في الفترة القصيرة التي تلت الحرب العالمية الثانية وسبقتها بقليل، كالصين والهند ومصر نفسها، ما يطمئنهم إلى أن حق الشعوب في الحرية سيزهق باطل المستعمرين الباغين، وإن الغلبة في النهاية للخير، وإن مصائر الشعوب لا تقرر في ثوان وساعات. وأؤكد للمتسائلين والمتشككين إن الأوضاع العالمية مهما احلولكت الأجواء وأكفهرت ومهما زها باطل الاستعمار وأعوانه. هي لجانبنا، لجانب جميع الشعوب المتعطشة للحرية المناضلة في سبيلها!.

مؤلفات عبد القادر الصالح

- عودة إلى الذكريات –مطبعة رفيدي- عمان 1985.
- الهاشميات (شعر) عمان 1985.
- ذكريات –مطبعة رفيدي- عمان 1985.
- مستحسنات (مختارات من الأدب العربي والأجنبي) مطبعة رفيدي عمان 1985.
- رأي في حلف بغداد والأحلاف الأجنبية –مطبعة الترقي- دمشق 1956.
- تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم.
- عهد.

صدر للمؤلف حتى الآن

- الصراع بين الدين والقومية: -دار الفكر للثقافة والإعلام– رام الله/1994
- الأقزام السود: الجمعية العلمية الفلسطينية/ نابلس 1995.
- السلسلة القصصية للأطفال (حكايات البسْباسي1). الدار الوطنية/ نابلس 1995.
- الموسوعة التربوية الفلسطينية (عبد القادر الصالح) / الدار الوطنية، نابلس 1996.

تحت الطبع:

- السلسلة القصصية للأطفال (أرض الأجداد)

الفهرس

تعريف بدائرة المعارف الفلسطينية 347
المحتوى 347
الهدف 347
الآلية 348
حدود المسؤولية 348
تصدير 349
مقدمة 351

محارب ذيب مصطفى نصار

محارب ذيب مصطفى نصار 355
بيئته 355
نسبه 359
نشأته 360
ثقافته 361
ملامح شخصيته 362
مكانته بين الشّعراء الشّعبيّين 363

عبد اللطيف عقل

عبد اللطيف عقل 367
أعماله الشعرية 367
«النجاح» تنظم حفلاً لتكريم الشاعر عبد اللطيف عقل 368
ذلك الفلاح المثقف الحر 375
في ذكرى رحيله 375

عبد الله الفارس

مقدمة الطبعة الأولى 379

عاطف عبد العزيز نور الله

عاطف عبد العزيز نور الله 391
(فلسطيني الهوى فلسطيني)

صالح برانسي

صالح برانسي 399
بطاقة تعريف 399
صالح برانسي الكنعاني الأسمر 399
مقتطفات من سيرته الذاتية 399
صفات صالح برانسي 400
مقتطفات مما قاله الدكتور فوزي الاسمر عن صالح برانسي 401
فكر صالح برانسي 401
مدريد أوسلو والتسوية 402
القومية والماركسية 402
البرلمانية 402
قالوا في المناضل الكنعاني 403
صالح برانسي في حركة الأرض 404
حارس فلسطين 405
مقتطفات من خطابات صالح برانسي في مناسبات مختلفة 407

أبو وضاح، سيف الدين زيد الكيلاني

أبو وضاح، سيف الدين زيد الكيلاني 411
الشهادات العلمية 411
الإنتاج الأدبي والعلمي والشعري والفني 411
أوجه النشاط الاجتماعي والسياسي 411
المناصب التي تقلدها 412
الأوسمة والرتب التي يحملها 412
القسم الرهيب ! 414

سلامة خليل إبراهيم خليل

سلامة خليل إبراهيم خليل 419

عبد الرحمن بارود

عبد الرحمن بارود 429
النشأة 429
حياته الجهادية والتنظيمية كما يرويها الشيخ محمد شمعة 431
نماذج من شعره 432
مؤسسة فلسطين للثقافة تنعي الدكتور عبد الرحمن بارود 435

الشهيدة فاطمة غزال

الشهيدة فاطمة غزال 439

خالد محمد صالح أحمد غانم

خالد محمد صالح أحمد غانم الملقب بخالد أبو خالد 443
مولده ونشأته 443
حياته العملية 444
مشواره السياسي 444
أثاره الأدبية ومؤلفاته 445

الجوزيّان : بندلي وابنته انستاسيا

الجوزيّان : بندلي وابنته انستاسيا 449
المقدمـــــة 449
مولده ونشأته 451
مؤلفاته باللغة الروسية 455
بندلي الجوزي وكتابه «من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام» 457

أنستاسيا الجوزى

صفاتها ومكانتها 465
المصادر والمراجع 466
مراجع في الكتب 466

عبد القادر الصالح

عبد القادر الصالح 469
مقدمة 469
طفولته 471
التعليم 474
العطاء 476
النضال السياسي 479
نائب نابلس عبد القادر الصالح 481
عبد القادر الصالح في الوزارة 486
على أبواب النكسة 489
النهاية 492
ملحق أدبي 494

الرجل اللائق للمكان اللائق	505
نموذج من خطبه	507
رأيه في حلف بغداد والاحلاف الأجنبية الاخرى	509
تمهيد	511
طبيعة الاستعمار وتطلباته	511
أهداف الاستعمار وغاياته في العالم العربي	514
إسرائيل	517
سبيل الخلاص	524
مؤلفات عبد القادر الصالح	527